مِنْ مَوْضُوعَاتِ سُوَرِ القُرْآنِ الكَرِيم
«٢٣»

الإنسان من البداية إلى الخلود

في سورة المؤمنون

تأليف
عبد الحميد محمود طهماز

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

حقوق الطبع محفوظة

تُطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص ب : ١١٣ / ٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

الإنسان من البداية إلى الخلود

في سورة المؤمنون

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فإن أعظم الموضوعات التي اهتم بها القرآن الكريم بعد موضوع التوحيد، موضوع حياة الإنسان في الدنيا، وحكمة خلقه ووجوده فيها، وارتباط ذلك بتشريفه وتكليفه ومسؤوليته وحسابه وجزائه.

هذه القضية جزء لا يتجزأ عن موضوع العقيدة الأساسية، وهو التوحيد لأنه يؤكد توحيد الله تعالى واتصافه بصفات الكمال في ذاته وفي أفعاله، وتنزهه تعالى عن كل صفات النقص.

فما خلق الله الإنسان للعبث وللعب في حياته الدنيوية القصيرة ثم ينتهي بالموت، يتنزه الحق سبحانه عن ذلك، ما خلقه إلا للفلاح والبقاء والخلود.

فعلى الإنسان أن يدرك هذه الحقيقة، فيعرف حكمة وجوده وجوهر حياته وما يترتب على سلوكه فيها من خلود وبقاء في النعيم أو

في الشقاء، فقد ابتدأ وجود الإنسان وخلوده عندما أخرج من العدم، إنها بداية الرحلة الخالدة التي لا تنتهي بتقدير الله تعالى.

وإن هذه الحقيقة أيضاً أهم قضيةٍ في حياة الإنسان، على تفهمِهِ لها يتحدد سلوكه، وبها يعرف حكمة وجوده وجوهر حياته وطبيعة الطريق الذي يسير عليه، ولهذا كانت أعظم القضايا في التنزيل الحكيم عالجها في سُورهِ من جميع جوانبها وطرحها بأساليب متنوعة وخص سورة المؤمنون بعرض هذه القضية بأسلوب متفرد متميز بإبراز طرفي وجود الإنسان وارتباط ذلك بتكليفه ومسؤوليته.

وجاء الكتاب بحمد الله في فصل واحد، متفقاً ومنسجماً مع تسلسل آيات السورة، وموضحاً الاتساق والانسجام بين آياتها وموضوعها الأساسي.

أسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

عبد الحميد محمود طهماز
مكة المكرمة ٢٠/ ١٠/ ١٤١٢ هـ
٢٣/ ٤/ ١٩٩٢ م

موضوع السورة

اهتمت سورة المؤمنون بإبراز حكمة خلق الإنسان، وبيان أنه لا ينتهي بالموت، إذ ينتقل بالموت من الدنيا إلى البرزخ، الذي يفصله عن الآخرة، ثم يبعثه الله تعالى يوم القيامة للخلود في النعيم أو في الجحيم.

بدأت السورة بتقرير فلاح المؤمنين، وهو بقاؤهم في الخير وخلودهم في النعيم، فأشارت بذلك إلى أن حكمته تعالى من خلقهم، هي أن يتشرفوا بعبادته وطاعته في الدنيا، ليرحمهم في الآخرة بالخلود في فراديس جنته، وساحات فضله: ﴿قد أفلح المؤمنون. . . أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾.

فما خلقهم تعالى للشقاء والخلود في العذاب، فشقاء المعذبين نابع من كسبهم واختيارهم، وقد أبرزت الآيات هذا المعنى في آخر السورة عند خطاب التوبيخ والتقريع الموجه للمعذبين في جهنم ﴿ألم تكن آياتي تتلىٰ عليكم فكنتم بها تكذبون﴾، وأكدته أيضاً آيات السورة عندما تحدثت عن عنايته تعالى بالإنسان ورحمته به، من بداية خلقه في رحم أمه ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. . . ﴾، وببيان تيسير سبل معيشته في الدنيا، بتسخير المكونات له: ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين. . . ﴾.

وكما أنعم الله على الإنسان بنعمة الإيجاد والإمداد، أنعم عليه أيضاً بأسباب الهداية إلى طريق الفلاح والخلود في النعيم، وذلك بتوالي الرسالات الإلّهية عليه، بواسطة الأنبياء والمرسلين، وهو ما بينته الآيات أيضاً عندما تحدثت عن نبي الله نوح عليه السلام ورسالته، ثم أعقبته بالحديث عن توالي الرسالات الإلّهية مع توالي الأجيال البشرية ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترا كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبُعْداً لقوم لا يؤمنون﴾.

وركزت آيات السورة من خلال حديثها هذا، على عناد المعاندين، وإعراضهم عن رسالات الله تعالى، وعدم انتفاعهم بوسائل التمكين، التي زودهم الله بها، للتمييز بين الخير والشر ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾ ومع ذلك بقي القوم في غمرة غفلتهم، وسكرة شهواتهم، حتىٰ نزل بهم الموت، حينئذ انتبهوا وزالت عنهم غفلتهم وغمرة شهواتهم ﴿حتىٰ إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون﴾. وهي صحوة متأخرة لا تنفعهم، لأن الله تعالى قدر عدم الرجوع إلى الوراء، فقد ضيع القوم حياتهم في العبث واللعب، الذي ما خلقوا من أجله ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون، فتعالى الله الملك الحق لا إلّه إلا هو رب العرش الكريم﴾.

تلك هي الخطوط العريضة الرئيسية لموضوع سورة المؤمنون، كما سيظهر لنا ـ إن شاء الله ـ عند الحديث عن تفصيله.

بسم الله الرحمن الرحيم

على طريق الفلاح

﴿قد أفلح المؤمنون﴾ [١] أي: قد نال المؤمنون الفلاح وفازوا به، أو دخلوا في الفلاح وساروا على طريقه، لأن الإفلاح الدخول في الفلاح.

ويطلق الفلاح في لغة العرب على معنيين: الأول الفوز بالمطلوب الأكبر. والثاني البقاء السرمدي في الخير واستمرار الوجود، ومنه قول لبيد:

لو أن حياً مدرك الفلاح لنـالـه مـلاعـب الـرمـاح

يعني مدرك البقاء، ومنه بهذا المعنىٰ قول كعب بن زهير، أو الأضبط بن قريع:

لكل هم من الهموم سعة والمسا والصبح لا فلاح معه

أي: لا بقاء معه(١).

ويقال أيضاً في أصل الفلاح: الشق والقطع، ومنه سمي الأكار فلاحاً لأنه شق الأرض بالحرث، فكأن المفلح قد قطع المصاعب حتى

---

(١) انظر: أضواء البيان ٥/٧٥٧.

نال مطلوبه، قال القرطبي: وقد يستعمل في الفوز والبقاء، وهو أصله أيضاً في اللغة[١].

فالبقاء في الخير والخلود أمنية كل حي، وقد فاز به المؤمنون، وكانوا يتطلعون إليه ويرجونه، وهذا ما دلت عليه كلمة (قد) فهي تثبت المتوقع، وتدل على ثباته إذا دخلت على الماضي، فتقربه من الحال، ولما كان المؤمنون متوقعين ذلك من فضل الله، صدرت بها بشارتهم[٢].

فالفلاح قد ثبت لهم في الحال، وهم على طريقه، فالآية حملت البشارة الكبرى للمؤمنين، ولعل هذا سر الدعوات الكريمات، التي دعا بها النبي ﷺ، بعد أن أنزل الله عليه هذه الآيات.

روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي، يسمع عند وجهه كدوي النحل، فلبثنا ساعة، فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا، ثم قال: لقد أنزل عليّ عشر آيات، من أقامهن دخل الجنة» ثم قرأ: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ حتى ختم العشر[٣].

الخاشعون في الصلاة

ثم بينت الآيات الأعمال التي أفلح المؤمنون بسببها، وهي:

﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ [٢] أي: خائفون من الله تعالى، متذللون له.

---

(١) فتح القدير ١/ ٣٧.

(٢) تفسير البيضاوي ٤/ ٣٣٢.

(٣) وأخرجه أيضاً الترمذي والنسائي.

وأصل الخشوع: السكون والطمأنينة والانخفاض، وجعله بعض العلماء من أفعال القلوب، كالخوف والرهبة، وجعله بعضهم من أفعال الجوارح، كالسكون وترك الالتفات والعبث، ولا شك أن القلب إذا خشع خشعت الجوارح؛ إذ هو أمير عليها، فالخشوع من أعمال القلب يظهر أثره في سكون الجوارح، فالظاهر عنوان الباطن، ولهذا كان النبي ﷺ إذا قام إلى الصلاة أقبل على أصحابه فوعظهم قائلاً: «هل ترون قبلتي هاهنا؟ الله ما يخفىٰ عليّ ركوعكم ولا خشوعكم، وإني لأراكم من وراء ظهري»(١).

والخشوع روح الصلاة، يروض النفس ويهذبها، ويجعلها تتذوق لذة مناجاة الله تعالى وحلاوة ذكره، فتقبل على عبادته وطاعته بهمة ونشاط، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾(٢).

المعرضون عن اللغو

﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾ [٣] أي: مبتعدون عن اللغو، ومتجنبون له في جميع الأوقات.

واللغو: الباطل واللهو، وكل ما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال. والإعراض يدل على بعدهم عنه رأساً وتسبباً وميلاً وحضوراً، فإن أصله أن يكون في عرض غير عرضه(٣).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الصلاة (٧٤١).
(٢) البقرة: الآية ٤٥.
(٣) تفسير البيضاوي ٤/ ٣٣٣.

فلا مكان في حياة المؤمن للغو واللهو والعبث؛ لأن ميدان عبوديته لله تعالى وطاعته رحب فسيح، فهو أوسع من حياته مهما امتدت، ولو صرف الإنسان كل حياته في طاعة ربه وعبادته وشكره، فإنه يبقىٰ مقصراً في حق شكر نعم الله تعالى عليه، وفي القيام بحق عبوديته له جلَّ جلاله، كما في قوله سبحانه: ﴿كلا لما يقض ما أمره﴾[1].

فليس في الإسلام لهو وعبث، ويجب أن تكون حياة المسلم حزماً وعزماً وجداً، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾[2]. وتصرفات المسلم في حياته كلها موصولة بحكمة وجوده، وهي طاعة الله تعالى، وعمارة الأرض والحياة بعبادته، ولا شك أن جده واجتهاده في طاعة ربه يشغله عن اللهو واللعب، ولهذا لما وصفهم بالخشوع في الصلاة، أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو، ليجمع لهم الفعل والترك، الشاقين على الأنفس، اللذين هما قاعدتا بناء التكليف[3].

الفاعلون للزكاة

﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ [٤] أي: يؤدون زكاة أموالهم، أو يزكون أنفسهم ويطهرونها من لوث الكفر والشرك، والعادات القبيحة المذمومة، ولا شك أن تزكية النفس وتطهيرها من أعظم أسباب الفلاح، كما في قوله تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها﴾[4].

---

(١) عبس: الآية ٢٣.
(٢) الفرقان: الآية ٧٢.
(٣) تفسير النسفي ٤/ ٣٣٣.
(٤) الشمس: الآية ٩.

ولفظ ﴿فاعلون﴾ يدل على المداومة والاستمرار، بخلاف كلمة: مؤدون، فتزكية النفس عمل دائم يستمر مع الإنسان طول حياته، ولذلك سماه بعضهم بالجهاد الأكبر، وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾(١).

ودل هذا الوصف على أنهم بلغوا الغاية في القيام على الطاعات البدنية والمالية، والتجنب عن المحرمات(٢).

الحافظون لفروجهم

﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ [٥] أي: ممسكون لعوراتهم وسوآتهم عما تدعو إليه شهواتهم.

ثم استثنت الآيات السبيل الشرعي لقضاء الشهوة، بقوله تعالى: ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ أي: إلا مع زوجاتهم أو المملوكات لهم ملكاً شرعياً، وهن الأسيرات اللواتي أذن ولي الأمر باسترقاقهن، فقد أباح الإسلام لمالك الأمة أن يتسرى بها، بعد أن يستبرىء رحمها بحيضة، وإذا ما حملت منه وولدت أصبحت أم ولد، لا يجوز له بيعها، وتصبح حرة بعد وفاته.

﴿فإنهم غير ملومين﴾ [٦] أي: لا لوم عليهم في قضاء شهوتهم مع زوجاتهم أو ما ملكت أيمانهم، فالإسلام دين التوسط والاعتدال، وما حرم تعالى على الإنسان شيئاً، إلا وأحل له ما يغنيه عنه، فقد حرم الزنى وشرع الزواج وحث عليه، ففي الحلال ما يغني عن الحرام،

---

(١) العنكبوت: الآية ٦٩.

(٢) تفسير البيضاوي ٤/ ٣٣٤.

ولهذا أمر تعالى بالوقوف عند حدود الحلال وحرم تجاوزها، فقال:

﴿فمن ابتغىٰ وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ [٧] أي: فمن قصد غير الزوجات والمملوكات، فأولئك هم المتجاوزون للحدود المشروعة، الكاملون في العدوان والمخالفة لأحكام شرع الله تعالى، فهم كما قال نبي الله لوط عليه السلام لقومه: ﴿أتأتون الذكران من العالمين * وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون﴾[١].

ودلت الآية على تحريم قضاء شهوة الجنس عن غير طريق الزواج الشرعي الصحيح وملك اليمين الصحيح.

الراعون للأمانات والعهود

﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ [٨] أي: قائمون بحفظها، فالراعي القائم على الشيء بالحفظ والإصلاح، كراعي الغنم، والمراد من الأمانات والعهد العموم، في كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا، من جهة الله عزّ وجلّ، ومن جهة الخلق[٢].

فالإسلام يوجب حفظ الأمانات والوفاء بالعهود، قال تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعماً يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً﴾[٣]، وقال أيضاً: ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً﴾[٤].

---

(١) الشعراء: الآيات ١٦٥ ـ ١٦٦.
(٢) تفسير النسفي ٤/ ٣٣٤.
(٣) النساء: الآية ٥٨.
(٤) الإسراء: الآية ٣٤.

ولهذا قال في صفات المؤمنين: ﴿الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾ بينما قال في صفات الكافرين: ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾[1]. وقال عليه الصلاة والسلام في صفات المنافقين: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[2].

المحافظون على صلواتهم

﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ [٩] أي: يواظبون عليها ويؤدونها في أوقاتها.

وأفاد لفظ الفعل ﴿يحافظون﴾ الاستمرار والتجدد، فالتكليف في أداء الصلاة متجدد ومتكرر كلما دخل وقتها، والمداومة على أداء الصلاة في أوقاتها من أفضل الطاعات وأعظم القربات، وفي الحديث الشريف عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها» قال: ثم أي؟ قال: «ثم بر الوالدين» قال: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»[3].

كما أفاد تصدير صفات المؤمنين بالخشوع في الصلاة، وختمها بالمحافظة عليها، تعظيم شأن الصلاة، وبيان أهميتها في حياة المؤمنين، ودورها الكبير في فلاحهم وخلودهم في النعيم.

---

(١) الرعد: الآيات ٢٠ ـ ٢٥.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان (٥٩).

(٣) صحيح البخاري، كتاب المواقيت (٥٢٧).

الـوارثــون

﴿أولئك هم الوارثون﴾ [١٠] أي: أولئك الجامعون لهذه الأوصاف، هم الأحقاء بأن يسموا وراثاً، دون من عداهم ممن ورث الأموال والأمتعة الزائلة الفانية، لأن أولئك ورثوا الفلاح، وهو البقاء السرمدي في الخير والنعيم في الجنة.

أو الوارثون الذين يرثون منازل أهل النار من الجنة، ويؤيده الحديث الشريف عند ابن ماجه وأحمد بسند صحيح عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان، منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإذا مات ودخل النار، ورث أهل الجنة منزله»، فذلك قوله: ﴿أولئك هم الوارثون﴾. قال القرطبي: ويحتمل أن يسمى الحصول على الجنة وراثة، من حيث حصولها دون غيرهم، فهو اسم مستعار على الوجهين[١].

وهي كقوله تعالى: ﴿تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً﴾[٢]. وقوله سبحانه: ﴿وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾[٣].

﴿الذين يرثون الفردوس﴾ أي: الذين يرثون أعلى الدرجات في الجنة وأفضلها، التي ورد وصفها في قول النبي ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألـوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ـ أراه قال: وفوقه عرش الرحمن ـ ومنه تفجر أنهار

---

(١) تفسير القرطبي ١٠٨/١٢.
(٢) مريم: الآية ٦٣.
(٣) الأعراف: الآية ٤٣.

الجنة»[1].

ويطلق الفردوس في الأصل، على البستان الذي يجمع كل شيء، وقيل: هو الذي فيه العنب[2].

﴿هم فيها خالدون﴾ [11] أي: ماكثون فيها أبداً، لا يتحولون عنها، كما في قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً * خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً﴾[3].

وهذا منتهىٰ فلاح المؤمنين وغايته، وهو الوصول إلى دار البقاء السرمدي، والخلود الأبدي، في نعيم لا ينفد ولا يبيد.

وفي الحديث الشريف عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «ينادي منادٍ: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً» فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾»[4] أسأله تعالى أن يجعلنا منهم.

البداية

وبعد أن وصفت الآيات طريق الفلاح والبقاء في النعيم، شرعت في الحديث عن بداية الإنسان وأطوار خلقه الأول، وكيف أخرجه الله تعالى من العدم، ووضعه على أول طريق الحياة.

---

(١) صحيح البخاري، الجهاد، (٢٧٩٠).
(٢) فتح الباري ٦/ ١٣.
(٣) الكهف: الآيات ١٠٧ ـ ١٠٨.
(٤) صحيح مسلم، كتاب الجنة (٢٨٣٧).

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ [١٢] أي: خلقناه من خلاصة استخلصت من طين، فالسلالة: فعالة من السل، وهو استخراج الشيء من الشيء، تقول: سللت الشعر من العجين، والسيف من الغمد، والمعنىٰ: خلقنا الإنسان من شيء مستخرج من طين، وهو المني المستخلص من الدم، والدم مستمد من الأغذية التي يتناولها الإنسان، والتراب مصدر هذه الأغذية، ومر معنا في سورة الحج عند قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب﴾ أنه قد ثبت علمياً أن العناصر التي تكوّن البنية المادية لجسم الإنسان، هي نفس العناصر الأساسية المكونة للتراب.

﴿ثم جعلناه نطفة في قرار مكين﴾ [١٣] أي: ثم جعلنا الإنسان نطفة في مستقر حصين، وهو الرحم، والنطفة هي البييضة الملقحة، المختلطة بالحيوان المنوي الذي أفرزه الرجل، فهي النطفة الأمشاج، التي قال الله تعالى فيها: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾(١).

فهذه النطفة هي بداية وجود الإنسان، كما قال تعالى: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾(١).

ورحم المرأة الذي هو القرار المكين، أحصن مكان في جسمها، قال تعالى: ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه في قرار مكين * إلى قدر معلوم﴾(٣).

---

(١) الإنسان: الآية ٢.
(٢) السجدة: الآيات ٧ ـ ٨.
(٣) المرسلات: الآيات ٢٠ ـ ٢٢.

أطوار الخلق

وبعد أن وصفت الآيات بداية خلق الإنسان، بينت أطوار خلقه، التي يقلبه الله تعالى فيها:

﴿ثم خلقنا النطفة علقة﴾ أي: ثم حولنا وصيرنا النطفة علقة، وهي في اللغة: قطعة الدم المتخثر الجامد، وكل ما علق أو عُلق بالشيء، أو دودة في الماء تعلق في حلوق الدواب وتمتص منها الدم، وكان علماء التفسير يرون أنها قطعة الدم الجامد، لكن المحدثين من العلماء والأطباء، ينصرفون عن هذا المعنىٰ إلى المعنىٰ الآخر للعلقة، المشتقة من العلوق والتعلق، فالعلقة هي النطفة بعد أن تتعلق بالرحم، وتكتسب صفة العلوق(١).

﴿فخلقنا العلقة مضغة﴾ أي: فصيرنا العلقة قطعة لحم صغيرة، قدر ما يمضغ.

﴿فخلقنا المضغة عظاماً﴾ وهذه العظام تكون الهيكل العظمي الأول للإنسان.

﴿فكسونا العظام لحماً﴾ أي: جعلنا للعظام العارية كساء من اللحم، وهي العضلات والأغشية التي تغطي العظام، وقد ثبت علمياً أن الخلايا التي تتكون منها العظام توجد قبل الخلايا التي يتكون منها اللحم(٢).

﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ أي: خلقاً مبايناً للخلق الأول في الصفات، وذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد من الخلق الآخر نفخ

---

(١) انظر: الطريق إلى الأمة المسلمة في سورة الحج ص ٣١.

(٢) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ٣٧٢.

الروح، ولكن العلامة البيضاوي رحمه الله لم يقصر الآية على هذا المعنىٰ، فقال: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ هو صورة البدن أو الروح أو القوى، بنفخه فيه، أو المجموع، و ﴿ثم﴾ لما بين الخلقين من التفاوت[1].

ويقرر علماء الطب أنه يتم تصويره وتسويته وتعديله، وتنفخ فيه الروح، في هذا الطور، ومن له أدنىٰ إلمام بعلم الأجنة يعرف كيف أن أجهزة الجسم المختلفة تهدم ويعاد بناؤها باستمرار، وتتجلىٰ هذه الحقيقة في أجلىٰ صورها في الجنين، ثم تقل نسبياً بعد الولادة، ثم تقل كذلك بعد البلوغ، ولكنها لا تتوقف حتىٰ في الشيخوخة[2].

فتصوير الإنسان وتشكيله يتم في داخل الرحم، كما قال تعالى: ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إلّه إلا هو العزيز الحكيم﴾[3].

والآيات تدل على أن التصوير يتم بعد الخلق، قال سبحانه: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾[4]. فخلق الإنسان يمر بمراحل قدّرها العليم الخبير، وأشار إليها بقوله: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمـات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إلّه إلا هو فأنىٰ تصرفون﴾[5].

---

(١) تفسير البيضاوي ٤/ ٣٣٦.
(٢) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ٣٧٤.
(٣) آل عمران: الآية ٦.
(٤) الأعراف: الآية ١١.
(٥) الزمر: الآية ٦.

ففي الخلق الأول لا تتضح المعالم المميزة لشكل الإنسان، أما في الخلق الآخر فتتضح المعالم، وتظهر الصورة الإنسانية المميزة له، ولهذا ختم الله تعالى الآية بقوله:

﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ [١٤] أي: تعالى أمره سبحانه في قدرته وعلمه وحكمته، فهو أحسن المصورين والمقدرين، أو: ﴿تبارك﴾ تفاعل من البركة، ﴿أحسن الخالقين﴾ أتقن الصانعين[(١)].

فهو المستحق للتعظيم والثناء على باهر حكمته وبديع صنعته، الذي صور الإنسان في أحسن صورة وأعدلها وأقومها، كما في قوله: ﴿خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير﴾[(٢)]، وقوله سبحانه: ﴿وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين﴾[(٣)].

وقد أقسم الله تعالى علىٰ تصوير الإنسان في أحسن الصور وأعدل الأشكال، تعظيماً لهذه الظاهرة الدالة على كمال قدرته ورحمته، فقال: ﴿والتين والزيتون وطور سينين * لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾.

ثم أجملت الآيات ذكر المراحل الكبرى، التي يمر بها الإنسان، وهو يسير على طريق الوجود والبقاء:

﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾ [١٥] أي: ثم إنكم بعد المرحلة الأولى من وجودكم، لصائرون إلى الموت لا محالة، ولذلك جاء الخبر عنه مؤكداً بعدد من المؤكدات، فهو أمر محتم مقدر لكم، لا خيار لكم

---

(١) تفسير القرطبي ١٢/ ١١٠.
(٢) التغابن: الآية ٣.
(٣) غافر: الآية ٦٤.

فيه ولا إرادة، كأطوار خلقكم التي سبق ذكرها.

ثم تبعثون بعد انتهاء المرحلة الفاصلة الممتدة بعد الموت إلى الحياة الثانية، والتي ستذكرها آيات السورة باسم البرزخ:

﴿ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ [١٦] أي: تخرجون من قبوركم للحساب، وما يترتب عليه من خلود وبقاء في النعيم أو في الشقاء والعذاب.

الإمداد بأسباب الحياة

جاء في السورة بعد بيان الإيجاد، بيان الإمداد، فالإنسان مفتقر دائماً إلى خالقه في وجوده وفي بقائه، وكما أوجده سبحانه، وأخرجه من العدم إلى الوجود، أمده بكل أسباب وجوده وأسباب بقائه، بفضله وإحسانه.

﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق﴾ أي: سبع سماوات، بعضها فوق بعض، وكل سماء طريق إلى السماء التي فوقها، قال تعالى: ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً﴾(١).

ومع أن الإنسان خلق من الأرض ويعيش عليها، فهو محتاج إلى ما في السماوات من أسباب عيشه واستمرار وجوده، ولهذا سخّر له تعالى ما في السماوات، كما سخّر له ما في الأرض، قال سبحانه: ﴿وسخّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾(٢).

---

(١) نوح: الآية ١٥.
(٢) الجاثية: الآية ١٣.

﴿وما كنا عن الخلق غافلين﴾ [١٧] أي: وما كنا عن تدبير أمر الخلق مهملين، فنحن نعلم كل ما يحتاجون إليه وما يصلح لهم، فهو الخلاق العليم الحكيم، يخلق الخلق ويدبر أمره.

﴿وأنزلنا من السماء ماء بقدر﴾ أي: أنزلنا من جهة السماء ماء بمقدار معين، حسب ما تعلقت به إرادتنا، وسبق به علمنا، كما في قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾[١].

﴿فأسكناه في الأرض﴾ أي: جعلنا له مسكناً ومستقراً في الأرض، لكي يتمكن الناس من الانتفاع به، فالمياه الجوفية التي في باطن الأرض، أصلها من مياه الأمطار.

﴿وإنا على ذهاب به لقادرون﴾ [١٨] أي: وإنا على إزالته وحرمانكم من الانتفاع به لقادرون، كما نحن قادرون على إنزاله، فاعرفوا فضله تعالى عليكم وشدة افتقاركم إلى رحمته، فلا غنىٰ لكم عن فضله: ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين﴾[٢].

﴿فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون﴾ [١٩] أي: أنشأنا لكم بهذا الماء بساتين منها تتفكهون وتأكلون.

﴿وشجرة تخرج من طور سيناء﴾ أي: وأنبتنا لكم بماء المطر أيضاً، شجرة تخرج من جبل سيناء، وهي شجرة الزيتون، ويبدو أنها أول ما نبتت في جبل الطور، في منطقة سيناء، الواقعة بين فلسطين ومصر، وهي شجرة مباركة أنبتها الله في أرض مباركة، في المكان الذي

(١) الحجر: الآية ٢١.
(٢) الملك: الآية ٣٠.

كلم الله فيه موسى، ولعلها الشجرة التي ذكرها سبحانه في قوله: ﴿فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين﴾[1].

ووصفها أيضاً بالبركة في قوله الكريم: ﴿يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾[2].

ومن بركتها كثرة منافعها للناس، فهي طعام ودواء، أخرج الترمذي عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً: ﴿كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه يخرج من شجرة مباركة﴾.

﴿تنبت بالدهن﴾ أي: تنبت بثمر الزيت، وهو الزيتون الذي يستخرج منه الزيت.

﴿وصبغ للآكلين﴾ [٢٠] أي: وإدام يأتدم به الآكلون، ففي الزيتون دهن وإدام.

وخص سبحانه هذه الأشجار الثلاثة بالذكر لكثرة منافعها، كما أنه ذكرها في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾[3].

---

(١) القصص: الآية ٣٠.
(٢) النور: الآية ٣٥.
(٣) النحل: الآيات ١٠ ـ ١١.

﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة﴾ أي: وإن لكم في الإبل والبقر والغنم لآية وموعظة تعتبرون بها، وتعرفون فضله تعالى عليكم.

﴿نسقيكم مما في بطونها﴾ أي: نسقيكم من ألبانها، وإخراج اللبن مما في بطون الأنعام من أخلاط الطعام والعصارات والدماء، من أعظم الأدلة الدالة على كمال قدرة الخالق العظيم، القائل: ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾[1].

﴿ولكم فيها منافع كثيرة﴾ أي: ولكم في الأنعام منافع كثيرة من وجوه متعددة، فصلها تعالى في موضع آخر بقوله: ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾[2]، وقوله أيضاً: ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم﴾[3]، وقوله أيضاً: ﴿أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون * وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون * ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون﴾[4].

﴿ومنها تأكلون﴾ [٢١] أي: وكما تنتفعون بها وهي حية، تنتفعون بها بعد ذبحها فتأكلون من لحومها.

---

(١) النحل: الآية ٦٦.
(٢) النحل: الآية ٨٠.
(٣) النحل: الآيات ٥ ـ ٧.
(٤) يس: الآيات ٧١ ـ ٧٣.

﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ [٢٢] أي: وعلى الإبل في البر، وعلى السفن في البحر تحملون في أسفاركم.

فما أعظم فضله تعالى على الإنسان!!

الإمداد بأسباب الهداية

نوح عليه السلام

وكما أمد الله الإنسان بأسباب معيشته، أمده أيضاً بأسباب هدايته وسعادته، فبيّن له بواسطة الأنبياء والمرسلين طريق الفلاح والبقاء في الخير والنعيم، وهو ما شرعت الآيات ببيانه، من خلال حديثها عن بعض المرسلين.

﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره﴾ أي: اعبدوا الله وحده، فلا معبود لكم يستحق العبادة غيره جل وعلا، ومر معنا في سورتي الأعراف وهود أن جميع الأنبياء والمرسلين قالوا هذه الكلمة، فهي أساس جميع الرسالات الإلّهية، إذ هي سبيل الفلاح والفوز بالنجاح والبقاء.

﴿أفلا تتقون﴾ [٢٣] أي: أفلا تخافون عقابه إذا عبدتم غيره، وأعرضتم عن دينه وشرعه.

﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ أي: فقال وجهاء، قومه ذوو الغنىٰ والترف، الذين سارعوا إلى الكفر به، ومعارضة دعوته، قالوا لعامة الناس من قومه:

﴿ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم﴾ أي: يريد أن يكون له فضل عليكم، حتىٰ يسودكم وتصبحوا له أتباعاً، فالحسد

والخوف على مناصبهم، جعلهم يبادرون إلى معارضة دعوته عليه السلام.

﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾ أي: ليكونوا رسلاً.

﴿ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾ [٢٤] وهذا يدل على تحجر عقولهم، وتقليدهم الأعمى لآبائهم.

ثم انتقلوا من اتهامهم له بحب الرئاسة، إلى اتهامهم له بالجنون:

﴿إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين﴾ [٢٥] أي: فانتظروا واحتملوه حتى يفيق من جنونه، أو حتى يموت.

واقتصرت الآيات على بيان معارضة قوم نوح لدعوته عليه السلام، واتهامهم له بحب الرئاسة والجنون، ولم تذكر رد نوح عليهم ومحاورته لهم، كما مر في سورة هود، لأن مهمة الآيات هنا بيان فضل الله تعالى على الناس، بتيسير أسباب الهداية والسعادة، كما يسر لهم أسباب المعيشة والانتفاع، بما خلق لهم وسخر في الكون، ومع ذلك أعرضوا عن عبادته تعالى وطاعته وكذبوا رسله، واتهموهم بأقبح التهم.

وبعد طول معاناة وصبر على مدى ألف سنة إلا خمسين عاماً، دعا نوح عليهم، وتوجه إلى الله تعالى يستنصره عليهم:

﴿قال رب انصرني بما كذبون﴾ [٢٦] أي: بسبب تكذيبهم وإصرارهم على كفرهم وفجورهم.

﴿فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾ أي: اصنع السفينة محفوظاً برعايتنا وحمايتنا، على حسب ما نوحي إليك ونعلمك، فقد كان عليه السلام يجهل كيفية صنعها، فأوحى إليه سبحانه ذلك، وعلمه وأرشده، كما في قوله: ﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في

الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾[1].

﴿فإذا جاء أمرنا وفار التنور﴾ أي: جاء أمرنا بإنزال العذاب بهم، ونبع الماء بقوة وغزارة من التنور، وهو تنور الخبز، فقد جعل الله تعالى نبع الماء منه علامة لنوح على وقت نزول العذاب بقومه، مما يدل على كمال قدرته تعالى بإخراجه الماء من موضع وجود النار.

﴿فاسلك فيها من كل زوجين اثنين﴾ أي: ادخل في السفينة واحمل فيها زوجين ذكراً وأنثىٰ، من كل أنواع المخلوقات الأرضية البرية، كما في قوله تعالى: ﴿حتىٰ إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل﴾[2].

ولا بد أنه تعالى سخّر هذه الأزواج لنوح عليه السلام، فجاءته منقادة طائعة، إذ هو سبحانه الآمر والمعين على تنفيذ الأمر، والمعونة تأتي على قدر المئونة، فلا حاجة بنا إلى الخوض في كيفية الشحن، كما فعل بعض المفسرين.

﴿وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم﴾ أي: واحمل فيها أهلك أيضاً، من النساء والأولاد، إلا من وجب عليه العذاب منهم بسبب كفره، وهما امرأته وولده الكافران، قال تعالى: ﴿ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين * قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾[3]. وقال أيضاً: ﴿ضرب الله مثلاً للذين

---

(١) هود: الآية ٣٧.

(٢) هود: الآية ٤٠.

(٣) هود: الآيتان ٤٢ ـ ٤٣.

كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾[1].

﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ [٢٧] أي: لا تسألني نجاة الذين كفروا، إنهم مغرقون لا محالة، بسبب إصرارهم على الكفر والظلم.

وشحن عليه السلام السفينة كما أمره تعالى، فكانت سبب نجاة نوح والمؤمنين معه، ولهذا أمره تعالى أن يتوجه بالحمد والشكر له وحده:

﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين﴾ [٢٨] أي: إذا تمكنت أنت ومن معك من المؤمنين على الركوب في السفينة، فقل الحمد لله الذي يسر لنا سبيل النجاة من القوم الظالمين. وكما علمه تعالى أن يحمده ويثني عليه، علمه أيضاً أن يسأله أن ييسر له موضعاً صالحاً ينزل فيه بعد انتهاء الطوفان، يتمكن فيه مع من كان معه في السفينة، من إنعاش الوجود البشري مرة ثانية في الأرض، فالإنسان مفتقر دائماً إلىٰ الله تعالى في معيشته وهدايته.

﴿وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾ [٢٩] لأنك تحفظنا وترعانا وتبارك لنا.

﴿إن في ذلك لآيات﴾ أي: إن فيما تقدم لعبراً وعظات ودروساً تدل على رحمته تعالى وفضله وإحسانه.

﴿وإن كنا لمبتلين﴾ [٣٠] أي: مختبرين بهذه الآيات، لننظر من

---

(١) التحريم الآية ١٠.

يعتبر ويتعظ، أو يعرض ويعاند، كما قال تعالى: ﴿ولقد تركناها آية فهل من مدكر﴾[1]. والابتلاء ألوان، ابتلاء للصبر، وابتلاء للشكر، وابتلاء للتوجيه، وابتلاء للتأديب، وابتلاء للتمحيص... وفي قصة نوح ألوان من الابتلاء له ولقومه ولذريته من بعده[2].

التوحيد أولاً

وبارك الله تعالى في نوح عليه السلام وأبنائه الذين كانوا معه، فانتعش بهم الوجود البشري في الأرض مرة ثانية، وقدر تعالى أن يكون نوح الوالد الثاني للبشرية بعد آدم، كما قال سبحانه: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾[3].

وبدأت البشرية الجديدة حياتها على طريق الحق والفلاح، كما كانت في بدايتها الأولى، في عهد آدم عليه السلام، فالتوحيد هو الدين الأول الذي كانت عليه البشرية في مبدأ وجودها، والكفر أمر طارىء عليها.

ومن رحمته تعالى أن رسالات الأنبياء، بقيت تتوالى على الناس، مع توالي أجيالهم وقرونهم، تبين لهم أسباب الهداية، وتوضح لهم معالم طريق الفلاح والنجاح، حتىٰ تمت وختمت برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين، عليه أفضل الصلاة والتسليم.

﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ [٣١] أي: قوماً آخرين، فانحرفوا عن طريق التوحيد والفلاح، إلىٰ طريق الشرك والكفر، ولم

---

(١) القمر: الآية ١٥.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٦٦.
(٣) الصافات: الآية ٧٧.

تكشف الآيات هوية هؤلاء القوم، إذ المهم أن تظهر الآيات فضله تعالى على الناس، وأنه ما تركهم من غير هاد يدعوهم إلى طريق الهداية ويرشدهم إليه.

﴿فأرسلنا فيهم رسولاً منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون﴾ [٣٢] إنها نفس الكلمة التي قالها نوح عليه السلام لقومه.

﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا﴾ أي: ونعمناهم في الحياة الدنيا بسعة العيش، فعاشوا حياة الترف والبطر.

ودل وصف الآية لهم بصفة الترف، على أنه من أسباب الضلال والكفر، وغالباً ما يكون رؤساء الضلال والكفر من الأغنياء المترفين.

﴿ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون﴾ [٣٣] أي: ما هذا الرسول إلا بشر مثلكم في صفات البشرية، وتقريراً لتمام المماثلة وصفوه بالأكل والشرب.

﴿ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون﴾ [٣٤] هكذا أعماهم الترف والبطر عن رؤية الحقيقة الواضحة، حتىٰ جعلوا طاعة الرسول واتباعه في عبادة الله تعالى وحده خسارة ونقصاً.

﴿أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون﴾ [٣٥] أي: تخرجون من قبوركم أحياء للحساب والجزاء، وهو استفهام إنكاري، يدل على إنكارهم ليوم القيامة واستبعادهم لوقوعه.

﴿هيهات هيهات لما توعدون﴾ [٣٦] أي: بعيد بعيد ما توعدون، وأرادوا بهذا الاستبعاد نفيه مطلقاً، وأنه في نظرهم لا يكون أبداً، فالإنسان في نظرهم ينتهي بالموت، وأنه خلق ليعيش في هذه الدنيا

فقط، يأكل ويشرب ويلهو ويلعب، ويبغي ويظلم، ثم ينتهي بالموت، ولهذا أضافوا قائلين:

﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين﴾ [٣٧] أي: لا حياة لنا إلا هذه الحياة في الدنيا، يموت الآباء ويحيىٰ الأبناء، وما نحن بمبعوثين بعد الموت.

وهو تكذيب ضمني للرسول المرسل إليهم، أكدوه بقولهم:

﴿إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين﴾ [٣٨] أي: بمصدقين، فما كان من الرسول عليه السلام إلا أن لجأ إلى الله تعالى يستنصر به على هؤلاء المعاندين المكذبين:

﴿قال رب انصرني بما كذبون [٣٩] قال عما قليل ليصبحن نادمين﴾ [٤٠] أي: بعد قليل ليصبحن نادمين على كفرهم وتكذيبهم.

﴿فأخذتهم الصيحة بالحق﴾ أي: بالعدل، فما عذبهم الله إلا بعدله.

﴿فجعلناهم غثاء﴾ أي: هلكى هامدين كغثاء السيل، وهو ما يحمله السيل من الحشيش والقصب اليابس المتفتت.

﴿فبعداً للقوم الظالمين﴾ [٤١] أي : بعداً لهم عن رحمته تعالى.

مع الأنبياء والمرسلين

وتكاثر البشر، وانتشروا في الأرض أمماً وشعوباً، ومن سنته تعالىٰ في الناس أنه جعل للأمم والأجيال أعماراً وأزماناً لا تتجاوزها، فالحياة في الدنيا ممر إلى الآخرة، ولا خلود فيها لأحد، وكما قدر

سبحانه للأفراد آجالاً، قدر أيضاً للأمم والشعوب آجالاً، وهو ما دلت عليه الآيات الكريمة:

﴿ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين [٤٢] ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾ [٤٣] أي: لا يتقدمون عن الأجل المقدر لهم ولا يتأخرون عنه.

وكلما تتابعت الأمم وتوالت الأجيال، تتابعت رسالات الله تعالى إليها، بواسطة المرسلين:

﴿ثم أرسلنا رسلنا تترىٰ﴾ أي: يتبع بعضهم بعضاً، كما في قوله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾[١].

وما من رسول إلا وكذبه قومه وعارضوا دعوته، وكان ذلك سبب هلاكهم: ﴿كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث﴾ أي: أتبعنا بعضهم بعضاً في الهلاك، فلم يبق منهم إلا أخبارهم، يتحدث بها الناس في مجالسهم.

﴿فبعداً لقوم لا يؤمنون﴾ [٤٤].

وتوقفت الآيات في أثناء هذا العرض التاريخي السريع المجمل، عند الرسولين الأخوين الكريمين موسى وهارون عليهما السلام؛ لأنهما من المعالم البارزة في تاريخ الرسالات الإلهية:

﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين﴾ [٤٥]

---

(١) النحل: الآية ٣٦.

أي: أرسلناهما مؤيدين بالمعجزات والحجة الواضحة.

﴿إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين﴾ [٤٦] أي: امتنعوا عن الإيمان تكبراً وترفعاً.

﴿فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾ [٤٧] أي: خاضعون متذللون، أنكروا بهذا القول بشرية الرسولين، وأنكروا أيضاً اختيارهم من بني إسرائيل، الذين كانوا يعانون من ظلم فرعون وقومه، واستعلائهم عليهم.

﴿فكذبوهما فكانوا من المهلكين﴾ [٤٨] أهلكهم الله في البحر، وأنجىٰ بني إسرائيل من ظلمهم وبغيهم، ثم أنزل التوراة على موسى.

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون﴾ [٤٩] أي: لعل بني إسرائيل يهتدون به إلى طريق الفلاح.

وختمت الآيات استعراضها السريع، بذكر عيسى عليه السلام وأمه، فبينت أن الله تعالى جعله وأمه من أعظم الآيات الدالة على كمال قدرته وطلاقة مشيئته جل وعلا، وأنه قادر على الخلق بدون أسباب، فهو خالق الأسباب والمسببات.

﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾ [٥٠] أي: آويناهما إلى مكان من الأرض، مرتفع ومنبسط، فيه قرار وماء ظاهر يجري، تراه العيون.

واختلفوا في هذا المكان، فقيل: موضع في غوطة دمشق، وقيل: بيت المقدس، وقيل: الرملة من أرض فلسطين، ولعله المكان الذي ولد فيه عيسى عليه السلام، والذي جعل الله فيه الثمر والماء، الذي قال تعالى فيه: ﴿فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل

هذا وكنت نسياً منسياً * فناداهـا من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً * وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً﴾[1].

الطعام الحلال والعمل الصالح

والتفتت الآيات بعد هذا الاستعراض السريع لأهم الرسالات الإلهية، تخاطب جميع المرسلين، كأنهم كانوا مجتمعين في زمن واحد ومكان واحد، عند توجيه هذا الخطاب لهم، مما جعل بعض المفسرين يرى أن المقصود بهذا الخطاب، هو خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وقد يكون المراد الإعلام بأن كل رسول في زمانه نودي بذلك ووصي به، ليعتقد السامع أن أمراً نودي له جميع الرسل ووصوا به، حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه[2].

﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾ أي: كلوا من الطيب الحلال، واعملوا العمل الصالح، وهو العمل المشروع، فلا يكون العمل صالحاً إلا إذا وافق شرع الله تعالى، والأمر للتكليف، لقوله تعالى بعد ذلك:

﴿إني بما تعملون عليم﴾ [٥١] أي: فاحذروا عقابي، والتزموا حدود شرعي في مأكلكم وجميع أعمالكم.

ولا شك أن لتطييب المأكل والمشرب تأثيراً كبيراً في صلاح العمل وقبوله، ففي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله

---

(١) مريم: الآيات ٢٣ ـ ٢٥.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ٤/ ٣٤٧.

أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾ وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنىٰ يستجاب لذلك»[1].

ودلت الآية الكريمة على أن تكليف الإنسان بالشرائع السماوية، لسعادته وإصلاح حياته، لا لإعناته والتضييق عليه، كما أفادت وحدة الرسالات الإلهية، وأنها جميعاً منزلة لرعاية مصالح الناس وهدايتهم إلى طريق الفلاح.

الاختلاف والكفر

وطريق الأنبياء والمرسلين واحد، وهو الطريق المؤدي إلى الفلاح والخلود في النعيم، والسائرون عليه أمة واحدة، مهما اختلفت أجناسهم وأعصارهم وأمصارهم.

﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾ [٥٢] فالدين الواحد أعظم مقومات الأمة الواحدة؛ لأنه يوحد قلوبهم وسلوكهم واتجاههم وطريقهم، يكفي أنهم جميعاً يتجهون بالعبادة والطاعة إلى رب واحد، ويلتزمون منهجاً واحداً: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾[2].

وهو ما كان عليه الناس في فجر وجودهم الأول، وفي فجر

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزكاة (١٠١٥).
(٢) الأنبياء: الآية ٩٢.

وجودهم الثاني بعد الطوفان، عندما كانوا سائرين على دين التوحيد، الذي بشر به آدم ونوح وجميع الأنبياء والمرسلين بعدهما، وما تفرق الناس إلا عندما طرأ عليهم الكفر والشرك، فانحرفوا عن الطريق، وتشعبت بهم الملل الباطلة والنحل الفاسدة، قال تعالى : ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون﴾[١]، وقال أيضاً: ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾[٢]. وهذا ما صرحت به الآيات بعد ذلك بقوله تعالى:

﴿فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً﴾ أي: تقطعوا أمر دينهم، وجعلوه نحلاً مختلفة، وقطعاً متباينة، فاختلفوا وتفرقت به الطرق، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾[٣].

والعجيب أنه تعالى ذكر مثل هذا أيضاً بعد هذه الآية في سورة الأنبياء فقال: ﴿وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون﴾[٤].

﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ [٥٣] أي: مسرورون معجبون بما عندهم من الآراء والأهواء.

غفلة وغرور

وإعجابهم وفرحهم بما عندهم من ملل باطلة، نابع من سببين:

---

(١) يونس: الآية ١٩.
(٢) البقرة: الآية ٢١٣.
(٣) الأنعام: الآية ١٥٣.
(٤) الأنبياء: الآية ٩٣.

الأول: غفلتهم عن الحق وشواهده الساطعة، وبراهينه الواضحة، وصورت الآيات هذه الغفلة، وهي تخاطب النبي ﷺ، مواسية له ومثبتة، بقوله تعالى:

﴿فذرهم في غفلتهم حتى حين﴾ [٥٤] أي: دعهم في غفلتهم حتى يحين موعد نزول العذاب بهم.

شبه غفلتهم وجهالتهم بالماء الذي يغمر أصحابه، فهم منغمسون في الغفلة، تحيط بهم من جميع جوانبهم.

والأمر لا يفيد الإعراض عن تذكيرهم وتبليغهم، فالنبي ﷺ مأمور بذلك، وإنما جاء على سبيل الوعيد والتهديد لهم، ولهذا الأسلوب نظائر في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾(١)، وقوله سبحانه: ﴿فتول عنهم حتى حين * وأبصرهم فسوف يبصرون﴾(٢)، والسبب الثاني: اغترارهم بما في أيديهم من زينة الدنيا ومتاعها وزخرفها، إذ حسبوه إكراماً لهم، بينما هو في الحقيقة ابتلاء واختبار، سقطوا فيه، فأصبح مكراً بهم واستدراجاً لهم إلى سخط الله تعالى وعذابه.

﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين [٥٥] نسارع لهم في الخيرات﴾ أي: نعجل لهم في الخيرات؛ إكراماً لهم، لمرضاتنا عنهم.

﴿بل لا يشعرون﴾ [٥٦] أي: لا يشعرون أن ذلك استدراج لهم ومكر بهم، قال تعالى: ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم

---

(١) المعارج: الآية ٤٢.
(٢) الصافات: الآيتان ١٧٤ ـ ١٧٥.

من حيث لا يعلمون * وأملي لهم إن كيدي متين﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمنِ﴾[2].

فالدنيا هينة على الله تعالى، يعطيها من يحب ومن لا يحب، كما قال سبحانه: ﴿كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً﴾[3].

والإكرام الحقيقي هو بالتوفيق إلى الطاعات، والاستقامة على طريق الفلاح، ومن وفقهم الله تعالى للاستقامة على طريق الفلاح، فقد أكرمهم سبحانه أعظم كرامة.

المسارعون إلى الخيرات

فهم المسارعون الحقيقيون في الخيرات، الذين تدفعهم خشيتهم من ربهم إلى الإسراع في طاعته ومرضاته:

﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ [٥٧] أي: حَذرون خائفون؛ إجلالاً لربهم وتعظيماً له، بسبب إيمانهم بلقائه يوم القيامة، ووقوفهم بين يديه سبحانه للحساب والجزاء.

﴿والذين هم بآيات ربهم يؤمنون﴾ [٥٨] أي: يصدقون بكل ما أخبر تعالى عنه بآياته المنزلة على رسوله، ومن أعظم القضايا التي اشتملت عليها هذه الآيات، يوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء.

﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾ [٥٩] فلا يعبدون غيره، ولا

(١) القلم: الآيتان ٤٤ ـ ٤٥.
(٢) الفجر: الآية ١٥.
(٣) الإسراء: الآية ٢٠.

يطيعون سواه، وينأون بأنفسهم عن جميع أنواع الشرك الخفية والجلية.

﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ [٦٠] أي: يتقربون إلى الله تعالى بأنواع الطاعات والعبادات، وهم خائفون ألا يتقبلها سبحانه منهم، لأنهم يوقنون أن مصيرهم إليه تعالى، وهو عليم بأحوالهم وما تكنه ضمائرهم وقلوبهم، وهذا يدل على أنهم غير معجبين بأعمالهم ولا مغترين بها، يتهمون أنفسهم دائماً بالتقصير في طاعة ربهم وشكره على نعمه وإحسانه، وفي الحديث الشريف عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قلت يا رسول الله، الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة، أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويتصدقون، ويخافون ألا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات»(١).

فيجب على المؤمن ألا يغتر بعمله ولا يعجب به، حتىٰ يبقىٰ على حذر ووجل من عذاب الله تعالى، فلا يكون كالكفار المغترين بالدنيا وزخارفها، والمطمئنين إليها، أو يكون من المغترين بأعمالهم المعجبين بها، الذين يشعرون بالأمن من عذاب الله تعالى، كما قال سبحانه فيهم: ﴿أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾(٢).

فالتصديق بالمسؤولية أمامه تعالى يوم القيامة، أمر هام في حياة المؤمن، راسخ في وجدانه، مؤثر في سلوكه، يجعله دائماً راغباً في طاعته تعالى أشد الرغبة، غير زاهد فيها، يستكثر منها ويسارع إليها.

﴿أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾ [٦١] فهم المتسابقون في طريق المكرمات، الواصلون إليها قبل غيرهم، الذين

---

(١) أخرجه الترمذي، كما في تيسير الوصول ١/ ١٥٢.
(٢) الأعراف: ٩٩.

يكرمهم الله تعالى بتعجيل ثوابها لهم في الدنيا، بتوفيقه ومعونته وتيسيره، وفي الآخرة بالخلود في فراديس جنته، فهو سبحانه أسرع بكل خير إليهم منهم إليه، كما جاء في الحديث الشريف، عن أنس بن مالك عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «قال الله عزّ وجلّ: إذا تقرب عبدي مني شبراً تقربت منه ذراعاً، وإذا تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة»[1].

فالحياة في الإسلام ميدان سباق، يتسابق فيه المؤمنون للوصول إلى الفوز برضوانه تعالى، وهو سباق مشروع محمود، أمر به تعالى فقال: ﴿فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾[3].

ومن رحمته تعالى أنه جعل المسارعة إلى الخيرات سهلة ميسورة، لا حرج فيها ولا مشقة، لأن أساس التكليف فيها قائم على الوسع.

﴿ولا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ أي: إلا ما تتسع له طاقتها، فكل ما كلف به المؤمنون في الإسلام لا يخرج عن حدود طاقتهم، بل هو دونها؛ إذ الوسع هو ما تتسع له قدرة الإنسان وتتسع لأكثر منه، فلا عذر لأحد في التباطؤ والتثاقل عن عبادة الله تعالى وفعل الخيرات، فهو مكلف بها ومسؤول عنها، وهي مسجلة عليه في صحيفة أعماله.

﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق﴾ أي: يبين الحق ويشهد على صاحبه بالصدق.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الذكر (٢٦٧٥).
(٢) البقرة: الآية ١٤٨.
(٣) آل عمران: الآية ١٣٣.

﴿وهم لا يظلمون﴾ [٦٢] أي: وهم عند المسؤولية والحساب لا يظلمون.

الصحوة المتأخرة

ورجعت الآيات إلى الكفار تبين أحوالهم، بعد أن بينت أحوال المؤمنين:

﴿بل قلوبهم في غمرة من هذا﴾ أي: بل قلوب الكفار في غفلة عن الشعور بالمسؤولية، وعن الإيمان بأن أعمالهم تكتب عليهم، وأنهم محاسبون عليها يوم القيامة.

ففي الآية إضراب عما قبلها، وهي المرة الثانية في السورة، التي تصف فيها الآيات الكافرين بالغفلة الغامرة، المسيطرة على قلوبهم، والمستوطنة أعماق نفوسهم، وهذا يجعلهم يصرون على أعمالهم الفاجرة الخبيثة.

﴿ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون﴾ [٦٣] أي: ولهم أعمال سيئة غير الغفلة الغامرة لقلوبهم، وهم مستمرون عليها ومنهمكون فيها، مما يدل على أن الفساد قد استشرى وتمكن في قلوبهم وأعمالهم، بسبب كفرهم بالله تعالى، وإنكارهم لمسؤوليتهم عن أعمالهم وحياتهم يوم القيامة.

فما أعظم الفرق بين هؤلاء المغمورين بغفلتهم، المنهمكين بشهواتهم، وبين المؤمنين الحذرين الخائفين من ربهم، المسارعين إلى الخيرات، والمتنافسين في الطاعات والمبرات! فالإيمان حين يشرق في القلب، ينير لصاحبه الدرب، ويجعله سائراً عليه في يقظة وحذر وانتباه.

ولا رجاء في يقظة الكفار، ولا أمل في انتباههم وإدراكهم خطورة الطريق التي يسيرون عليها، حتى يصلوا إلى نهاية الحياة، حينئذ يستيقظون من غفلتهم، وينتبهون من سكرتهم، فهم نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجئرون﴾ [٦٤] أي: يصرخون مستغيثين. فالجآر مثل الخوار، يقال جأر الثور يجأر إذا صاح، وجأر الرجل بالدعاء إلى الله تعالى، إذا تضرع بالدعاء[١].

وخصصت الآية المترفين بالذكر، لأنهم ـ كما مر معنا ـ رؤوس الكفر والضلال، والعذاب عندما ينزل بهم، ينزل أيضاً بأتباعهم ومقلديهم، كما في قوله تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾[٢].

وجاءت صحوتهم هذه متأخرة، فلا ينتفعون بها، ويقال لهم عندها توبيخاً وتقريعاً: ﴿لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون﴾ [٦٥] أي: لا تمنعون منا، ولا ينفعكم جآركم.

﴿قد كانت آياتي تتلىٰ عليكم﴾ أي: تقرأ عليكم، تنبهكم وتحذركم وتبين لكم خطر الطرق التي تسيرون عليها، وتدعوكم إلى طريق السلامة والأمن.

﴿فكنتم على أعقابكم تنكصون﴾ [٦٦] أي: تعرضون مدبرين عن سماعها والاستجابة إليها.

والنكوص: الرجوع إلى الوراء، وهو أقبح مشية؛ لأن الذي يرجع ماشياً القهقرى لا يرى ما وراءه.

---

(١) روح المعاني ١٨/٤٨.
(٢) الإسراء: الآية ١٦.

﴿مستكبرين به﴾ أي: مستكبرين بالبيت الحرام، وشهرة استكبار مشركي قريش بالبيت الحرام، وافتخارهم بأنهم سدنته وجيرانه، أغنت عن سبق ذكره.

﴿سامراً تهجرون﴾ [٦٧] أي: تسمرون بذكر النبي ﷺ بالقول الفاحش القبيح المهجور.

فالهجر: الكلام المهجور لقبحه، وهجر فلان إذا أتىٰ بهجر من الكلام عن قصد، وأهجر المريض إذا أتىٰ بذلك عن غير قصد(١).

وكان مشركو قريش يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون، وكان عامة سمرهم يدور حول القرآن الكريم والنبي ﷺ، ووصفهما بأوصاف لا تليق بهما، ولهذا دعتهم الآيات إلى تدبر آيات القرآن الكريم، كما ذكرتهم بحقيقة الرسول ﷺ.

﴿أفلم يدبروا القول﴾ أي: أفلم يتأملوا معاني القرآن الكريم؟ وهي دعوة لهم بأسلوب الاستفهام، ممزوجة بالإنكار والتوبيخ، كقوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾(٢).

﴿أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين﴾ أي: بل أجاءهم من الكتاب ما لم يأت آباءهم الأولين، فاستبعدوه وأعرضوا عنه.

فكلمة ﴿أم﴾ للإضراب والانتقال من توبيخ إلى توبيخ آخر، فإنزال الكتب وبعثة الرسل، من سنن الله تعالى القديمة المعروفة المشهورة، التي لا تنكر، والنبي عليه الصلاة والسلام ليس بدعا من الرسل، كما أنهم كانوا يعرفونه بشمائله الكريمة الرفيعة، ولهذا تابعت

---

(١) روح المعاني ١٨/ ٥٠.

(٢) محمد: الآية ٢٤.

الآيات توبيخهم، بأسلوب الإضراب والانتقال من توبيخ إلى توبيخ، فمواقفهم القبيحة كثيرة، تستدعي زيادة في توبيخهم.

﴿أم لم يعرفوا رسولهم﴾ أي: بالصدق والأمانة والأخلاق الكريمة.

﴿فهم له منكرون﴾ [٦٩] أي: فكيف ينكرونه ويكذبون رسالته، ويعرضون عن دعوته، وقد عرفوه بما عرف به واشتهر من الأخلاق الكريمة، حتىٰ كانوا يلقبونه بالأمين، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

فإنكارهم له ليس بسبب جهلهم به، وإنما بسبب بغيهم وحسدهم له عليه الصلاة والسلام.

الحق متبوع لا تابع

واستمرت الآيات على هذا الأسلوب، توبخ المشركين، وتدفع عن النبي ﷺ الأوصاف القبيحة التي وصفوه بها، وكانت أحاديثهم ترددها وهم يسمرون بجوار بيت الله الحرام.

﴿أم يقولون به جنة﴾ أي: جنون، وهم يعلمون أنه عليه الصلاة والسلام أرجحهم عقلاً وأثقبهم نظراً.

﴿بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون﴾ [٧٠] أي: جاءهم بالصدق والقول الذي لا تخفىٰ صحته وحسنه على عاقل، ومع ذلك فإن أكثرهم يكرهون الحق ولا ينقادون له، لأنه يصادم أهواءهم وشهواتهم.

﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾ أي: لو جاء القرآن الكريم وما فيه من تشريع، موافقاً لأهوائهم وشهواتهم، لاختل نظام العالم، بسبب قصور عقولهم وتناقض آرائهم،

وتضارب أهوائهم ومصالحهم. فالحق متبوع لا تابع، ومصدره دين الله تعالى وشرعه، وعلى الناس أن يستسلموا لأحكامه، لأن فيه صلاح البلاد والعباد، والإعراض عنه يؤدي إلى الخلل والفوضى والفساد، وما أكثر ما أورثت القوانين الوضعية الناس اضطراباً وفساداً وتنازعاً واختلافاً، وكلما ابتعد الناس عن دين الله تعالى وشرعه، ازدادوا عناء وشقاء وتعاسة.

فمن الضروري لصلاح العالم واستمرار وجوده، أن يكون تشريع الأحكام منوطاً بخالقه ومبدع سننه حتى يتم التوافق والانسجام بين السنن الكونية، وبين القوانين التشريعية، والله تعالى وحده هو العليم الحكيم بما يصلح عباده ومخلوقاته ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾(١).

وهذا سر امتياز الشريعة الإلهية على الشرائع الوضعية، فهي شريعة كاملة منسجمة تماماً مع السنن الكونية، ومع أصل الفطرة البشرية التي فطر سبحانه الناس عليها.

وفضلاً عن ذلك، فقد جاء القرآن الكريم بميزة خاصة، خص بها العرب دون غيرهم من الأمم، إذ أنزله سبحانه بلغتهم، على رجل من أوسطهم نسباً، وأكرمهم محتداً، فلماذا يعرض المشركون عنه، وفيه عزهم وشرفهم؟!

﴿بل أتيناهم بذكرهم﴾ أي: أتيناهم بما فيه شرفهم وعزهم، كما في قوله تعالى: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾(٢).

---

(١) الملك: الآية ١٤..

(٢) الزخرف: الآية ٤٤.

﴿فهم عن ذكرهم معرضون﴾ [٧١] أي: فهم لا يكرهون الحق ويعرضون عنه فقط، بل يعرضون عما فيه عزهم وشرفهم، فما أغباهم وأجهلهم!

وقد ظلت أمة العرب لا ذكر لها في تاريخ العالم، حتى جاءها الإسلام، وقد ظل ذكرها يدوي في آذان القرون طالما ظلت به مستمسكة، وقد تضاءل ذكرها عندما تخلت عنه، فلم تعد في العير ولا في النفير، ولن يكون لها ذكر إلا أن تفيء إلى عنوانها الكبير[١].

وبهذا الأسلوب الرائع بلغت الآيات الغاية العظمىٰ في توبيخ وتقريع المعرضين عن دين الله وشرعه، وفي الوقت نفسه أظهرت مزايا الشريعة الإسلامية، وما فيها من خير عام للعباد والبلاد، ومن خير خاص بقوم النبي ﷺ، الذين بادر أكثرهم إلى معارضتها، وحاولوا طمس معالمها.

وبهذا بلغت الآيات أيضاً الغاية العظمى في توبيخهم وتقريعهم، وأظهرت في الوقت نفسه مزايا الرسالة الإسلامية، وما فيها من خير عام للعباد والبلاد، وخير خاص بقوم النبي ﷺ، الذين أنزل الله القرآن الكريم بلغتهم.

إعراض وعناد

ومن مزايا الرسالة الإسلامية أيضاً، أنها رسالة منزهة عن أي غرض دنيوي وكسب مادي، فما جاءت إلا لإصلاح العباد، ودفع الخلل والفساد عن البلاد، فلا عذر لمشركي قريش في الإعراض عنها، ولهذا تابعت الآيات الكريمة توبيخهم، وهي تنزه دعوة النبي عليه

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٧٥.

الصلاة والسلام عن أي كسب مادي ونفع دنيوي.

﴿أم تسألهم خرجاً﴾ أي: أم يزعمون أنك تسألهم على أداء الرسالة أجراً ومالاً، ولهذا يعرضون عنك.

﴿فخراج ربك خير وهو خير الرازقين﴾ [٧٢] أي: فرزق ربك وثوابه خير، لأنه أفضل المعطين في الدنيا والآخرة، فالرزق في الحقيقة رزقه، والعطاء عطاؤه، والغنىٰ والفقر بمشيئته تعالى وتدبيره، وهو القائل: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾(١).

﴿وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم﴾ [٧٣] أي: وإنك حقيق بالاتباع، لأنك تدعوهم إلى طريق الفلاح والفوز والنجاح، وهو الصراط المستقيم الذي يوصلهم إلى الخلود في الجنان، كما تقدم في صدر السورة: ﴿قد أفلح المؤمنون... أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾.

ومع أنه عليه الصلاة والسلام حقيق بالاتباع، فقد أعرضوا عنه.

﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾ [٧٤] أي: عادلون ومنحرفون عن طريق الفلاح، لأنهم لا يؤمنون بيوم القيامة، ويرون أن حياتهم تنتهي بالموت.

وبينت الآيات أن سبب إعراضهم، نابع من سوء اختيارهم، وشدة تمسكهم بباطلهم، وإعجابهم بالطرق الضالة المنحرفة التي يسيرون عليها.

---

(١) الزخرف: الآية ٣٢.

﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون﴾ [٧٥] أي: لو أزحنا عنهم الضر الذي يغلف قلوبهم، ويحجبهم عن رؤية الحق، لتمادوا في ضلالهم وعنادهم، واستمروا على كفرهم وطغيانهم، يترددون متحيرين، دون تمييز بين الحق والباطل، كما في قوله تعالى: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾(١).

فالقوم لا خير فيهم أبداً، ولا يوجد فيهم أدنى استعداد لقبول الحق والإذعان له، ومما يدل على ذلك، أن البلايا والمصائب التي نزلت بهم، لم تنبههم من غفلتهم، ولم تزل قسوة قلوبهم، وهو ما أخبرت عنه الآيات بقوله تعالى: ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾ [٧٦] أي: أخذناهم بالمصائب والمحن، كنقص الأموال والأنفس، فما وجدت منهم استكانة وخضوع لله تعالى، وظلوا غافلين عنه لا يعبدونه ولا يدعونه خاشعين متضرعين، كما في قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون * فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾(٢).

ويبقىٰ القوم في غمرة غفلتهم، منهمكين بشهواتهم، لا ينتبهون إلا عند نزول الموت وسكراته بهم.

﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون﴾ [٧٧] أي: حتى إذا نزل الموت بآلامه وسكراته فيهم، أو عند رؤيتهم للعذاب يوم القيامة، إذا هم آيسون من النجاة، كما في قوله

---

(١) الأنفال: الآية ٢٣.

(٢) الأنعام: الآيات ٤٢ ـ ٤٣.

تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون﴾[1]، وقوله أيضاً في سياق ما استشهدنا به من آيات سورة الأنعام: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾[2].

فالإبلاس، وهو اليأس والقنوط من النجاة، يسيطر عليهم في الدنيا عند الموت، وفي الآخرة عندما يساقون إلى جهنم.

تقرير وإلزام

وبسبب غفلتهم وعنادهم، لم ينتفعوا بوسائل التمكين التي زودهم الله تعالى بها، والتي تمكن الإنسان من العلم والمعرفة والتمييز، وهي من أعظم النعم التي تفضل الله بها على الإنسان.

﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾ [٧٨] أي: ما شكرتم الله تعالى عليها، لأنكم لم تستعملوها في الاستدلال على عظمته ووجوده ووحدانيته، كما قال سبحانه: ﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾[3] وقال أيضاً: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾[4].

---

(١) الروم: الآية ١٢.
(٢) الأنعام: الآية ٤٤.
(٣) الأحقاف: الآية ٢٦.
(٤) الأعراف: الآية ١٧٩.

ولو أنهم استعملوا وسائل التمكين هذه أدنى استعمال، لعرفوا أنهم في قدرة قبضته تعالى وحده، وأن مصيرهم إلى حكمه يوم القيامة.

﴿وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون﴾ [٧٩] أي: هو وحده الذي خلقكم وبثكم في جنبات الأرض، فلن يترككم، وإليه وحده تجمعون يوم القيامة للحساب والجزاء.

فحياتكم وموتكم بيده جل وعلا، والسنن الكونية المحيطة بكم بتقديره وتدبيره.

﴿وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون﴾[٨٠] ومع كل هذه الدلائل الظاهرة الواضحة المحيطة بهم، لم يعقلوها ولم يفهموا مدلولها.

﴿بل قالوا مثل ما قال الأولون﴾ [٨١] أي: بل قال المشركون المعاندون ، مثل ما قال الأولون من الأمم السابقة الكافرة المعاندة.

﴿قالوا أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون﴾ [٨٢] وهو سؤال إنكار، يدل على أنهم أنكروا قدرة الله تعالى على بعثهم بعد موتهم وتفتت أجسامهم.

﴿لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل﴾ أي: من قبل مجيء محمد عليه الصلاة والسلام، ولم يأتنا ما وعدنا به من العذاب.

﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ [٨٣] أي: ما هذا إلا أكاذيب الأولين المسطورة في كتبهم.

ورد الله تعالى عليهم، بأن جعلهم يقرون بكمال سلطانه وتمام قدرته، وأنه وحده الخالق المالك المدبر.

﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون﴾ [٨٤] أي: إن كنتم من أهل العلم والمعرفة.

ولا يخفىٰ ما في السؤال من استهانة بهم، وتعريض بجهلهم، ولهذا أخبر سبحانه بجوابهم قبل أن يجيبوا، فإن بديهة العقل تلزمهم بالاعتراف بأنه تعالى هو الخالق والمالك، فهو تعالى يطوقهم بالحجج من طريق المسلمات العقلية الفطرية، التي لا يمكن إنكارها؛ لأنها ثابتة راسخة في أصل خلقتهم وجبلتهم.

﴿سيقولون لله﴾ أي: الأرض ومن فيها لله تعالى وحده خلقاً وتدبيراً.

﴿قل أفلا تذكرون﴾ [٨٥] أي: أفلا تتذكرون أن خالق الأرض ومن فيها قادر على إعادتها وإعادة من فيها بعد موتهم وتفتتهم؟

وتابعت الآيات إلزامهم بأسلوب السؤال التقريري، وانتقلت من الأدنىٰ إلى الأعلى.

﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم﴾ [٨٦] أي: من خالق ومالك ومدبر هذه المكونات الكبيرة، السموات السبع والعرش العظيم؟ وأعيد ذكر الرب تنويهاً لشأن العرش، ورفعاً لمحله عن أن يكون تبعاً للسماوات وجوداً وذكراً[١].

﴿سيقولون لله﴾ أي: له وحده خلقاً وملكاً وتدبيراً، وجاء الجواب ﴿لله﴾ باللام نظراً إلى معنى السؤال، فمن ربه؟ ولمن هو؟ في معنى واحد.

---

(١) تفسير أبي السعود ١٤٨/٦.

وفي قراءة ثانية هنا وما بعدها، جاء الجواب موافقاً للفظ: ﴿سيقولون الله﴾.

﴿قل أفلا تتقون﴾ [٨٧] أي: أفلا تتقون عذابه فلا تشركوا به أحداً، ولا تنكروا قدرته على إعادتكم إلى الحياة بعد الممات.

وتابعت الآيات أسلوب السؤال التقريري الملزم، وانتقلت هذه المرة من الخصوص إلى العموم.

﴿قل من بيده ملكوت كل شيء﴾ أي: مما ذكر ومما لم يذكر، فملكه تعالى أعظم من السماوات والأرض وما فيهما، وأعظم أيضاً من العرش العظيم، وهو وحده جل وعلا المالك لكل شيء، وملكه تام كامل، وسلطانه عزيز غالب قاهر، ولهذا جاء التعبير عنه بكلمة ﴿ملكوت﴾ إذ هي أبلغ في الدلالة على المعنى من كلمة ملك، ولا شك أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، ولهذا ذكرها تعالى في معرض بيان تمام سلطانه على جميع المخلوقات فقال: ﴿أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون﴾[١].

﴿وهو يجير ولا يجار عليه﴾ أي: وهو السيد العظيم في ملكه، الذي يجير ولا يجار عليه، فله سبحانه الخلق والأمر والملك والحكم، لا معقب لحكمه ولا راد لأمره. وكانت العرب إذا كان السيد فيهم أجار أحداً، لا يخفر في جواره، وليس لمن دونه أن يجير عليه، لئلا يفتات عليه[٢].

---

(١) الأعراف: الآية ١٨٥.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٥٧٣.

﴿سيقولون لله﴾ أي: سيعترفون ويقرون بأنه تعالى هو الرب العظيم، الذي له الأمر والحكم، كما أقروا بأنه الخالق المالك.

﴿قل فأنىٰ تسحرون﴾ [٨٩] أي: كيف تخدعون وتصرفون عن توحيده وطاعته؟! فيخيل لكم الحق باطلاً.

وتدل كلمة ﴿تسحرون﴾ على مدى الاضطراب والخلل والتخبط في تفكيرهم، كما تدل على شدة القلق والحيرة في نفوسهم.

إثبات التوحيد ونفي الشرك

وبعد أن أثبتت الآيات، بأسلوبها التقريري الملزم، التوحيد بالدلائل القطعية، نفت نفياً قاطعاً جازماً أن يكون لله تعالى ولد أو شريك، وبينت كذب أصحاب هذه الدعاوى الباطلة.

﴿بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون﴾ [٩٠] أي: الدين الحق القائم على التوحيد والتكليف والمسؤولية، وإنهم لكاذبون في إنكارهم لحقيقة التوحيد، ولمسؤوليتهم يوم القيامة، وقدرته تعالى على بعثهم وحسابهم.

﴿ما اتخذ الله من ولد﴾ لأنه منزه عن الاتصاف بصفات المخلوقات، فهو الواحد الأحد، المنزه عن الصاحبة والولد.

﴿وما كان معه من إله﴾ أي: وما كان معه من إله يشاركه في استحقاق العبادة والطاعة، فهو أيضاً منزه عن الشريك، وهو سبحانه وحده المعبود بحق.

﴿إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾ أي: لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق، واختل نظام الكون، وما

وجد التعاون والتناسق بين سننه.

والمشاهد أن للمكونات كلها، الأرضية والسماوية، نظماً متناسقة غاية التناسق والكمال، وهذا ما تؤيده الكشوفات العلمية الحديثة، مما يدل على وحدة الخالق المدبر جل وعلا، كما في قوله الكريم: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾[1] وقوله أيضاً: ﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذن لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً * سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً﴾[2].

﴿سبحان الله عما يصفون﴾ [٩١] أي: يتنزه الله ويتقدس عما يصفه المشركون بصفات لا تليق بجلاله وكماله ووحدانيته.

﴿عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون﴾ [٩٢] أي: له سبحانه كمال العلم، يعلم ما يغيب عن العباد وما يظهر لهم، فهو أعلى وأعظم من صفات الشرك التي يصفه بها المشركون.

تذكير وتأديب

فالإشراك بالله تعالى أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، وهو ذنب لا يغفر لمن مات عليه، كما في قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾[3].

وشؤم الشرك في الدنيا كبير، قد يتعدى بسبب ذلك إلى غير المشركين، ولهذا توجهت الآيات إلى النبي ﷺ، تأمره أن يلجأ إلى ربه

---

(١) الأنبياء: الآية ٢٢.
(٢) الإسراء: الآيات ٤٢ ـ ٤٣.
(٣) النساء: الآية ١١٥.

تعالى، مستعيذاً به أن يصيبه شيء من العذاب الذي ينزله تعالى بالمشركين.

﴿قل رب إما تريني ما يوعدون﴾ [٩٣] أي: إن قدرت لي أن أرى ما وعدت المشركين من العذاب.

﴿رب فلا تجعلني في القوم الظالمين﴾ [٩٤] أي: رب فلا تجعلني قريناً معهم في العذاب، ولا تعذبني بعذابهم، ولهذا كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر»(١)، وورد من دعائه أيضاً: «وإذا أردت بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون»(٢).

ولا يخفىٰ ما في الآيات من موعظة قوية مؤثرة في المؤمنين، فإذا كان هذا حال النبي ﷺ، وشدة خوفه من ربه، فكيف ينبغي أن يكون حال المؤمنين؟ أسأل الله تعالى أن يلطف بنا، ويجنبنا الفتن الظاهرة والخفية.

﴿وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون﴾ [٩٥] أي: ولو شئنا لأريناك العذاب الذي ننزله بهم، فإنا قادرون على ذلك، لكننا نؤخره عنهم، ونأمرك أن تصبر على أذاهم، وأن تقابله بالصفح والإحسان، لعل ذلك يكون سبباً لهدايتهم.

﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة﴾ أي: قابل السيئة بالحسنة،

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الذكر (٢٧٢٠).
(٢) أخرجه أحمد والترمذي وصححه.

وعامل المسيء بالإحسان، فهو تأديب كريم رفيع، أدب الله به نبيه عليه الصلاة والسلام، وأمره به في موضع آخر في قوله تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾[1].

وكان هذا من أخلاقه الكريمة الشريفة ﷺ، فعله عليه الصلاة والسلام حتى مع ألد أعدائه من مشركي قريش، فعندما فتح مكة وتمكن من الانتقام منهم، عفا عنهم وقال لهم كلمته المشهورة: «يا معشر قريش ما ترون أني فاعل فيكم؟» قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[2].

والجدير بالذكر أنه تعالى، وصف المؤمنين بهذا الخلق الكريم في معرض الثناء عليهم بقوله: ﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار﴾[3].

﴿نحن أعلم بما يصفون﴾ [٩٦] أي: نحن أعلم بالذي يصفونك به ويذكرونك به من السوء، وقد مر معنا حكاية بعض أوصافهم له في قوله تعالى: ﴿أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون﴾.

ولا شك أن هذا الخلق الكريم، وهو مقابلة الإساءة بالإحسان، إذا فشا بين الناس، يؤدي إلى المحبة والسلام، ويدفع كثيراً من أسباب الخصام والنزاع، ويفوت على الشياطين فرصاً كثيرة لإثارة الفتن والمنازعات بين الناس، ولهذا أضافت الآيات الكريمة، تبين السبيل المنجي من وساوسهم ومكرهم وكيدهم.

---

(١) فصلت: الآية ٣٤.

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٤١.

(٣) الرعد: الآية ٢٢.

﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين﴾ [٩٧] أي: من وساوسهم ونزغاتهم، كما في قوله تعالى: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾[١].

وأصل الهمز: النخس، ومنه مهماز الرائض الذي يهمز به الدابة، حثاً لها على المشي.

﴿وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ [٩٨] أي: أن يكونوا معي حاضرين، فإنهم عند حضورهم يتمكنون من الوسوسة والمكر، وفي الحديث الشريف عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه، حتى يحضره عند طعامه، فإذا سقطت من أحدكم اللقمة، فليمط ما كان بها من أذى، ثم ليأكلها، ولا يدعها للشيطان، فإذا فرغ فليلعق أصابعه، فإنه لا يدري في أي طعامه تكون البركة»[٢].

ولهذا يسن التعوذ من الشيطان في كثير من الأمور والحالات، وخاصة عند النوم، روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم من الفزع: «بسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» فكان عبدالله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده، أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها، كتبها له فعلقها في عنقه[٣].

---

(١) فصلت: الآية ٣٦.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الأشربة، (٢٠٣٣).

(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي والحاكم وصححه. انظر الترغيب والترهيب ٢/ ٤٥٦.

والجدير بالذكر أن الشيطان لا تسلط له على النبي ﷺ؛ لأن الله تعالى عصمه من الإنس والجن، وفي الحديث الشريف عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»(١).

وتوجيه الخطاب للنبي ﷺ بالاستعاذة من الشيطان، تعليم لأمته ومبالغة في التوقي من شر الشيطان ومكره.

سؤال الرجوع إلى الدنيا

وبعد أن بينت الآيات مواقف المشركين من دعوة النبي ﷺ، عادت مرة ثانية تصف أحوالهم عند الموت بنفس الأسلوب الأول، ففي المرة السابقة قال تعالى: ﴿حتىٰ إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون﴾.

وفي هذه المرة قال تعالى أيضاً:

﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون﴾ [٩٩] أي: ردوني إلى الحياة الدنيا.

وكلمة ﴿حتى﴾ هنا، كما هي هناك؛ لبيان غاية لمقدر محذوف دل عليه ما سبق، وتقديره في المرة الأولى: ولا يزال القوم في غمرتهم وغفلتهم وأعمالهم المترفة الفاسدة، حتى نأخذهم بالعذاب، فإذا هم يجأرون.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين (٢٨١٤).

وتقديره هنا: لا يزالون متمسكين بعنادهم وإعراضهم، ووصفهم للنبي ﷺ بما لا يليق به من الأوصاف المذمومة، حتى يأتيهم الموت، فحينئذ يقول كل واحد منهم: رب ارجعون.

والمراد من مجيء الموت مجيء مقدماته وسكراته.

﴿لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾ أي: فيما ضيعت، وهي حياته الدنيا التي ضيعها في غير طاعة الله تعالى، فهي فرصة لا تعوض ولا تتكرر، وقد سبق في علم الله وتعلقت به إرادته ومشيئته، أنه عندما يخرج الإنسان من العدم، ويضعه على طريق الحياة، أن يكون هذا الطريق في اتجاه واحد، لا رجوع فيه إلى الوراء أبداً، وأن يمتد إلى الخلود في الجنة أو في النار.

وسؤال الرجعة إلى الدنيا يتكرر منهم أكثر من مرة، عند الاحتضار، كما في قوله تعالى هنا، وفي قوله أيضاً: ﴿وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين﴾[1].

وكذلك عند الحساب في أرض المحشر، كما في قوله سبحانه: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾[2].

ويتكرر أيضاً منهم وهم يعذبون في جهنم، كما في قوله تعالى: ﴿وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أَوَ لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين

---

(١) المنافقون: الآية ١٠.

(٢) السجدة: الآية ١٢.

من نصير﴾[1].

وسيأتي قوله تعالى: ﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾.

﴿كلا إنها كلمة هو قائلها﴾ أي: لا رجعة له أبداً، وسؤاله الرجعة كلمة لا بد أن يقولها في مثل هذا الموقف، بسبب ما يعاين من الهول والفزع. إنها كلمة الموقف الرهيب، لا كلمة الإخلاص المنيب، كلمة تقال في لحظة الضيق، ليس لها في القلب رصيد[2].

وقد أكد سبحانه هذا المعنى بقوله: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾[3].

﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ [١٠٠] أي: ومن أمامهم حاجز بينهم وبين الرجعة، إلى يوم يبعثون من قبورهم، وهذا الحاجز هو البرزخ الممتد من موتهم إلى يوم بعثهم من قبورهم، وهو إقناط كلي لهم عن الرجوع إلى الدنيا، إذ هي دار الفناء، والله تعالى خلقهم لدار الخلود والبقاء.

في يوم الخلود

وماذا يحدث إذا ما انقضى البرزخ، وجاء يوم الخلود.

﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ [١٠١] أي: إذا نفخ في الصور نفخة النشور، وبعث الناس من القبور، لا يتساءلون سؤال تواصل، كما كانوا يتساءلون في الدنيا، فلا تنفعهم

---

(١) فاطر: الآية ٣٧.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٨٠.
(٣) الأنعام: الآية ٢٨.

أنسابهم وأرحامهم، ولا يسأل أحد عن أحد، كما في قوله تعالى: ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾[1] وقوله سبحانه أيضاً: ﴿يوم يفر امرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾[2].

ولا تناقض بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾[3] فللقيامة مواطن، ففي موطن يشتد عليهم الخوف فلا يتساءلون، وفي موطن يفيقون فيتساءلون[4].

﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون﴾ [١٠٢] أي: من ثقلت موازينه بالحسنات، فرجحت على سيئاته، أو: من ثقلت موزوناته من الأعمال الصالحة، لأن لها قدراً ووزناً عند الله تعالى، فأولئك هم الفائزون بالخلود والبقاء والخير والنعيم، كما في أول آيات السورة ﴿قد أفلح المؤمنون﴾.

﴿ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون﴾ [١٠٣] أي: من خفت موازينه بالحسنات، فرجحت عليها سيئاته، أو لم يكن معه من الأعمال الصالحة ما يكون له وزن وقدر عند الله تعالى، فأولئك غبنوا أنفسهم وعرضوها لخسارة لا عوض لها، فهم ماكثون أبداً في جهنم، لا يخرجون منها.

﴿تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون﴾ [١٠٤] أي: تحرق وجوههم النار، وهم فيها عابسون، قد بدت أسنانهم وتقلصت شفاههم، كالرأس المشوي على النار.

---

(١) المعارج: الآية ١٠.
(٢) عبس: الآيات ٣٤ ـ ٣٧.
(٣) الصافات: الآية ٢٧.
(٤) تفسير النسفي ٤/ ٣٥٩.

وفي الحديث الشريف عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿وهم فيها كالحون﴾ أن رسول الله ﷺ قال: «تشويه النار فتتقلص شفته العليا، حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي السفلى حتى تضرب سرته»(١).

وتخصيص الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء، وإلا فالنار تحرق جميع أجسامهم، كما في قوله تعالى: ﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون﴾(٢).

ويقال لهم تبكيتاً وتقريعاً.

﴿ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون﴾ [١٠٥] فما يملكون في الجواب إلا أن يعترفوا بسوء اختيارهم.

﴿قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا﴾ أي: سيطرت علينا أعمالنا التي شقينا بها، فصدتنا عن الحق وأبعدتنا عنه.

ولا شك أن أعمالهم من كسبهم واختيارهم.

﴿وكنا قوماً ضالين﴾ [١٠٦] أي: وكنا بعيدين عن طريق الحق والصراط المستقيم.

ولا يخفى ما في كلماتهم من مرارة وندم وخوف.

﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ [١٠٧] أي: أخرجنا من جهنم، فإن عدنا إلى الكفر والتكذيب، فإنا حينئذ متجاوزون الحد في الظلم عريقون فيه.

---

(١) أخرجه الترمذي وصححه، انظر: تيسير الوصول ١/ ١٥٢.

(٢) الأنبياء: الآية ٣٩.

ولكنهم سألوا أمراً مستحيلاً ـ كما مر معنا ـ.

﴿قال اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ [١٠٨] أي: اسكتوا سكوت هوان في جهنم وانزجروا انزجار الكلاب، ولا تكلمون في رفع العذاب عنكم، أو لا تتكلمون مطلقاً.

ثم ذكرهم سبحانه ببعض مواقف عنادهم وظلمهم، التي كانوا عليها في الدنيا؛ ليبين لهم أنهم يستحقون هذا العذاب، وأنه تعالى ما ظلمهم.

﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين [١٠٩] فاتخذتموهم سخرياً﴾ أي: سخرتم منهم واستهزأتم بهم، لأنهم آمنوا بي وسألوني المغفرة والرحمة.

﴿حتى أنسوكم ذكري﴾ أي: من فرط تشاغلكم بالاستهزاء بهم، نسيتم ذكري وأعرضتم عن طاعتي وعبادتي.

﴿وكنتم منهم تضحكون﴾ [١١٠] أي: تضحكون منهم؛ استهزاء بهم وسخرية، كما في قوله تعالى: ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون﴾[١].

﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون﴾ [١١١] أي: إني جزيتهم وأنعمت عليهم، بسبب صبرهم على أذاكم وثباتهم على إيمانهم، فوزهم بالفلاح والخلود في النعيم.

وهذا على قراءة ﴿أنهم﴾ بالفتح، وأما على قراءة ﴿إنهم﴾ بالكسر، فالمعنى: قد فازوا حيث صبروا[٢].

---

(١) المطففين: الآيات ٢٩ ـ ٣٠.

(٢) تفسير النيسابوري ١٨/ ٣٤.

الأعمار والخلود

ولما كان اغترارهم بالدنيا، وانهماكهم بشهواتها، سبب إعراضهم عن الآخرة وإنكارهم لها، كما مر معنا فيما حكاه تعالى عنهم: ﴿أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعدون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين﴾ سألهم تعالى عن مقدار حياتهم التي عاشوها في الدنيا، ليبين لهم أنهم اغتروا بشيء قليل حقير.

﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين﴾ [١١٢] أي: كم كانت إقامتكم في الدنيا، وكم كان عدد السنين فيها؟

فأجابوا مستقصرين أعمارهم في الدنيا، بالنسبة إلى خلودهم في العذاب، فالزائل المنتهي مهما طال قصير جداً بالنسبة للخالد الذي لا ينتهي، فكيف إذا كان خلوداً في العذاب، والإنسان عادة يستطيل أيام المحنة، ويستقصر أيام الرخاء والراحة.

﴿قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين﴾ [١١٣] أي: فاسأل الحفظة المهتمين بإحصاء الأعمار، فإنا لا ندري مقدار ما سلف من أعمارنا، بسبب ما نحن فيه من ألم وشقاء وعذاب.

وقولهم: ﴿فاسأل العادين﴾ يدل على شدة ضيقهم وتبرمهم وأساهم.

وجاء تقديرهم لأعمارهم في آيات أخرى متفاوتاً، بسبب تفاوت أحوالهم، فعندما يحشرون من قبورهم، يتفاوت تقديرهم ما بين عشرة أيام إلى يوم واحد، كما قال تعالى: ﴿يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً، يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً * نحن أعلم

بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً﴾[1].

وكلما اشتد بهم العذاب وتمادى، زاد استقصارهم لأعمارهم، حتى تصبح في نظرهم ساعة من نهار، كما في قوله تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون﴾[2].

ويأتي قسمهم هذا تصديقاً لما سبق في الآيات الكريمة، وهي تثبت النبي ﷺ في مواجهة عنادهم، وكما أخبر تعالى في موضع آخر في قوله الكريم: ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾[3].

وصدقهم سبحانه على استقصارهم لأعمارهم، ووبخهم على اغترارهم بهذه الأعمار القصيرة الحقيرة، وجهلهم بحقيقتها.

﴿قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون﴾ [١١٤].

تنبيه وتقرير

والحياة الدنيا مهما امتدت، ساعة من نهار أو أقل بالنسبة للخلود والبقاء، ويتعالى الله الحكيم العليم أن يخلق الخلق على هذا النظام البديع المحكم، لهذه الأعمار القصيرة الحقيرة الزائلة الفانية، فالإنسان لا ينتهي بالموت.

هكذا مهدت الآيات الكريمة، لهذا التقرير الحازم الجازم، الذي

---

(١) طه: الآيات ١٠٢ ـ ١٠٤.

(٢) الروم: الآية ٥٥.

(٣) الأحقاف: الآية ٣٥.

يواجه الناس بقوة وصراحة وصرامة لا نظير لها.

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ [١١٥] فكأن الآية تقول لهم: انتبهوا أيها اللاهون العابثون المغترون بحياتكم وأعماركم، فحياتكم قصيرة زائلة، ومصيركم ومرجعكم إلى خالقكم، إلى واهب الحياة ومبدع الكائنات.

﴿فتعالى الله الملك الحق لا إلّه إلا هو رب العرش الكريم﴾ [١١٦] أي: تنزه وتقدس أن يخلق الملك الحق شيئاً عبثاً ولعباً، فهو الملك الحق الذي لا يزول ملكه، المستحق للعبادة والطاعة، وهو رب العرش الكريم، فكيف يعبث ويلهو مالك وخالق العرش الكريم، أعظم المكونات وأكبرها، وقد مر معنا وصفه بالعظمة بجانب ذكره مع السماوات السبع: ﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم﴾ فالعرش كريم لجماله وكماله ولنسبته إلى أكرم الأكرمين، وعظيم لضخامته وفخامته وسعته، جل جلال خالقه ومبدعه. ولا بد للملك الحق المستحق وحده للعبادة والطاعة، أن يحاسب عبيده الذين يعبدون غيره.

﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به﴾ أي: لا حجة له ولا برهان بدعوة غيره تعالى، فهي صفة لازمة لكل عبادةٍ باطلة، جيء بها للتأكيد، فلا يمكن وجود آلهة غير الله تستحق العبادة، يؤيدها دليل أو برهان، والتدين بما لا دليل عليه ممنوع، فضلاً عما دل الدليل على بطلانه[١].

﴿فإنما حسابه عند ربه﴾ أي: إنما حسابه وجزاؤه عند ربه في

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي ٤/ ٣٦٢.

الآخرة، وفي هذا الحساب لا فلاح للكافرين، وهو ما قرره تعالى في ختام هذه السورة الكريمة.

﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾ [١١٧] أي: فلا فلاح للكافرين أبداً، بينما هو مقرر وثابت للمؤمنين، كما سبق في أول السورة: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾، فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة، الفاتحة التي تقرر الفلاح للمؤمنين، والخاتمة التي تنفيه عن الكافرين.

ثم علمنا جل وعلا أن نتوجه إليه دائماً بسؤال المغفرة والرحمة، لنبقىٰ على طريق الفلاح، فلا غنىٰ لنا عن مغفرته ورحمته جل وعلا.

﴿وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾ [١١٨] فرحمته سبحانه تغني عن رحمة غيره، بينما رحمة غيره لا تغني عن رحمته.

اللهم آمين، وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

الفهـرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
موضوع السورة	٧
على طريق الفلاح	٩
الخاشعون في الصلاة	١٠
المعرضون عن اللغو	١١
الحافظون لفروجهم	١٣
الراعون للأمانات والوعود	١٤
الحافظون على صلواتهم	١٥
الوارثون	١٦
أطوار الخلق	١٩
الإمداد بأسباب الحياة	٢٢
الإمداد بأسباب الهداية	٢٦
التوحيد أولاً	٣٠
مع الأنبياء والمرسلين	٣٢
الطعام الحلال والعمل الصالح	٣٥
الاختلاف والكفر	٣٦
غفلة وغرور	٣٧
المسارعون إلى الخيرات	٣٩
الصحوة المتأخرة	٤٢

الموضوع	الصفحة
الحق متبوع لا تابع	٤٥
إعراض وعناد	٤٧
تقرير وإلزام	٥٠
إثبات التوحيد ونفي الشرك	٥٤
تذكير وتأديب	٥٥
سؤال الرجوع إلى الدنيا	٥٩
في يوم الخلود	٦١
الأعمار والخلود	٦٥
تنبيه وتقرير	٦٦
الفهرس	٦٩

التشريع والهداية

في سورة النور

مِنْ مَوْضُوعَاتِ سُوَرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ
«٢٤»

التَّشْرِيعُ وَالهِدَايَةُ

فِي سُورَةِ النُّورِ

تأليف
عبد الحميد محمود طهماز

دار القلم
دمشق

الدّار الشّاميّة
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فقد أصبحت كثير من المجتمعات الإسلامية، في أمس الحاجة إلى العودة إلى هَذْي الشريعة الإسلامية، بعد أن ذاقت مرارة فشل القوانين الوضعية، وقصورها وضعفها، وخاصة في المجال الاجتماعي والأخلاقي، فقد أورثتها القوانين الوضعية خللاً كبيراً في العلاقات الاجتماعية بين الرجال والنساء، وانحلالاً أخلاقياً كبيراً، أدى إلى تفسخ العلاقات الزوجية، وانهيار كثير من الأسر، وضياع الأنساب، وكثرة المشردين، وازدياد مستوى الجريمة، وهي نفس الآفات الاجتماعية، التي أصيبت بها المجتمعات الغربية.

ولقد اهتمت آيات سورة النور اهتماماً كبيراً بهذا الجانب، وشرع تعالى فيها كثيراً من الأحكام، التي تطهر المجتمع من آفاته، وتزكي نفوس أفراده، فإذا أحسنوا تطبيق هذه الأحكام، وفُقوا إلى الالتزام الدائم بها.

وهذا الكتاب في هذه السلسلة القرآنية المباركة، قد أوضح هذه

الحقيقة، من خلال موضوع السورة، التي تدور معاني آياتها في فلكه، وهو موضوع التشريع والهداية، وما بينهما من ارتباط وثيق، وحاجة الإنسان الماسة إليهما.

وجاء الكتاب بحمد الله تعالى، في فصلين، متفقين مع تسلسل آيات السورة، الأول: ركز على الجانب التشريعي وبيان الأحكام، والثاني ركز على جانب الهداية، وأنها من الله تعالى، وبين أسباب تحصيلها، واستنزال فضله تعالى ورحمته وتوفيقه.

أسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به المسلمين، كخطوة لهم على الطريق للعودة إلى الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية في كل شؤون الحياة. اللهم آمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفقير إلى الله تعالى
عبد الحميد محمود طهماز
المعهد العالي لإعداد الأئمة والدعاة
مكة المكرمة

٢٦/ ١/ ١٤١٣
٢٦/ ٧/ ١٩٩٢

موضوع السورة

الإنسان محتاج إلى هداية الله تعالى، ولا غنى له عنها، وهو بدونها يعيش في ظلمات كثيفة، فهو محتاج أولاً إلى هداية البيان وتشريع الأحكام، وخاصة في حياته الاجتماعية، التي تتشابك فيها العلاقات بين أبناء المجتمع، وتشتجر وتتداخل، ويصبح الناس في أمس الحاجة إلى الموازين الشرعية الدقيقة، التي تنير لهم الدرب، وتلقي لهم الأضواء، وتبين الحلول الفاصلة للقضايا الشائكة المتداخلة في علاقاتهم الاجتماعية.

هذا هو الموضوع الأساسي الأول في سورة النور، الذي قررته في أول آياتها:

﴿سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون﴾.

وتضمن هذا الجانب تشريع حد الزنا، وتشريع حد القذف، وتشريع اللعان، وبعد بيان هذه التشريعات، ألقت الآيات الأضواء على حادثة الإفك، فأظهرت الحقيقة، وبينت شدة حاجة الناس إلى بيان العليم الحكيم وهدايته، ثم أتبعت الآيات ذلك ببيان التشريعات الوقائية، التي تحمي المجتمع من آفات وشرور الفواحش والزنا،

فقررت حرمة للبيوت المسكونة، وشرعت الاستئذان قبل دخولها، وأمرت بغض الأبصار وحفظ العورات، وحرمت على المرأة التبرج وإظهار الزينة، ثم شرعت الزواج وحثت عليه، كما نادت بتحريم البغاء، وعملت على سد منافذه وقطع أسبابه.

ثم انتقلت الآيات إلى بيان حاجة الناس إلى هداية ثانية، وهي هداية التوفيق للالتزام بهذه الأحكام وتطبيقها، وهي أيضاً من الله تعالى، فقربت هذا المعنى المجرد بالأمثلة المحسوسة، وفي أثناء ذلك بينت للإنسان الأسباب التي يستنزل بها رحمة الله تعالى ومعونته وتوفيقه.

وعادت الآيات في آخر السورة إلى موضوع التشريع وبيان الأحكام، فألقت أضواءها على تشريعات خاصة، بعضها مستثنى من عموم ما سبق بيانه من أحكام، وبعضها يعد تتمة لها، فجاءت السورة بحق سورة التشريع والهداية، سورة النور.

الفصل الأول

التشريع وبيان الأحكام

فرض وتفريض

بدأ تعالى سورة النور بوصفها بثلاث صفات؛ تفخيماً لها، وتنبيهاً على الاعتناء به، وتنويهاً بأهميتها وأهمية ما شرع فيها من أحكام ومبادىء، فقال سبحانه:

﴿سورة أنزلناها﴾ أي: هذه سورة أنزلناها، كما أنزلنا غيرها من سور القرآن الكريم.

وقرئت ﴿سورة﴾ بالنصب بفعل مقدر يفسره ﴿أنزلناها﴾، أو على تقدير: اقرأ سورة، أو: دونك سورة[1].

﴿وفرضناها﴾ أي: أوجبنا العمل بما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً.

وهذا مما انفردت به هذه السورة، مما يدل على أهمية الأحكام التي شرعت فيها، وضرورة العمل بها، وقد اهتم بها الصحابة رضي الله عنهم كثيراً، حتى كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أهل الكوفة: علموا نساءكم سورة النور[2].

وكان ابن عباس رضي الله عنه يفسرها للحجاج في عرفات، فقد

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ١٥٥.

(٢) تفسير القرطبي ١٢/ ١٥٨.

أخرج الحاكم عن أبي وائل قال: حججت أنا وصاحب لي، وابن عباس على الحج، فجعل يقرأ سورة النور ويفسرها، فقال صاحبي: يا سبحان الله! ماذا يخرج من رأس هذا الرجل، ما رأيت ولا سمعت كلام رجل مثله، لو سمعته فارس والروم لأسلمت.

وقرئت بالتشديد: ﴿وفرَّضناها﴾ بمعنى: وفصلناها، ونزلنا فيها فرائض مختلفة، فهما قراءتان مشهورتان، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القراء، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب، وذلك أن الله قد فصلها، وأنزل فيها ضروباً من الأحكام، وأمر فيها ونهى، وفرض على عباده فيها فرائض، ففيها المعنيان كلاهما، التفريض والفرض[(١)].

﴿وأنزلنا فيها آيات بينات﴾ أي: وأنزلنا في هذه السورة علامات ودلالات على الحق واضحات، فمن تأملها وفكر فيها يجزم أنها من عند الله تعالى، فهي كما قال الإمام الطبري رحمه الله: الحق المبين، تهدي إلى الصراط المستقيم[(٢)].

وأفاد تكرير كلمة ﴿أنزلنا﴾ إبراز كمال العناية بشأنها، وإظهار خطرها، وأهميتها في حياة الأفراد والجماعات، كما في قوله تعالى: ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ بعد قوله: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾[(٣)].

﴿لعلكم تذكرون﴾ [١] أي: لكي تتعظوا بما فيها، وتلتزموا بتشريعاتها، وتقفوا عند حدودها، فمن حقها أن تكون على ذكر منكم، بحيث تستحضرونها كلما مست الحاجة إليها.

---

(١) تفسير الطبري ٧/ ٥٢.

(٢) تفسير الطبري ٧/ ٥٢.

(٣) هود: الآية ٥٨. انظر: روح المعاني ١٨/ ٧٦.

تشريع حد الزنا

أول تشريع شرعه الحق تعالى في هذه السورة، تشريع حد الزنا، وأشار تقديم هذا التشريع إلى وجوب المبادرة إلى تطبيقه على الزناة، قمعاً لهذه الجريمة، وتطهيراً للمجتمع من شرورها وعواقبها الوخيمة الذميمة، فإن التراخي عن تطبيق هذا الحد يؤدي، كما هو معلوم من حال المجتمعات الحاضرة، إلى انتشار هذه الجريمة، واستفحال خطرها.

﴿الزاني والزانية فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾ أي: فاضربوا كل واحد من الزانيين مائة جلدة.

والجلد: الضرب على الجلد، وفيه إشارة إلى أنه لا يبالغ بالضرب، ليصل الأذى إلى اللحم والعظم.

والخطاب لولاة الأمر؛ لأن إقامة الحد من الدين وهي على جميع أفراد المجتمع، إلا أنهم لا يمكنهم الاجتماع، فينوب الإمام منابهم[١].

وأجمع العلماء على أن الواجب الجلد بالسوط، والسوط الذي يجب أن يجلد به يكون سوطاً بين سوطين، لا شديداً ولا ليناً[٢].

والجلد حد الزاني البكر، وهو الذي لم يتزوج، وأما الزاني المحصن، وهو الذي أحصن نفسه فتزوج امرأة في نكاح صحيح ودخل بها، فإنه يرجم، لما ثبت في الحديث الشريف عن جابر بن عبدالله، أن رجلاً من أسلم أتىٰ رسول الله ﷺ فحدثه أنه زنى، فشهد على نفسه أربع شهادات، فأمر به رسول الله ﷺ فرجم، وكان قد أحصن[٣].

---

(١) تفسير النسفي ٤/ ٣٦٤.

(٢) تفسير القرطبي ١٢/ ١٦١.

(٣) متفق عليه واللفظ للبخاري، كتاب الحدود (٦٨١٤).

وعن أبي هريرة وزيد بن خالد قالا: كنا عند النبي ﷺ، فقام رجل فقال: أنشدك الله إلا ما قضيت بيننا بكتاب الله، فقام خصمه وكان أفقه منه فقال: اقض بيننا بكتاب الله وائذن لي. قال: قل. قال: إن ابني هذا كان عسيفاً على هذا، فزنىٰ بامرأته، فافتديت منه بمائة شاة وخادم، ثم سألت رجالاً من أهل العلم، فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام، وعلى امرأته الرجم. فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله جل ذكره، المائة شاة والخادم رد، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، واغد يا أنيس على امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها». فغدا عليها فاعترفت فرجمها(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال عمر: لقد خشيت أن يطول بالناس زمان، حتى يقول قائل: لا نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، ألا وإن الرجم حق على من زنى وقد أحصن، إذا قامت البينة أو كان الحمل أو الاعتراف(٢).

والمراد من قوله: أو كان الحمل. أي: وجدت المرأة الخلية من زوج أو سيد حُبلى، ولم تذكر شبهة ولا إكراه(٣).

﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ أي: لا تأخذكم في الزانيين رحمة ورقة في طاعة الله وحكمه، فيؤدي بكم ذلك إلى تعطيل الحدود، أو تخفيفها، فإن إقامة الحدود طاعة لله تعالى وعبادة له، لا يجوز تعطيلها والتهاون في تطبيقها. وكأن الآية الكريمة تخاطب في هذا الزمن، أولئك المنادين بعدم تطبيق الحدود، بدافع الرأفة والرحمة

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الحدود (٦٨٢٧).
(٢) صحيح البخاري، كتاب الحدود (٦٨٢٩).
(٣) فتح الباري ١٢/١٤٨.

بالزناة، مع أنه تعالى، وهو العليم الحكيم، والبر الرؤوف الرحيم، أعلم بما يصلح للناس، وما يقطع دابر الفساد عن مجتمعهم، ولهذا قال في ختام الآية.

﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي: فأقيموا حد الزنا ولا تتهاونوا فيه إن كنتم حقاً تؤمنون بالله واليوم الآخر.

ففيها حث وتهييج على الالتزام بأحكام دين الله وشرعه، وتطبيق ما شرع من العقوبات الزاجرة، وأولها وأهمها حد الزنا.

﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ [٢] أي: ليحضر إقامة الحد عليهما جماعة من المؤمنين، فلا يقام الحد على الزانيين سراً، بل يقام جهراً أمام ملأ من الناس، زيادةً في التنكيل بهما، وزجراً لغيرهما عن هذه الجريمة.

وهذا يدل على خطورة جريمة الزنا، وأن لها آثاراً سيئة كبيرة في البنية الاجتماعية والخلقية والصحية للأمة، فينبغي المسارعة إلىٰ معاجة هذه الآفة الخطيرة وحسمها، وتطهير المجتمع منها.

ومن كمال الشريعة الإسلامية أنها لم تقتصر على تشريع العقوبات الحاسمة الزاجرة لآفة الزنا بعد وقوعها، بل شرعت أيضاً عدداً من التشريعات الوقائية، تحول دون وقوعها، فالوقاية خير من العلاج، ولا شك أن للزنا أسباباً تؤدي إليه، وقد عملت الشريعة الإسلامية على قطع أسبابه، أشار إلى هذه الأسباب قوله تعالى: ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾[١] وهذا ما اتجهت آيات سورة النور إلىٰ بيانه بأسلوب رفيع معجز، أدب فيه العليم الحكيم، المؤمنين بأعلى الآداب

---

(١) الإسراء: الآية ٣٢.

وأسماها، ورباهم تربية حكيمة، طهرت قلوبهم وهذبت نفوسهم، وصانت ألسنتهم عن لوث الفحش، وبذاءة القول، وهُجرْ الكلام.

التنفير من الزنا

بدأت الآيات أولاً تنفر المؤمنين عن الزنا، بتصويره بصورة قبيحة مزرية.

﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة﴾ أي: الزاني المتصف بالزنا والمصر عليه، لا يليق به أن ينكح العفيفة المؤمنة، وإنما يليق به أن ينكح زانية فاجرة مثله، أو مشركة هي أسوأ حالاً منه.

﴿والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك﴾ أي: وكذلك الزانية، لا يليق أن ينكحها إلا من هو مثلها، وهو الزاني، أو من هو أسوأ حالاً منها وهو المشرك، وأما المسلم العفيف فغيرته تأبى عليه نكاح الزانية.

وتجتنب الأسود ورود ماء إذا كان الكلاب يلغن فيه

فالآية سيقت للتنفير من الزنا، وتقبيح حال الزناة، ولا يشكل على هذا صحة نكاحه إياها، وعدم صحة نكاح المشرك(١).

﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾ [٣] أي: وحرم الزنا على المؤمنين، وخصهم بالذكر لشرفهم. ويحتمل أن يكون التحريم لنكاح الزانية، وعليه فالمراد من التحريم المنع، وجعل نفوسهم تترفع عنه، فلا يليق ذلك بهم.

وقد روي في سبب نزول الآية، أن رجلاً يقال له مرثد بن أبي

---

(١) روح المعاني ١٨/ ٨٤.

مرثد، وكان رجلاً يحمل الأسارى من مكة حتىٰ يأتي بهم المدينة، وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها عناق، وكانت صديقة له، وواعد رجلاً من أسارى مكة يحمله، قال: فجئت حتىٰ انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، فجاءت عناق فأبصرت سواد ظل تحت الحائط، فلما انتهت إليّ عرفتني، فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد. فقالت: مرحبا وأهلاً، هلم فبت عندنا الليلة. فقلت: يا عناق حرم الله الزنا. فقالت: يا أهل الخيام، هذا الرجل يحمل أسراكم، قال: فتبعني ثمانية. فانتهيت إلى غار، فجاؤوا حتىٰ قاموا على رأسي، وبالوا فظل بولهم على رأسي، وأعماهم الله تعالى عني. ثم رجعوا ورجعت إلى صاحبي فحملته حتىٰ قدمت المدينة، فأتيت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله أنكح عناقاً؟ فأمسك ولم يرد عليّ شيئاً حتىٰ نزل: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾ فقال رسول الله ﷺ: «يا مرثد لا تنكحها»[1].

تشريع حد القذف

والتراشق بتهمة الزنا يؤدي إلى إشاعته في المجتمع، كما يؤدي إلى نشر الخصومات والمنازعات بين أبنائه، ولهذا شرع الله تعالى عقوبة جسدية وأدبية لمن يرمون غيرهم بجريمة الزنا، فقال:

﴿والذين يرمون المحصنات﴾ أي: يقذفون المؤمنات العفيفات بالزنا، وعدم التصريح به لدلالة الآية السابقة عليه.

﴿ثم لم يأتوا بأربعة شهداء﴾ أي: ثم عجزوا عن إثبات صحة ما

---

(١) أخرجه أصحاب السنن. انظر: تيسير الوصول ١/ ١٥٣.

قالوا بالبينة، وهي أن يأتوا بأربعة شهداء عدول يشهدون على الزنا.

فشأن الزنا أخطر من غيره، ولهذا جعلت الشريعة بينة ثبوته أربعة شهداء، بينما القذف بغير الزنا، بأن يقول: يا فاسق، يا آكل الربا، يكتفىٰ فيه بشاهدين، قال تعالى: ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم...﴾[١].

وهذا يدل على شدة حرص الشريعة الإسلامية، على حماية أعراض الناس، وحماية جو المجتمع من البلبلة والاضطراب، والقلق والريبة، بسبب التراشق بالزنا، فشددت في ثبوت الزنا، وشرطت له أربعة شهود عدول، يشهدون على معاينتهم للجريمة، فإذا ما شهد ثلاثة رُدت شهادتهم، وعُدوا قاذفين، وجُلدوا حد القذف، وهو ما فعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الثلاثة الذين شهدوا على المغيرة بن شعبة بأنه زنىٰ، وهم أبو بكرة نفيع بن الحارث، وأخوه نافع، وشبل بن معبد البجلي، فلما جاءوا لأداء الشهادة، توقف الشاهد الرابع، زياد بن أبيه، ولم يؤدها، فجلد عمر الثلاثة المذكورين[٢].

وذكر تعالى في الآية النساء من حيث أن رميهن بالفاحشة أشنع وأنكىٰ للنفوس، وقذف الرجال داخل في حكم الآية بالمعنىٰ، وإجماع الأمة على ذلك[٣].

ودل قوله: ﴿والذين يرمون المحصنات﴾ علىٰ أنه لا حد على من رمى رجلاً أو امرأة قد ثبت عليهما الزنا سابقاً ببينة أو إقرار، فهو يدل بمفهومه على أن من رمى غير محصنة لا حد عليه، لكن يلزم تعزيره،

---

(١) النساء: الآية ١٥.
(٢) تفسير القرطبي ١٢/ ١٧٨.
(٣) تفسير القرطبي ١٢/ ١٧٢.

ولا يترك عرض من ثبت عليه الزنا مباحاً دون عقوبة رادعة لمن يرميه بالزنا[1].

﴿فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾ أي: مهما كانت هذه الشهادة، في قذف أو غيره، فرد شهادته جزء من عقوبة القذف، المؤلفة من العقوبة المادية، وهي جلده ثمانين جلدة، ومن العقوبة الأدبية المعنوية، وهي رد شهادته وعدم قبولها مدة حياته.

﴿وأولئك هم الفاسقون﴾ [٤] أي: وأولئك عند الله تعالى فاسقون خارجون عن طاعته، ومتجاوزون لحدود شريعته.

وهذا تقرير لما قبله، يبين سوء حالهم عند الله عز وجل.

ودل اسم الإشارة ﴿أولئك﴾ على بعد منزلتهم في الشر والفساد، أي: أولئك هم المحكوم عليهم بالفسق والخروج عن الطاعة، والتجاوز عن الحدود، الكاملون فيه، المستحقون لإطلاق اسم الفاسق عليهم، لا غيرهم من الفسقة[2].

وفتحت الآيات بعد هذا التأديب والتهذيب، باب التوبة والإنابة للمذنبين من القاذفين، بهذا الأسلوب التربوي الرفيع، الذي يؤدب المذنبين، ثم يأخذ بأيديهم ليلحقهم بقافلة الصالحين، في ساحات رحمته تعالى ومغفرته.

﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾ أي: إلا الذين تابوا من بعد ما اقترفوا ذلك الذنب القبيح، وأصلحوا ما أحدثوا من فساد في المجتمع، بتكذيبهم أنفسهم واستسلامهم للحد، واستحلالهم من المقذوف.

---

(١) أضواء البيان ٦/ ١٢٣.

(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ١٥٨.

﴿فإن الله غفور رحيم﴾ [٥] يغفر لهم ويرحمهم.

وهل تعاد للقاذفين عدالتهم وتقبل شهادتهم بعد توبتهم، ويرجع الاستثناء في الآية إلى الفسق والنهي عن قبول الشهادة؟ رأى بعض العلماء ذلك، ورأى أنه ليس القاذف بأشد جرماً من الكافر، فحقه إن تاب وأصلح أن تقبل شهادته، وإذا قبل الله توبته فلا بد أن تقبل شهادته.

وتمسك بعضهم بظاهر قوله تعالى: ﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾ وقصر الاستثناء على الجملة الأخيرة ﴿وأولئك هم الفاسقون﴾.

لكن إذا زال عنهم اسم الفسق، فلم لا تقبل شهادتهم، وقد ردت بسبب فسقهم[١].

تشريع اللعان

وقد يحدث القذف في داخل الأسرة بين الزوجين، فيقذف الزوج زوجته، وهو أخطر أنواع القذف، يؤدي إلى انهدام الأسرة، وتقطيع أواصر الأرحام والأنساب، ولهذا شرع له العليم الحكيم أحكاماً خاصة، فقال:

﴿والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم﴾ أي: والذين يقذفون زوجاتهم بالزنا، ولا يستطيعون إثبات ذلك، لعدم توفر أربعة شهداء، ويسبب هذا الأمر للزوج معاناة نفسية كبيرة وحرجاً، كما جاء في سبب النزول، فعن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: «البينة أو حد في ظهرك»

---

(١) تفسير القرطبي ١٢/ ١٨١.

فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً، ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي ﷺ يقول: «البينة وإلا حد في ظهرك» فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، فلينزلن الله ما يبرىء ظهري من الحد، فنزل جبريل، وأنزل عليه: ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾ فقرأ حتى بلغ: ﴿إن كان من الصادقين﴾ فانصرف النبي ﷺ فأرسل إليها، فجاء هلال فشهد، والنبي ﷺ يقول: «إن الله يعلم أن أحدكم كاذب، فهل منكما تائب؟» ثم قامت فشهدت، فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا: إنها موجبة. قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت حتىٰ ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم، فمضت. فقال النبي ﷺ: «أبصروها، فإن جاءت به أكحل العينين، سابغ الأليتين، خَدَلَّج الساقين، فهو لشريك بن سحماء» فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: «لولا ما مضىٰ من كتاب الله لكان لي ولها شأن»[1]. ودل الحديث على أن نزول آيات اللعان تأخر عن الآيات السابقة، التي شرعت حد القذف ويبدو أن سبب النزول تكرر، فعن سهل بن سعد أن عويمراً أتىٰ عاصم بن عدي، وكان سيد بني عجلان، فقال: كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلاً؟ أيقتله فتقتلونه؟ أم كيف يصنع؟ سل لي رسول الله ﷺ عن ذلك، فأتى عاصم النبي ﷺ فقال: يا رسول الله. فكره رسول الله ﷺ المسائل، وقال لعويمر: إن رسول الله ﷺ كره المسائل، قال عويمر: والله لا أنتهي حتىٰ أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك، فجاء عويمر فقال: يا رسول الله، رجل وجد مع امرأته رجلاً، أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: «قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبتك» فأمرهما بالملاعنة[2].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٤٧٤٧).

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٤٧٤٥).

﴿فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه من الصادقين﴾ [٦] أي: فالواجب أن يشهد الزوج القاذف على زوجته أربع شهادات بالله تعالى، أنه صادق فيما رماها به من الزنا.

﴿والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين﴾ [٧] أي: والشهادة الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما رماها به من الزنا.

ودلت الآية على أن اللعان واجب على الزوج إذا رمى زوجته بالزنا، واختلف العلماء في حال امتناع الزوج عن اللعان، فرأى بعضهم أنه يحد حد القذف، وهو ما ذهب إليه الأئمة الثلاثة، خلافاً لأبي حنيفة القائل بأنه يحبس حتىٰ يلاعن، أو يكذّب نفسه فيقام عليه حد القذف(١).

﴿ويدرأ عنها العذاب﴾ أي: يدفع عن الزوجة العذاب الدنيوي، وهو الحبس عند بعض العلماء، والحد عند الآخرين.

والأصل اختلافهم في ثبوت الزنا، ووجوب الحد بنكول الزوجة عن اللعان، فذهب أبو حنيفة وأحمد إلى القول بأنه لا حد عليها بنكولها عن الشهادات، وتحبس أيضاً حتىٰ تلاعن أو تقر، فيقام عليها الحد؛ لأن شهادات الزوج ونكولها هي، لا يتحقق بواحد منهما، ولا بهما مجتمعين، ثبوت الزنا عليها.

وذهب الشافعي ومالك ومن وافقهما، إلى أنها تحد بشهاداته ونكولها(٢).

﴿إن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين﴾ [٨] أي: إن كان

---

(١) أضواء ابيان ٦/ ١٣٣.

(٢) أضواء البيان ٦/ ١٣٣.

زوجها لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنا.

﴿والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين﴾ [٩] أي: إن كان الزوج من الصادقين فيما رماها به من الزنا.

وجعل سبحانه الغضب في جانبها؛ ردعاً لها، لأن النساء يستعملن اللعن كثيراً، كما ورد به الحديث، فربما يجترئن على الإقدام، لكثرة جري اللعن على ألسنتهن، وسقوط أثر وقوعه عن قلوبهن[١].

والحديث المشار إليه رواه ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر النساء تصدّقن، وأكثرن الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة منهن جزلة ـ أي: ذات عقل ووقار ـ: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن» قالت يا رسول الله، وما نقصان العقل والدين؟ قال: «أما نقصان العقل، فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي ما تصلي، وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدين»[٢].

وتجلت في هذه الأحكام الشرعية المبينة في الآيات، رحمته تعالى بعباده المؤمنين، وحكمته في كل ما شرع لهم، ولهذا قال تعالى في معرض الامتنان عليهم.

﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم﴾ [١٠] أي: كثير التوبة، يتجاوز عن التائبين بقبول توبتهم، حكيم في كل ما شرع لكم.

---

(١) تفسير النسفي ٤/ ٣٧١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان (٧٩).

وحذف جواب ﴿لولا﴾ تعظيماً له، وإشعاراً بضيق العبارة عن حصره، كأنه قيل: ولولا تفضله تعالى عليكم ورحمته، وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة، حكيم في جميع أفعاله وأحكامه، لكان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان، ومن جملته أنه تعالى لو لم يشرع ذلك، لوجب على الزوج حد القذف، مع أن الظاهر صدقه، لأنه أعرف بحال زوجته، وأنه لا يفتري عليها، لاشتراكهما في الفضيحة، وبعدما شرع لهم ذلك، لو جعل سبحانه شهادة الزوج موجبة لحد الزنا على الزوجة، لفات النظر لها، ولو جعل شهادتها موجبة لحد القذف عليه لفات النظر له، فآثار التفضل والرحمة غير خافية، أما على الصادق فظاهر، وأما على الكاذب فهو إمهاله والستر عليه في الدنيا، ودرء الحد عنه، وتعريضه للتوبة، فما أعظم شأنه وأوسع رحمته، وأدق حكمته[1].

إن تشريع أحكام اللعان قد أنار طريق الخلاص من هذه الأزمة المستحكمة، التي يمكن أن يتفاقم شرها وينتشر ضررها في نطاق المجتمع الكبير خارج الأسرة.

حادثة الإفك

ثم ألقت آيات سورة النور الضوء على أخطر مشكلة اجتماعية، واجهت النبي ﷺ في المدينة المنورة، والتي كادت آثارها السلبية الخطيرة، أن تزعزع وحدة المجتمع المسلم الوليد، الذي حرص النبي ﷺ على تقوية بنائه، ورص صفوف أبنائه، فأظهرت الحقيقة، وبددت الشكوك، وأعادت للمجتمع المسلم في المدينة المنورة،

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ١٦٠.

وحدته وصفاءه، بعد أن فضحت المنافقين، وكشفت كيدهم ومكرهم بالنبي ﷺ وأهله على وجه الخصوص، كما أظهرت في الوقت نفسه خطورة القذف بالزنا، وخطورة ما يؤدي إليه من شقاق ونزاع وإشاعة للفاحشة بين أبناء المجتمع.

﴿إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم﴾ أي: إن الذين جاؤوا بأبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، جماعة منكم.

والعصبة من ثلاثة إلى عشرة، والمشهور في الروايات الصحيحة، أنهم عبدالله بن أبي، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش، وحسان بن ثابت[1].

وأصل الإفك من الأفك، وهو القلب والصرف، فهو قول مأفوك عن وجهه، والمراد منه ما أفكت به السيدة عائشة رضي الله عنها، وفي لفظ المجيء إشارة إلى أنهم أظهروه من عند أنفسهم، من غير أن يكون له أصل[2].

وسبب نزول هذه الآيات، تبرئة السيدة عائشة رضي الله عنها من حديث الإفك. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما نزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه، فسرنا حتىٰ إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقفل ودنونا من المدينة قافلين، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتىٰ جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى

---

(١) فتح الباري ٨/ ٤٦٤.

(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ١٦٠.

رحلي، فإذا عقد لي من جذع أظفار قد انقطع، فالتمست عقدي، وحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت، وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم، وإنما يأكلن العُلَقَة[1] من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فأممت منزلي الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إليّ.

فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأدلج، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فوطىء على يديها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبدالله بن أبي ابن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليّ رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: كيف تيكم، ثم ينصرف، فذاك الذي يريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت، فخرجت معي أم مسطح قبل المناصع، وهو متبرزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريباً من بيوتنا.

---

(١) أي القليل.

فانطلقت أنا وأم مسطح ـ وهي ابنة أبي رهم بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة ـ فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي وقد فرغنا من شأننا، فقالت: تعس مسطح. فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبين رجلاً شهد بدراً؟ قالت: أي هنتاه، أو لم تسمعي ما قال؟ قالت قلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً على مرضي. فلما رجعت إلى بيتي، ودخل عليّ رسول الله ﷺ، تعني سلم، ثم قال: كيف تيكم؟ فقلت: أتأذن لي أن آتي أبوي ـ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما ـ قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ، فجئت أبوي، فقلت لأمي: يا أمتاه ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هوني عليك، فوالله لقلّما كانت امرأة وضيئة، عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، قالت: فقلت: سبحان الله، أو لقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيت تلك الليلة، حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، حتى أصبحت أبكي.

فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حين استلبث الوحي، يستأمرهما في فراق أهله. قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود فقال: يا رسول الله هم أهلك، وما نعلم إلا خيراً. وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك. قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك؟ قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت عليها أمراً أغمصه عليها، أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله، فقام رسول الله ﷺ، فاستعذر يومئذ من عبدالله بن أبي بن سلول، فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: يا معشر المسلمين، من

يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي.

فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله، أنا أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية ـ فقال لسعد: كذبت لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله. فقام أسيد بن حضير ـ وهو ابن عم سعد بن معاذ ـ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فتساور الحيان الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت. قالت: فمكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم. قالت: فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع، يظنان أن البكاء فالق كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنت عليّ امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي.

قالت: فبينا نحن على ذلك، دخل علينا رسول الله ﷺ، فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: أما بعد، يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرِّئكِ الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله، تاب الله عليه، قالت: فلما قضىٰ رسول الله مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي:

أجب رسول الله ﷺ فيما قال. قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ. قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. قالت: فقلت: ـ وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن ـ: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة ـ والله يعلم أني بريئة ـ لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر ـ والله يعلم أني منه بريئة ـ لتصدقُنّي. والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف قال: ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي.

قالت: وأنا حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحياً يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرِّئني الله بها. قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق، وهو في يوم شات، من ثقل القول الذي ينزل عليه. قالت: فلما سُرّي عن رسول الله ﷺ، سرّي عنه وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها: يا عائشة، أما الله عزّ وجلّ فقد برأك. فقالت أمي: قومي إليه. قالت فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عزّ وجلّ. وأنزل الله: ﴿إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه. . .﴾ الآيات العشر كلها.

فلما أنزل الله في براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال. فأنزل الله ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربىٰ والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾ قال

أبو بكر: بلى والله، إني أحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه. وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب ابنة جحش عن أمري، فقال: يا زينب، ماذا علمت أو رأيت؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيراً. قالت: وهي كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ، فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك[1].

وبعد أن بين الله تعالى كذب الحديث الذي تحدثوا به عن السيدة عائشة رضي الله عنها، وجه سبحانه الخطاب إلى جميع المسلمين، الذين آلمهم وأحزنهم حديث الإفك، وفي مقدمتهم النبي ﷺ، والسيدة عائشة، ووالدها الصديق، وصفوان بن المعطل السلمي، يواسيهم بقوله الكريم:

﴿لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم﴾ أي: لا تحسبوا حديث الإفك شراً لكم، بل هو خير لكم، أظهر فيه تعالى كرامتكم عنده، فأنزل هذه الآيات الكريمة، تعظيماً لشأنكم، وإظهاراً لبراءتكم، وتهويل الوعيد لمن تكلم فيكم، والثناء على من ظن فيكم خيراً، كما أنه سبحانه أثابكم عليه الثواب العظيم، وأدب المؤمنين بأعظم الآداب، وبين لهم ما يجب عليهم أن يتصفوا به من الأقوال والأفعال، في مثل تلك الأحوال.

وأما الذين أذاعوا حديث الإفك:

﴿لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم﴾ أي: لكل واحد منهم جزاء إثمه على مقدار خوضه فيه، مما يدل على تفاوتهم في خوضهم في حديث الإفك.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٤٧٥٠).

﴿والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾ [١١] أي: والذي تحمل معظمه، أو: والذي بدأ بإذاعته ونشره بين الناس، له عذاب عظيم في الدنيا والآخرة.

وهو رأس المنافقين في المدينة المنورة، عبدالله بن أبي ابن سلول، كما مر في حديث سبب النزول.

وفي مرسل سعيد بن جبير: وقذفها عبدالله بن أبي فقال: ما برئت عائشة من صفوان ولا بريء منها، وخاض فيه بعضهم، وبعضهم أعجبه.

ووقع في المغازي من طريق صالح بن كيسان عن الزهري عن عروة قال: أخبرت أنه كان يشاع ويتحدث به عنده، فيقره ويستمعه، ويستوشيه[١].

تأديب وتوبيخ

ثم أدبت الآيات المؤمنين، وبينت لهم الموقف الذي ينبغي أن يقفوه عند سماعهم مثل حديث الإفك، بقوله تعالى:

﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً﴾ أي: كان الواجب على المؤمنين والمؤمنات عند سماعهم حديث الإفك، أن يبادروا إلى تكذيبه، ويحسنوا الظن بالذين اتهموا به من المؤمنين والمؤمنات، لأنهم كنفس واحدة، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾[٢]، فالإيمان رحم بين المؤمنين، يوجب عليهم ظن الخير ببعضهم، والكف عن الطعن فيهم، ومنع الطاعنين عنهم، كما يمنعونهم عن أنفسهم.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي (٤١٤١)؛ فتح الباري ٨/ ٤٦٤.

(٢) الحجرات: الآية ١١.

﴿وقالوا هذا إفك مبين﴾ [١٢] أي: ردوا ما سمعوا من طعن وافتراء، وقالوا هذا كذب واضح لا حقيقة له.

ولا يخفىٰ ما في الآية من توبيخ وعتاب لعامة المؤمنين، الذين لم يبادروا إلى رد حديث الإفك وتكذيبه، ولذلك عدل عن الخطاب إلى الغيبة، كما صرح بلفظ الإيمان، ليدل على أن الاشتراك فيه، يقتضي ألا يصدق مؤمن على أخيه، ولا مؤمنة على أختها، قول عائب ولا طاعن، وهذا من الأدب الحسن، الذي قل القائم به والحافظ له[١].

قال ابن كثير رحمه الله: هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين، في قصة عائشة رضي الله عنها، حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السوء، وما ذكر من شأن الإفك، وقوله تعالى ﴿ظن المؤمنون...﴾ أي: هلا ظنوا الخير، فإن أم المؤمنين أهله وأولى به[٢].

ولأجل هذا قال العلماء: إن الآية أصل في أن درجة الإيمان، التي حازها الإنسان ومنزلة الصلاح التي حلها المؤمن، ولبسة العفاف التي يستتر بها المسلم، لا يزيلها عنه خبر محتمل وإن شاع، إذا كان أصله فاسداً أو مجهولاً[٣].

﴿لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء﴾ أي: هلا جاء الخائضون بأربعة شهداء يشهدون على ما قالوا، فالله تعالى جعل شهادة الشهداء الأربعة، هي الفاصل بين الرمي الصادق والكاذب، كما مر عند قوله: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين

---

(١) تفسير النسفي ٤/٣٧٨.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٥٩١.

(٣) تفسير القرطبي ١٢/ ٢٠٣.

جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون﴾.

وكما وصفهم تعالى في الآية السابقة بالفسق، وصفهم هنا بالكذب فقال:

﴿فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾ [١٣] أي: فأولئك الخائضون في حكم الله وشرعه، هم الكاملون في الكذب، المستحقون لإطلاق اسمه عليهم دون غيرهم.

وقد يعجز الرجل عن إقامة البينة، وهو صادق في قذفه، لكنه في حكم الشرع وظاهر الأمر كاذب، لا في علم الله تعالى، وهو سبحانه إنما رتب الحدود على حكمه الذي شرعه في الدنيا، لا على مقتضىٰ علمه، الذي تعلق بالإنسان على ما هو عليه، فإنما يبنىٰ على ذلك حكم الآخرة[١].

ولا شك أن الذين قذفوا السيدة عائشة رضي الله عنها كاذبون في علمه تعالى وفي شرعه.

وبعد أن بينت الآيات حكمه تعالى بالقاذفين، توجهت إليهم بالخطاب، تبين لهم فضله تعالى عليهم، بإمهالهم وعدم معاجلتهم بالعقاب:

﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم﴾ [١٤] أي: لأصابكم بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك، عذاب عظيم في الدنيا والآخرة، وهذا الفضل منه تعالى لمن تاب وأناب، ورجع عما اتهم به السيدة عائشة رضي الله عنها، وأكذب نفسه.

---

(١) تفسير القرطبي ١٢/ ٢٠٣.

﴿إذ تلقونه بألسنتكم﴾ أي: يأخذه بعضكم من بعض، يقال: تلقى القول وتلقفه وتلقنه، وقرىء ﴿تتلقونه﴾ على الأصل، بدون حذف التاء.

﴿وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم﴾ أي: وتتحدثون به من غير أن تعلموا أنه حق، فحديث الإفك مجرد قول لا سند له، ولهذا قيده بالأفواه، مع أن القول لا يكون إلا بها؛ لأن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب، ثم يترجم عنه اللسان، وهذا الإفك ليس إلا قولاً يدور في أفواهكم، من غير ترجمة عن علم به في القلب، كقوله تعالى: ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾(1).

﴿وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم﴾ [١٥] أي: وتظنونه سهلاً لا إثم فيه، وهو عند الله ذنب عظيم، فما أعظم غيرته جلّ وعلا على حرم نبيه عليه الصلاة والسلام!

﴿ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا﴾ أي: والواجب عليكم عندما سمعتم حديث الإفك أن تقولوا: ما يصح لنا أن نتكلم بهذا الحديث.

وهو أدب آخر ألزم الله تعالى به المؤمنين، إضافة إلى ما سبق من وجوب إحسان الظن بهم، فالواجب عليهم أن يزجروا أنفسهم عند سماعه عن التكلم فيه، وعليهم أن يقولوا:

﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ [١٦].

---

(١) آل عمران: الآية ١٦٧؛ انظر تفسير النسفي ٤/ ٣٧٩.

وكلمة ﴿سبحانك﴾ للتعجب من عظم القول، إذ الأصل أن يسبح الله عند رؤية العجيب من صنائعه، ثم كثر حتىٰ استعمل في كل متعجب منه، أو لتنزيـه الله أن تكون زوج نبيه عليه السلام فاجرة[1].

والبهتان العظيم: الكذب العظيم، عظمه تعالى لعظمة المفترى عليه، وهي الصديقة بنت الصديق، السيدة عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين.

﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين﴾ [١٧] أي: يحرم الله عليكم تحريماً قطعياً دائماً، أن تعودوا لمثل هذا الحديث، من القذف أو استماعه، إن كنتم حقاً مؤمنين، فإن الإيمان يمنع عن كل قبيح.

﴿ويبين الله لكم الآيات﴾ أي: ينزلها سبحانه عليكم مبينات، تنير لكم الطريق، وتكشف الحقيقة، كما ذكر سبحانه في أول آيات السورة: ﴿سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون﴾.

﴿والله عليم حكيم﴾ [١٨] أي: عليم بجميع أحوالكم، حكيم في كل ما شرع لكم، وقد علم تعالى براءة السيدة عائشة، وحكم بذلك.

التعقيبـات

ظهرت الحقيقة، وتبددت الأراجيف والأكاذيب، بعد أن أنزل الله هذه الآيات الكريمة، التي ألقت النور الكاشف للحقيقة، على هذه الحادثة الخطيرة، فدفعت التهمة، وتوعدت القائلين بها، ودعتهم إلى التوبة والإنابة، ووبخت السامعين لها، الذين لم يبادروا إلى ردها

---

(١) تفسير النسفي ٤/ ٣٨٠.

وتكذيبها، وأدبت أبناء المجتمع بما أدبتهم به من الآداب الرفيعة، القائمة على حسن الظن بالمؤمنين في مثل هذه الوقائع والأحوال، ثم عقبت على ما حدث بقوله سبحانه الكريم:

﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا﴾ أي: يحبون أن ينتشر الزنا ويظهر في مجتمع المؤمنين، وذلك بقذف المؤمنين والافتراء عليهم، ونشره وإذاعته بين الناس، فإن ذلك يؤدي إلى انتشار الفواحش والزنا وانحلال الأخلاق؛ ولهذا توعدهم الله تعالى بأشد أنواع الوعيد فقال:

﴿لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[١٩] أي: والله يعلم وجه الحكم في تشديد الوعيد على هؤلاء الكذبة المفترين، إذ يؤدي افتراؤهم إلى إشاعة الفواحش والمنكرات، التي تهدم المجتمع المسلم، وتقوض أركانه وقواعده من داخله.

وهذا يدل على رحمته تعالى بالمؤمنين، وإحسانه إليهم، وعنايته بطهارة مجتمعهم وسلامته، ولهذا شرع لهم هذه الأحكام، وأدبهم بهذه الآداب، ومنّ عليهم فقال:

﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم﴾ [٢٠] وهو تكرير لمنته تعالى عليهم فيما شرع لهم، ليتمسكوا بشرعه ويلتزموا بأحكامه، فهي وحدها التي تزكي نفوسهم ومجتمعاتهم من الفواحش والمنكرات، ولهذا قال بعدها محذراً:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي: لا تسلكوا مسالك الشيطان، وتعرضوا عن أحكام دينكم وشريعة ربكم.

وما أكثر مسالك الشيطان، التي تبعد المسلمين عن شريعة ربهم!

ولا شك أن أحكام القوانين الوضعية، المخالفة لأحكام الشريعة الإسلامية، هي من مسالك الشيطان التي تؤدي إلى شيوع الفواحش والمنكرات.

﴿ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾ أي: فاحذروا اتباعه، لأن دأبه المستمر أن يأمر بالفحشاء والمنكر، والفحشاء: الأمر المفرط في القبح، ويراد به عادة الزنا، والمنكر: ما ينكره الشرع من التبرج والاختلاط وكشف العورات، المؤدية إلى انتشار الزنا، وانحلال الأسر، واختلاط الأنساب، وهو ما ابتليت به أكثر المجتمعات الإسلامية، بسبب إعراضها عن شرع الله تعالى، وتقليدها للأمم الغربية الكافرة، وتطبيقها لقوانينهم الوضعية، التي دأبت على نشر الفساد، وتمكينه في نفوس الناس.

﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾ أي: ولولا فضل الله عليكم، بفتح باب التوبة لكم، ورحمته بقبولها منكم، ما طهر من دنس إثم الإفك أحد أبداً.

﴿ولكن الله يزكي من يشاء﴾ أي: يطهر من يشاء بمحض إرادته جل وعلا.

﴿والله سميع عليم﴾ [٢١] يسمع أقوال التائبين المستغفرين، ويعلم حقيقة أحوالهم، وما تكنه نفوسهم وصدورهم.

وهو حث لهم على الإقبال على التوبة والاستغفار، بعد الإعراض عن اتباع الشيطان، وترك الفواحش والمنكرات.

فضل أبي بكر الصديق

ثم أوردت الآيات بعد هذا التعقيب العام، الموجه إلى عامة المسلمين، تعقيباً خاصاً بصيغة العموم:

﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة﴾ أي: لا يحلف أولو الفضل منكم في الدين والسعة في المال.

من: ائتلى، إذا حلف. أو: لا يقصر، من الألو.

والمراد أبو بكر الصديق رضي الله عنه كما سيأتي معنا، وكفىٰ به دليلاً على فضله.

﴿أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله﴾ أي: لا يحلفوا على ألا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان، من الأقارب والمساكين والمهاجرين. وهي صفات اجتمعت في موصوف واحد، وهو مسطح بن أثاثة، وكان مسكيناً مهاجراً، ابن خالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كما تقدم في حديث السيدة عائشة عن سبب النزول، حيث قالت: فلما أنزل الله في براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ـ وكان ينفق على مسطح بن أثاثة، لقرابته منه وفقره ـ والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً، بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾ قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

﴿وليعفوا وليصفحوا﴾ أي: وليعفوا عما فرط منهم، عندما تحدثوا بحديث الإفك، وليتجاوزوا عن العقوبة والانتقام منهم.

﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ أي: فافعلوا بهم ما ترجون أن يفعل الله بكم من الرحمة والمغفرة.

﴿والله غفور رحيم﴾ [٢٢] أي: يغفر ويرحم مع كمال قدرته على المؤاخذة، فهو ترغيب عظيم في العفو، ووعد كريم بمقابلته.

ودلت الآية على فضل أبي بكر رضي الله عنه وشرفه، فقد ذكر تعالى الفضل في معرض المدح بلفظ الجمع، ودلت أيضاً على أن من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، فليأت الذي هو خير، وليكفر عن يمينه، كما ورد في الحديث الشريف[١].

فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين، فرأى غيرها خيراً منها، فليأت الذي هو خير، وليكفر عن يمينه»[٢].

الكفر الغليظ

وختمت الآيات تعقيباتها على حديث الإفك، بلعنة موجهة إلى جميع القاذفين الكاذبين:

﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة﴾ أي: إن الذين يرمون النساء العفيفات المؤمنات، اللاتي لم يخطر ببالهن شيء مما رمين به من الفاحشة، مما يدل على كمال نزاهتهن، وأنهن سليمات الصدور تقيات نقيات عن كل سوء.

ولا شك أن المراد بهذه الأوصاف السيدة عائشة رضي الله عنها، وصيغة الجمع باعتبار أن رميها رمي لسائر أمهات المؤمنين؛ لاشتراكهن

---

(١) تفسير الخازن ٤/ ٣٨٢.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الأيمان (١٦٥٠).

في العصمة والنزاهة، والانتساب إلى رسول الله ﷺ، فإنهن قد خصصن من بين سائر المؤمنات، فجعل رميهن كفراً؛ إبرازاً لكرامتهن على الله عزّ وجلّ، وحماية لحمى الرسالة من أن يحوم حولها أحد بسوء، حتى إن ابن عباس رضي الله عنهما جعله أغلظ الذنوب من سائر أفراد الكفر، حين سئل عن هذه الآية فقال: من أذنب ذنباً ثم تاب منه قبلت توبته، إلا من خاض في أمر عائشة رضي الله عنها. قال أبو السعود تعليقاً على قول ابن عباس: وهل هو منه رضي الله عنه، إلا لتهويل أمر الإفك، والتنبيه على أنه كفر غليظ(١).

قال ابن كثير رحمه الله: هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات، خرج مخرج الغالب (المؤمنات)، فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة، ولا سيما التي كانت سبب النزول، وهي عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما، وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة، على أن من سبها بعد هذا، ورماها بما رماها به، بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية، فإنه كافر معاند للقرآن(٢).

﴿ولهم عذاب عظيم﴾ [٢٣] أي: لعظم ذنوبهم، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولا توبة له، ولو فتشت وعيدات القرآن لم تجد أغلظ مما نزل في إفك عائشة رضي الله عنها(٣).

وتابعت الآيات وعيدها الشديد، بقوله تعالى:

﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ١٦٦.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٥٩٤.
(٣) تفسير البيضاوي ٤/ ٣٨٣.

[٢٤] أي: بما كانوا يعملون في الدنيا من الإفك والبهتان، فينطق الله أبعاضهم شاهدة عليهم.

﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق﴾ أي: جزاءهم الحق الثابت الذي هم أهله.

﴿ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ [٢٥] أي: ويعلمون أن وعد الله ووعيده وحسابه هو العدل الظاهر الذي لا جور فيه.

براءة وبشارة

ثم قررت الآيات هذه القاعدة العامة، تأكيداً لبراءة السيدة رضي الله عنها، وتوطئة للتصريح بها في ختام هذه الآيات الكريمة:

﴿الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾ أي: الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس، فما نسبه أهل النفاق إلى السيدة عائشة رضي الله عنها من كلام، هم أولى به، وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم، ولهذا قرر تعالى هذه الحقيقة وصرح بها فقال:

﴿أولئك مبرَّؤون مما يقولون﴾ أي: هم بريئون مما يقوله أهل الإفك والعدوان، ويمكن أن يكون المعنى أيضاً: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، وحيث كان رسول الله ﷺ أطيب الطيبين، وخيرة الأولين والآخرين، تبين كون الصدّيقة رضي الله عنها من أطيب الطيبات

بالضرورة، واتضح بطلان ما قيل في حقها، ومآل هذا القول تنزيه الصدّيقة أيضاً.

﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾ [٢٦] أي: عند الله في جنات النعيم، وهي بشارة عظيمة للسيدة عائشة رضي الله عنها ولأمهات المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾(١).

تشريع الاستئذان

وكما قررت الآيات السابقة حرمة أعراض الناس، فصانت أعراضهم وحفظت كرامتهم، قررت الآيات اللاحقة حرمة البيوت المسكونة، فحرمت دخولها دون استئذان ساكنيها، ومنعت بذلك اختلاط الرجال بالنساء، ودخولهم عليهن من غير استئذان.

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآيات أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله إني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني أحد عليها، لا والد ولا ولد، وأنه لا يزال يدخل عليّ رجل من أهلي وأنا على تلك الحال. فنزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها﴾(٢).

قال القرطبي رحمه الله: لما خصص الله سبحانه ابن آدم، الذي كرمه وفضله بالمنازل، وسترهم فيها عن الأبصار، وملكهم الاستمتاع بها على الانفراد، حجر على الخلق أن يطلعوا على ما فيها من خارج،

---

(١) الأحزاب: الآية ٣١.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٨٧.

أو يلجوها من غير إذن أربابها، وأدبهم بما يرجع إلى الستر عليهم؛ لئلا يطلع أحد منهم على عورة[1].

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا﴾ أي: تستأذنوا من يملك الإذن من سكانها.

وأصل معنى الاستئناس، الاستعلام، من آنس الشيء، إذا أبصره، كما في قوله تعالى: ﴿إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى﴾[2].

فالمستأنس مستعلم للحال، مستكشف أنه هل يؤذن له.

وقد يكون الاستئناس الذي هو خلاف الاستيحاش، فالمستأنس مستوحش خائف ألا يؤذن له، فإذا أذن له استأنس.

أو حتىٰ تتعرفوا هل ثمة إنسان، من الإنس[3].

وذهب بعضهم إلى أن الاستئناس، إعلام أصحاب البيت وإشعارهم بالقدوم عليهم، بأي وجه ممكن، كالتنحنح والتكلم، واستدلوا بما أخرجه ابن ماجه عن أبي أيوب قال: قلنا: يا رسول الله، هذا السلام، فما الاستئناس؟ قال: «يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة ويتنحنح، ويؤذن أهل البيت». قال القرطبي: وهذا نص في أن الاستئناس غير الاستئذان[4].

لكن إعلام القادم أهل البيت بقدومه، لا يعد إذناً له بالدخول

---

(١) تفسير القرطبي ١٢/ ٢١٢.
(٢) طه: الآية ١٠.
(٣) تفسير البيضاوي ٤/ ٣٨٥.
(٤) تفسير القرطبي ١٢/ ٢١٤.

عليهم، فلا بد من الاستئذان، لصريح قوله تعالى بعد ذلك: ﴿فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم﴾.

﴿وتسلموا على أهلها﴾ أي: عند الاستئذان.

فحكم الآية أنه لا يدخل بيت الغير، إلا بعد الاستئذان والسلام، سواء كان الباب مغلقاً أم مفتوحاً، لأن الشرع قد أغلقه بتحريم الدخول، حتى يفتحه الإذن من أهله[1].

﴿ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون﴾ [٢٧] أي: الاستئذان والسلام خير لكم من الدخول بغتة من غير إذن، لعلكم تتذكرون هذه الأحكام، وتلتزمون بالعمل بها، فإن لها دوراً كبيراً هاماً في تنظيم حياتكم الاجتماعية.

وقد صرحت الأحاديث الشريفة بحكمة الاستئذان وضرورته، فعن سهل بن سعد الساعدي، أن رجلاً اطلع في جحر في باب رسول الله ﷺ، ومع رسول الله ﷺ مدرى يحك بها رأسه، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «لو أعلم أنك تنظرني لطعنت به في عينك، إنما جعل الإذن من أجل البصر»[2].

والمدرى: آلة يسوى بها الشعر، تشبه المشط.

وعن عطاء بن يسار أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: أستأذن على أمي؟ فقال: «نعم» فقال الرجل: إني معها في البيت، فقال: «استأذن عليها». فقال: إني خادمها؟ فقال رسول الله ﷺ: «استأذن عليها، أتحب أن تراها عريانة؟» قال: لا. قال: «فاستأذن عليها»[3].

---

(١) تفسير القرطبي ١٢/ ٢٢٠.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الآداب (٢١٥٦).

(٣) رواه مالك في الموطأ. انظر تيسير الوصول ٣/ ٢٦.

ومما يدل على أهمية الاستئذان، أن الآيات الكريمة فصلت أحكامه في أحواله المختلفة، بقوله تعالى:

﴿فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم﴾ أي: فإن لم تجدوا فيها أحداً من أهلها ليأذن لكم فلا تدخلوها إلا بإذن منهم، لأن التصرف في ملك الغير لا بد أن يكون برضاه.

وإن كان أهلها غير مستعدين لاستقبالكم والإذن لكم فارجعوا.

﴿وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا﴾ أي: ولا تحرجوا سكان البيوت، ولا تلحوا في الاستئذان، وتطيلوا الوقوف على الأبواب.

وفي الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع»(١).

وهذا يدل على واقعية أحكام الشريعة الإسلامية، وتقديرها لأحوال الإنسان وظروفه، فقد تمر بالإنسان أحوال في بيته لا تمكنه من استقبال أحد، وقد يكون قولهم ﴿ارجعوا﴾ بلسان حالهم، كأن يجد الزائر على الأبواب إعلاناً بمواعيد الزيارة أو يشعر بوجود حركة في البيت تدل على انشغال سكانه، وعدم استعدادهم لاستقباله.

﴿هو أزكى لكم﴾ أي: الرجوع أطهر وأطيب لكم، لما فيه من سلامة الصدور ودفع الحرج، فليس من المروءة إطالة الوقوف على الأبواب، فإن ذلك يعرضه للريبة والتهمة.

﴿والله بما تعملون عليم﴾ [٢٨] فالتزموا بهذه الأحكام، فإنكم مسؤولون عنها. ثم استثنت الآيات من أحكام الاستئذان، دخول البيوت

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الآداب (٢١٥٣).

التي لم تخصص للسكنى، وإنما هي بمثابة مرافق عامة، يدخلها من له حاجة فيها، كالحوانيت والفنادق، ومحطات السكك الحديدية، وغيرها من الأماكن المعدة لمصالح الناس.

﴿ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم﴾ أي: فيها منفعة لكم.

﴿والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ [٢٩] أي: والله تعالى يعلم حقيقة مقاصدكم، وهو وعيد لمن يدخل مدخلاً من هذه المداخل، قاصداً لفساد أو اطلاع على عورات، فإنه تعالى شرع أحكام الاستئذان، درءاً لهذه المفاسد.

وجوب غض الأبصار وحفظ العورات

ولهذا أضافت الآيات إلى أحكام الاستئذان، أحكاماً عامة شاملة، تندرج فيها آداب الزيارة والاستئذان اندراجاً أولياً، فيها تربية وجدانية نفسية، تقوم على تنمية الإحساس بالمراقبة الإلّهية، وجعل الوجدان الداخلي يقظاً حذراً، كابحاً لنزوات النفس وشهواتها.

﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾ أي: يكفوا أبصارهم عما يحرم عليهم، ويقتصروا على ما يحل لهم.

وتوجيه الخطاب للنبي ﷺ، وتكليفه بتبليغهم الحكم، يدل على أنه متعلق بأمور واقعية جزئية كثيرة الوقوع.

وفي الحديث الشريف عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة إلى

المرأة في الثوب الواحد»[1].

قال النووي: فيه تحريم نظر الرجل إلى عورة الرجل، والمرأة إلى عورة المرأة، وهذا مما لا خلاف فيه، وكذا الرجل إلى عورة المرأة، والمرأة إلى عورة الرجل، حرام بالإجماع[2].

﴿ويحفظوا فروجهم﴾ أي: يحفظوها عن الزنا والفواحش، ويستروها عمن لا يحل له النظر إليها.

ودل تقييد غض الأبصار بـ (من) التبعيضية، دون حفظ الفروج، على وجود شيء من السعة في النظر، أما الزنا فلا رخصة فيه أبداً، فالنظرة الأولى التي لا يمكن الاحتراز عنها، لا مؤاخذة عليها، وفي الحديث الشريف عن بريدة أن رسول الله ﷺ قال لعلي: «يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة»[3].

وعن جرير بن عبدالله قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءة فأمرني أن أصرف بصري[4].

فالنظرة الأولى لا تُملك، فلا تدخل تحت خطاب التكليف، إذ وقوعها لا يتأتىٰ أن يكون مقصوداً، فلا تكون مكتسبة، فلا يكون مكلفاً بها، فوجب التبعيض لذلك ولم يقل ذلك في الفرج؛ لأنها تُملك، ولقد كره الشعبي أن يديم الرجل النظر إلى ابنته أو أمه أو أخته، وزمانه خير من زماننا هذا، وحرام على الرجل أن ينظر إلى ذاتِ محرمة نظر شهوة

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الحيض (٣٣٨).

(٢) فتح الباري ٩/ ٣٣٨.

(٣) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن غريب. الترغيب والترهيب ٣/ ٣٥.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الآداب (٢١٥٩).

يرددها[1].

وأشارت الآية بتقديم غض الأبصار على حفظ الفروج، إلى خطورة النظر المحرم، وأنه بريد الزنا ورائد الفساد، أكد ذلك الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك كله ويكذبه»[2].

وقوله: «أدرك ذلك لا محالة» لا يعني الإجبار، وتجريد الإنسان عن كسبه واختياره، وكل ما كتبه الله على الآدمي، فهو قد سبق في علمه تعالى، والإنسان لا يعلم ما كتبه تعالى عليه، وهو مكلف بما أمره تعالى وشرع له، وله في ذلك كسب واختيار يسأله الله عنه، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام في نهاية الحديث: «والنفس تتمنى وتشتهي».

﴿ذلك أزكى لهم﴾ أي: الغض من الأبصار وحفظ الفروج، أطهر لنفوسهم ومجتمعاتهم من دنس الفواحش، وآفات الزنا وأضراره الصحية والخلقية والاجتماعية.

﴿إن الله خبير بما يصنعون﴾ [٣٠] فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم ومقاصدهم، فليكونوا على حذر منه تعالى في جميع تصرفاتهم.

وأظهرت الآيات خطورة هذه الأحكام وأهميتها في حياة الناس رجالاً ونساء، فكررت الخطاب في حق النساء، مع أنهن يدخلن في

---

(١) تفسير القرطبي ١٢/ ٢٢٣.
(٢) صحيح البخاري، كتاب الاستئذان (٦٣٤٣).

الخطاب الأول دخولاً ضمنياً.

﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن﴾ أي: فهن في هذا مكلفات كالرجال، بغض الأبصار وحفظ الفروج.

تحريم كشف مواضع الزينة

ثم شرعت الآيات أحكاماً خاصة بالنساء، كلفن بها، لأنهن موضع الفتنة، فقالت:

﴿ولا يبدين زينتهن﴾ أي: لا يكشفن ويظهرن ما يتزين به من أنواع الزينة، أمام الأجانب عنهن، فالمراد تحريم كشف مواضع الزينة من جسد المرأة.

والزينة حلال للمرأة، تلبية لفطرتها، فكل أنثى مولعة بأن تكون جميلة، وأن تبدو جميلة.. والإسلام لا يقاوم هذه الرغبة الفطرية، ولكنه ينظمها ويضبطها، ويجعلها تتبلور في الاتجاه بها إلى رجل واحد، هو شريك الحياة، يطلع منها على ما لا يطلع أحد سواه، ويشترك معه في الاطلاع على بعضها المحارم المذكورون في الآية بعد، ممن لا يثير شهواتهم ذلك الاطلاع[1].

﴿إلا ما ظهر منها﴾ أي: إلا ما ظهر منها بنفسه، عند مزاولة المرأة لأمور ضرورية لا بد لها منها، كالخاتم في إصبع اليد، وأطراف الثياب، فإن في سترها حرجاً كبيراً يشق عليها.

واختلف العلماء في الزينة المستثناة ومواضعها، قال سعيد بن جبير والضحاك والأوزاعي: الوجه والكفان، وقال ابن مسعود: هي

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥١٢.

الثياب، وقال ابن عباس: هي الكحل والخاتم والخضاب في الكف، فما كان من الزينة الظاهرة يجوز للرجل الأجنبي النظر إليه للضرورة، مثل تحمل الشهادة ونحوه من الضرورات، إذا لم يخف فتنة وشهوة، فإن خاف شيئاً من ذلك غض البصر[1].

ثم أضافت الآية بعد تقرير الحكم، بيان كيفية إخفاء مواضع الزينة، فقالت:

﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ أي: عليهن أن يرسلن خمرهن إلى جيوبهن، ستراً لما يبدو من أعناقهن وصدورهن.

والخمر جمع خمار، وهو ما تغطي به المرأة رأسها.

والجيوب جمع جيب، وهو فتحة الصدر.

وكان النساء في الجاهلية يسدلن خمرهن من خلفهن، فتبدو صدورهن ونحورهن، فأمر الله المؤمنات بمخالفتهن، وإرسال خمرهن على صدورهن لسترها.

ووصفت السيدة عائشة رضي الله عنها مبادرة النساء إلى تنفيذ أمر الله تعالى، فقالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها[2].

وقولها: «مروطهن» جمع مرط، وهو الإزار.

قولها: «فاختمرن» أي: غطين وجوههن، وصفة ذلك أن تضع الخمار على رأسها، وترميه من الجانب الأيمن على العاتق الأيسر، وهو

---

(١) تفسير الخازن ٤/ ٣٨٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٤٧٥٨).

التقنع. وأخرج الحديث النسائي بلفظ: أخذ النساء[1].

ثم كررت الآيات النهي عن إظهار الزينة، تأكيداً للحكم وإظهاراً لخطورته وأهميته، وأضافت إليه بيان من يحل للمرأة أن تظهر لهم زينتها.

﴿ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن﴾ أي: لأزواجهن، فإنهم المقصودون بالزينة، فللزوج أن ينظر إلى جميع بدن زوجته، ومن السنة أن تتزين المرأة لزوجها.

﴿أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن﴾ فهؤلاء هم المحارم الذين يجوز للمرأة إظهار زينتها أمامهم، لكثرة المخالطة لهم، وقلة توقع الفتنة من قبلهم، فلهم أن ينظروا منهن ما يبدو عند المهنة والخدمة، وأشارت الآية بسكوتها عن ذكر الأعمام والأخوال، مع أنهم من المحارم، إلى أن الأحوط أن يتسترن عنهم؛ حذراً من أن يصفوهن لأبنائهم[2].

ونبه القرطبي رحمه الله إلى أمر هام، وهو أن هؤلاء المحارم، وإن سوى سبحانه بينهم في إبداء الزينة، ولكن تختلف مراتبهم بحسب ما في نفوس البشر، فلا مرية أن كشف الأب والأخ على المرأة أحوط من كشف ولد زوجها، وتختلف مراتب ما يبدي لهم، فيبدي للأب ما لا يجوز إبداؤه لولد الزوج[3].

---

(١) فتح الباري ٨/ ٤٩٠.
(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ١٧٠.
(٣) تفسير القرطبي ١٢/ ٢٣٢.

﴿أو نسائهن﴾ أي: المؤمنات، فإن الكوافر لا يتحرجن أن يصفنهن للرجال، فهن في إبداء الزينة كالرجال الأجانب، وإلى هذا ذهب أكثر السلف، وقد منع النبي ﷺ المرأة أن تصف لزوجها مفاتن غيرها من النساء(١). ففي الحديث الشريف عن عبدالله بن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها، كأنه ينظر إليها»(٢).

وذهب بعضهم إلى أن المراد بقوله ﴿أو نسائهن﴾ جميع النساء، واحتجوا بما ورد في بعض الأحاديث الصحيحة، من دخول بعض الذميات على أمهات المؤمنين، وحملوا قول السلف على الاستحباب، وهذا القول أرفق بالناس اليوم، فإنه لا يكاد يمكن احتجاب المسلمات عن الكافرات(٣).

﴿أو ما ملكت أيمانهن﴾ أي: ملكاً صحيحاً مشروعاً، فالعبد المملوك محرم على سيدته، فلها أن تبدي زينتها له إذا أمنت الفتنة.

وذهب بعضهم إلى أن المراد الإماء المملوكات، أما العبيد فهم كالأجانب، وعلى المرأة أن تستتر عنهم، ولا شك أن هذا الرأي أحوط.

﴿أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال﴾ وهم الشيوخ الطاعنون في السن، الذين فنيت شهواتهم، يتبعون النساء ويدخلون عليهن ليصيبوا من فضل الطعام، لا همة لهم إلا ذلك، ولا حاجة لهم في

---

(١) فتح الباري ٩/ ٣٣٨.
(٢) صحيح البخاري، كتاب النكاح (٥٢٤٠).
(٣) روح المعاني ١٨/ ١٤٣.

النساء، فإن صدر من أحدهم ما يدل على تعلقه بالنساء وميله إليهن، منع من الدخول عليهن، كما ورد في الحديث الشريف عن عائشة قالت: كان يدخل على أزواج النبي ﷺ مخنث، فكانوا يعدونه من غير أولي الإربة، قال: فدخل النبي ﷺ يوماً وهو عند بعض نسائه، وهو ينعت امرأة، قال: إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمان، فقال النبي ﷺ: «ألا أرى هذا يعرف ما ههنا، لا يدخلَنّ عليكن» قالت: فحجبوه[1].

﴿أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾ أي: الأطفال الصغار الذين لم يكشفوا على عورات النساء؛ لعدم بلوغهم حد الشهوة، أما إذا أصبح عندهم ميل إلى النظر إلى عورات النساء، فالواجب حينئذ الاحتجاب عنهم، وهذا يختلف من طفل إلى طفل، ولهذا جاء التعبير عاماً، يدل على جنس الأطفال، دون تحديد لنوع وسن.

ودل استقراء الآية لهؤلاء الأصناف من الناس، الذين يجوز أن تخالطهم المرأة، وتبدو بزينتها أمامهم، على أن غيرهم من أبناء المجتمع لا يجوز أبداً أن ينظروا إلى مواضع زينة المرأة، ولا يجوز لها أيضاً أن تكشف زينتها لهم، وهم ممنوعون من الدخول على النساء مهما كانت قرابتهم منهن؛ لأن الفتنة من جهتهم غير مأمونة، بل قد تكون أكبر وأخطر، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إياكم والدخول على النساء» فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو؟ قال: «الحمو الموت»[2].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب السلام (٢١٨١).

(٢) صحيح مسلم، كتاب السلام (٢١٧٢).

والمراد من الحمو أقارب الزوج، أخوه وأبناء عمه ونحوهم.

ومعنى «الحمو الموت» أن الخوف منه أكثر من غيره، والفتنة أكبر؛ لتمكنه من الوصول إلى المرأة والخلوة بها، من غير أن ينكر عليه أحد، بخلاف الأجنبي، وكذلك قد تتساهل المرأة بكشف زينتها أمامه، وإبداء مفاتنها له، مما يؤدي إلى الفتنة والهلاك في الدين، فجعله عليه الصلاة والسلام كهلاك الموت.

ويجب على المرأة أيضاً أن تتجنب كل أسباب الإثارة، التي تلفت الأنظار إلى مفاتنها وزينتها؛ ولهذا مضت الآية تنهى المؤمنات عن الحركات التي تعلن عن الزينة المستورة، وتهيج الشهوات الكامنة، قال تعالى:

﴿ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾ أي: ولا يضربن بأرجلهن الأرض؛ فتهتز خلاخلهن، ويؤدي ذلك إلى تنبيه الرجال ليتأملوا فيهن، وكان النساء يضعن الخلاخل في أقدامهن، وقد دأب كثير منهن على استعمال العطور والطيوب، ذات الروائح النفاذة، التي تؤدي إلى جلب أنظار الرجال إليهن، ولهذا منع رسول الله ﷺ المرأة عن التطيب، إذا أرادت الخروج من بيتها، فقال: «إذا شهدت إحداكن العشاء، فلا تطيب تلك الليلة» وفي رواية: «إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيباً»[١].

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كل عين زانية، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس كذا وكذا، يعني زانية»[٢].

(١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة (٤٤٣).
(٢) رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح. الترغيب والترهيب ٣/ ٨٤.

ثم توج الله تعالى ذيل الآية، بدعوة جميع المؤمنين والمؤمنات إلى التوبة والإنابة، مما يدركهم من ضعف أمام ذلك الميل الفطري الغريزي، فقد لا يتمكنون من ضبطه بالضوابط الشرعية، إلا إذا استشعروا رقابة الله تعالى عليهم، ومسؤوليتهم الكاملة أمامه يوم القيامة، ذلك هو الأسلوب الأمثل لتربية النفوس وتهذيبها، وجعلها تلتزم بالأحكام الشرعية، التي توصلها إلى الفلاح في الدنيا، والبقاء في النعيم السرمدي في الآخرة.

﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ [٣١] أي: توبوا إلى الله جميعاً رجاء أن تفلحوا، أو: توبوا إلى الله جميعاً لأجل أن تفلحوا في الدنيا وتنالوا الفلاح في الآخرة.

ومر معنا أن من صفات المؤمنين المفلحين ﴿والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغىٰ وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾(١).

الحث على الزواج وتحريم البغاء

ولما كان الزواج خير وسيلة عملية لمنع الزنا، وبقاء النسل وحفظ الأنساب، شجعت الآيات عليه بقوله تعالى:

﴿وأنكحوا الأيامى منكم﴾ أي: زوجوا من تأيم منكم من الرجال والنساء الأحرار، والأيامى جمع أيّم، وهو غير المتزوج، ويطلق على الذكر والأنثى.

﴿والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾ أي: وزوجوا أيضاً الصالحين

---

(١) المؤمنون. الآيات ٥ ـ ٧.

من عبيدكم وإمائكم، فالزواج حق من حقوق الإنسان، سواء كان حراً أو عبداً، ذكراً أو أنثى، وعلى أولياء الأمر في المجتمع أن يعملوا على تيسير وتسهيل الزواج وإزاحة العقبات من وجه مريديه.

ولما كانت العقبة المادية هي المعوق الأول للزواج، حث سبحانه على تجاوزها وعدم اعتبارها عائقاً، فقال:

﴿إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾ أي: لا ينبغي أن يكون فقر الخاطب أو المخطوبة مانعاً من الزواج، فإن فضله تعالى واسع، وهذا وعد منه تعالى بتوسعه الرزق على مريدي الزواج، وكان كثير من السلف يرون أن الزواج من أسباب سعة الرزق والغنى. قال ابن عباس: رغبهم الله في التزويج، وأمر به الأحرار والعبيد، ووعدهم عليه الغنى.

وعن ابن مسعود قال: التمسوا الغنى في النكاح، يقول الله: ﴿إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾[1].

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح، ينجز لكم ما وعدكم من الغنى[2].

وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله»[3].

﴿والله واسع عليم﴾ [٣٢] أي: والله غني ذو سعة، عليم بأحوال عباده وما يصلح لهم.

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٩٨.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٦٠٣.

(٣) رواه أحمد وأصحاب السنن.

ثم أرشدت الآيات الذين لم تتيسر لهم سبل الزواج إلى الصبر والتعفف حتى ييسره سبحانه لهم:

﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله﴾ أي: ليجتهدوا في العفة وقمع الشهوة، حتى يغنيهم الله تعالى من فضله، وييسر لهم أسباب الزواج، كما جاء في الحديث الشريف عن عبدالله بن مسعود قال: كنا مع النبي ﷺ شباباً، لا نجد شيئاً، فقال لنا رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»[1].

ويكون الاستعفاف أيضاً بغض البصر عن المحرمات، والبعد عن أسباب الإثارة ومواطنها، كما سبق في قوله تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم﴾.

وكما شجعت الآيات على تيسير سبل الزواج لمريديه، شجعت أيضاً على تيسير سبل الحياة الحرة الكريمة للأرقاء الذين يتطلعون إلى الحرية، فشرعت عقد المكاتبة بين العبد وسيده، يسمح فيه للعبد بالاكتساب، حتى يؤدي مبلغاً معيناً لسيده، فيصبح بعده حراً.

﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾ أي: والذين يريدون الحرية من عبيدكم، فكاتبوهم إن علمتم منهم أمانة وصلاحاً.

﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾ أي: وأعينوهم بإعطائهم من أموال الزكاة، لوفاء ما عليهم من مال المكاتبة، فقد شرع الله تعالى في

---

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح (٥٠٦٦).

مصارف الزكاة سهماً لفك الرقاب فقال: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾[١].

ومهدت الآيات بهذا التحريم إلى منع استغلال العبيد والإماء، في نشر الفواحش والزنا في المجتمع، كما كان عليه الحال في الجاهلية، إذ كان بعضهم يكره الجواري المملوكات على الزنا، ليكسب من وراء ذلك المال، فأنزلَ الله قوله الكريم:

﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً﴾ أي: أردن تعففاً عن الزنا، وإنما قيده بهذا الشرط؛ لأن الإكراه لا يكون إلا مع إرادة التحصن، فآمر المطيعة بالبغاء لا يسمى مكرهاً، ولا أمره إكراهاً، ولأنها نزلت على سبب، فوقع النهي على تلك الصفة[٢].

﴿لتبتغوا عرض الحياة الدنيا﴾ أي: لتطلبوا بذلك عرض الحياة الدنيا، من كسبهن المال.

قال ابن كثير رحمه الله: كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة، أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت، فلما جاء الإسلام، نهى الله المؤمنين عن ذلك، وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة في شأن عبدالله بن أبي ابن سلول، فإنه كان له إماء، فكان يكرههن على البغاء، طلباً لخراجهن، ورغبة في أولادهن، ورياسة منه فيما يزعم[٣].

---

(١) التوبة: الآية ٦٠.

(٢) تفسير النسفي ٤/ ٣٩٥.

(٣) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٠٤.

وعن جابر بن عبدالله، أن جارية لعبدالله بن أبي ابن سلول يقال لها مُسيكة، وأخرى يقال لها أُميمة، فكان يكرههما على الزنا، فشكتا ذلك إلى النبي ﷺ، فأنزل الله ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء﴾[1].

﴿ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم﴾ [٣٣] أي: يغفر سبحانه لهن؛ لأنهن مكرهات، لا للمكرِه، إلا إذا تاب وأناب.

ثم عقب الله تعالى على هذه الأحكام والآداب، بقوله الكريم:

﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات﴾ أي: مبينات كل ما تحتاجون إليه من الأحكام والآداب، التي تزكي نفوسكم وتطهر مجتمعاتكم، فالتزموا بها ولا تنصرفوا عنها إلى غيرها، فهي أحكام لازمة لكم، مفروضة عليكم، كما قال تعالى في أول آيات السورة: ﴿سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون﴾.

﴿ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم﴾ أي: وأنزلنا إليكم أيضاً قصة عجيبة، من أمثال قصص الذين من قبلكم، والمراد بها براءة السيدة عائشة رضي الله عنها مما رماها به أهل الإفك، أظهر الله براءتها كما أظهر من قبل براءة يوسف عليه السلام، وبراءة مريم، فهذه من أمثال من قبلنا، بينما براءة السيدة عائشة من المثل الذي أنزل إلينا.

﴿وموعظة للمتقين﴾ [٣٤] أي: وأنزلنا موعظة ينتفع بها المتقون، وأفاد تخصيصهم بالذكر مع شمول الموعظة للكل، حث المخاطبين على الاعتناء بالتقوى، والانتظام في سلك المتقين، ببيان أنهم المغتنمون لآثار الآيات، المقتبسون من أنوارها[2].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب التفسير (٣٠٢٩).

(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ١٧٥.

الفصل الثاني

الهداية

النور والهداية

وبعد أن بينت آيات سورة النور هذه الأحكام، وشرعت ما مر معنا من التشريعات الاجتماعية، وبينت ضرورتها للناس، لتزكية نفوسهم وتطهير مجتمعاتهم، أضافت بياناً آخر، يحتاج إليه الناس أيضاً، كحاجتهم إلى بيان الأحكام أو أشد، وهو الهداية والتوفيق إلى التزام هذه الأحكام وتطبيقها، على مستوى الأفراد والمجتمعات، فالمعرفة وحدها لا تكفي، ولا بد أن يكون معها انقياد واستسلام والتزام، ولما كانت الهداية من الأمور المعنوية غير المحسوسة، المستمدة من الله تعالى، قربتها الآيات إلى الأذهان، فضربت لها هذا المثال الرائع، بقوله تعالى:

﴿الله نور السموات والأرض﴾ أي: الله منور السماوات والأرض، نورهما بالأنوار الحسية التي خلقها فيهما، كالأنوار الطبيعية المنبعثة من الشموس والنجوم، والأنوار الاصطناعية التي استخرجها الإنسان، بعد أن هداه الله تعالى إلى مصادرها.

ونورهما أيضاً بالأنوار المعنوية، وهي أنوار الوحي والتشريع والعلم والمعرفة، وأنوار الهداية والتوفيق للسير على طريق الوحي والتشريع.

ونورهما أيضاً بالسنن الكونية المبثوثة فيهما، من أصغر

الذرات إلى أضخم المجرات، والتي يدبر الله تعالى بها أمر جميع المكونات، فلا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بمشيئته وقدرته جل وعلا.

قال الإمام الطبري رحمه الله: ﴿الله نور السموات والأرض﴾ هادي من في السماوات والأرض، فهم بنوره إلى الحق يهتدون، وبهداه من خيرة الضلالة يعتصمون.

وروى عن ابن عباس أنه قال في تفسير الآية، هادي أهل السماوات والأرض.

وقال رضي الله عنه أيضاً: مدبر السماوات والأرض.

وروى عن أنس قال: إن إلَهي يقول: نوري هداي[1].

ولا شك أن الهداية نور، وأن الكفر ظلمة، أكد تعالى هذا في آيات كثيرة، منها قوله الكريم: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[2].

ومنها قوله الكريم : ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين﴾[3].

ومنها أيضاً: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ١٠٥.
(٢) البقرة: الآية ٢٥٧.
(٣) الزمر: الآية ٢٢.

ما كانوا يعملون﴾[1].

ويؤكده أيضاً قوله تعالى الآتي: ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾.

ولما كان القرآن الكريم كتاب تشريع وهداية، سماه الله تعالى نوراً، فقال: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾[2].

وقال أيضاً: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾[3].

والنبي ﷺ نور أيضاً، لأنه يهدي إلى دين الله تعالى وصراطه المستقيم، قال تعالى: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾[4].

كما أنه عليه الصلاة والسلام سراج؛ لأنه يبين دين الله تعالى، وينير للناس طريق الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾[5].

ومهما قلنا في النور المحسوس والمعنوي، فهو حادث مخلوق، كما قال سبحانه: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل

---

(١) الأنعام: الآية ١٢٢.

(٢) الشورى: الآية ٥٢.

(٣) النساء: الآية ١٧٤.

(٤) المائدة: الآيات ١٥ ـ ١٦.

(٥) الأحزاب: الآيات ٤٥ ـ ٤٦.

الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾[1].

فهو غير الله تعالى، الذي وصف ذاته المقدسة بقوله: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[2].

لكن النور اسم من أسماء الله الحسنى، يدل على كماله جل وعلا وجماله ووحدانيته، فإن النور ظاهر بذاته مظهر لغيره، وأصل الظهور هو الوجود، كما أن أصل الخفاء هو العدم، والله سبحانه موجود بذاته، موجد لما عداه[3].

ومن دعاء النبي ﷺ وهو يتهجد بالليل: «اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لك ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض...»[4].

وأما المراد من قول رسول الله ﷺ عندما سئل: هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه»[5]، فمعناه: حجابه النور، فكيف أراه، وقد ورد هذا المعنى في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «إن الله عز وجل لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[6].

---

(١) الأنعام: الآية ١.

(٢) الشورى: الآية ١١.

(٣) تفسير البيضاوي ٤/ ٣٩٧.

(٤) صحيح البخاري، كتاب التهجد (١١٢٠).

(٥) صحيح مسلم، كتاب الإيمان (١٧٨).

(٦) صحيح مسلم، كتاب الإيمان (١٧٩).

ومر معنا في مواضع متعددة، أي من أساليب القرآن الكريم في التربية والتهذيب وتقريب المعاني، ضرب الأمثال، وتشبيه الأمور المعنوية غير المحسوسة، بأشياء محسوسة، ولهذا مثل سبحانه لأنوار هدايته المعنوية، بالأنوار المبصرة المحسوسة، الصادرة من مثل ما كانوا يعرفون من مصادر النور والإضاءة، في زمن نزول القرآن الكريم، فقال سبحانه:

﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾ أي: مثل صفة نور هداية آياته المبينات الكريمة، وأحكام دينه القويمة، كصفة مشكاة فيها مصباح.

والمشكاة: الكوة التي لا منفذ لها إلا من جهة واحدة.

﴿المصباح في زجاجة﴾ أي: المصباح موضوع في داخل زجاجة؛ لتقوية النور وتصفيته، فمن المعلوم أن الزجاج يصفي النور ويزيد في ضيائه ولمعانه؛ ولهذا شبهه سبحانه بالكوكب المتلألىء فقال:

﴿الزجاجة كأنها كوكب دري﴾ أي: متلألىء، نسبة إلى الدُر، وهي الأحجار الكريمة المتلألئة.

ويستمد هذا المصباح طاقته من زيت، من أجود أنواع الزيتون.

﴿يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية﴾ أي: تتعرض لأشعة الشمس طول النهار، فهي في أرض ظاهرة لا يحجبها عن الشمس شرق ولا غرب.

ومن المعلوم أن شجر الزيتون كلما كان تعرضه للشمس أكثر، كان زيته أجود وأضوأ، ولهذا وصفه تعالى بقوله:

﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ أي: يكاد يضيء بنفسه من غير نار؛ لشدة صفائه ولمعانه.

﴿نور على نور﴾ أي: فهو نور مضاعف، نور المصباح، وصفاء الزيت ولمعانه.

وهكذا هدايته سبحانه وتعالى، هداية مضاعفة متوالية، هداية الفطرة، وهداية الرسل والكتب، وهداية الدلائل والبراهين والحجج العقلية والنقلية، وهداية التوفيق والتثبيت، وكلها من فضله تعالى وإحسانه.

﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾ أي: يوفق سبحانه من يشاء من عباده لنور هدايته، وهو عليم بأحوالهم.

﴿ويضرب الله الأمثال﴾ أي: ويضرب الله الأمثال المحسوسة للمعاني المجردة، لكي يتفهمها الناس وينتفعوا بها.

﴿والله بكل شيء عليم﴾ [٣٥] ولهذا فإن أمثاله تامة محكمة، لا خلل فيها ولا اضطراب.

المهتـــدون

ولا بد بعد هذا المثال العجيب المتقن المحكم، أن يسأل سائل نفسه: أين هؤلاء المنتفعون بهذه الأمثال، والمهتدون بما فيها من أنوار؟ وجاء الجواب من الحكيم العليم:

﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه﴾ أي: في مساجد أمر الله تعالى ببنائها وتعظيمها وذكره فيها، بعبادته وتلاوة آياته.

﴿يسبح له فيها بالغدو والآصال[٣٦] رجال﴾ أي: يصلي لله تعالى فيها في أول النهار وآخره رجال.

وأصل التسبيح تنزيه الله تعالى وتقديسه، ويطلق أيضاً على الدعاء والصلاة، والمراد هنا الصلوات المفروضة في أول النهار وآخره.

ورفع المساجد وتعظيمها بعبادة الله تعالى فيها، وبتطهيرها من الأنجاس والأقذار، وصيانتها عن الروائح الكريهة والأقوال السيئة، وعن الأمور الدنيوية كالبيع والشراء، وفي الحديث الشريف عن أنس قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ، إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مه مه. قال رسول الله ﷺ: «لا تزرموه دعوه» فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله عزّ وجلّ والصلاة وقراءة القرآن» فأمر رجلاً من القوم، فجاء بدلو من ماء فشنه عليه[1].

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من سمع رجلاً ينشد ضالة في المسجد فليقل: لا ردها الله عليك، فإن المساجد لم تبن لهذا»[2].

وعن جابر أن النبي ﷺ قال: «من أكل من هذه البقلة ـ الثوم ـ وقال مرة: من أكل البصل والثوم والكراث ـ فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»[3].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الطهارة (٢٨٥).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الصلاة (٥٦٨).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الصلاة (٥٦٤).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور، وأن تنظف وتطيب[1].

وقوله تعالى ﴿رجال﴾ فيه إشعار بهممهم السامية، ونياتهم وعزائمهم العالية، التي بها صاروا عماراً للمساجد، التي هي بيوت الله في أرضه، ومواطن عبادته وشكره، وتوحيده وتنزيهه، كما قال تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾[2]، وأما النساء فصلاتهن في بيوتهن أفضل لهن[3].

وفي الحديث الشريف عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا تمنعوا نساءكم المساجد، وبيوتهن خير لهن»[4].

﴿لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ أي: لا تشغلهم عن طاعة ربهم وعبادته الأمور الدنيوية والمادية؛ لأن قلوبهم استنارت بنور هدايته تعالى، فتطلعت إلى رضوانه وثوابه، ولهذا فإنهم يقدمون طاعته تعالى ومراده ومحبته على مرادهم ومحبتهم.

وتخصيص التجارة والبيع بالذكر؛ لأنهما أقوى الصوارف التي تصرف الإنسان عن عبادة ربه، وتشغله عن ذكره، أكد ذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر

---

(١) رواه أحمد والترمذي وقال صحيح. الترغيب والترهيب ١/ ١٩٩.
(٢) الأحزاب: الآية ٢٣.
(٣) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٠٩.
(٤) رواه أبو داود، وله شواهد كثيرة.

الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾[1].

وقال أيضاً: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾[2].

﴿يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾ [٣٧] أي: يصدقون بيوم القيامة، وما فيه من حساب وجزاء، فهم يخافون من هذا اليوم الذي تضطرب فيه القلوب والأبصار؛ من شدة أهواله وأفزاعه.

ودلت الآية على أن الإيمان بيوم القيامة، وما فيه من المسؤولية أمام الله تعالى، له أثر كبير في تربية الإنسان وتهذيبه، وجعله يضبط تصرفاته وسلوكه بميزان الأحكام الشرعية، فهي النور التي تضيء له الطريق المستقيم الوسط، الذي يوصله إلى الفوز برضوان الله تعالى ويحقق له مطالبه الدنيوية المشروعة.

﴿ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله﴾ أي: هؤلاء الذين استناروا بأنوار هدايته، هم الذين يتقبل الله يوم القيامة أعمالهم، فيثيبهم عليها ثواب أحسن عمل فيها، ويضاعفه لهم بفضله وإحسانه.

﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ [٣٨] أي: بغير عد وحد، لكمال جوده تعالى، وسعة فضله وإحسانه.

الضـالـون

هؤلاء هم المهتدون بنور الله تعالى، المنتفعون بآياته، الملتزمون بأحكام شريعته، وأما الضالون المحجوبون عن أنوار هدايته، فإنهم

---

(١) الجمعة: الآية ٩.

(٢) المنافقون: الآية ٩.

يضربون في بيداء الحياة على غير نور وهدى، دون أن يدركوا حكمة وجودهم وجوهر حياتهم، يصرفون كل طاقاتهم إلى الدنيا، منهمكين بشهواتها، فهم في عطش دائم متجدد، كلما حاولوا إطفاء سعار الشهوات المتأجج في نفوسهم، ازداد عطشهم واشتد سعارهم، فيزيدون في سعيهم ويضاعفون جهدهم، فهم طول حياتهم يركضون ويلهثون وراء برق خلب خادع وسراب كاذب، حتى تنتهي أعمارهم وتحين آجالهم، ولن تجد مثلاً لواقع هؤلاء الناس أبلغ وأحكم من قوله تعالى فيهم:

﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة﴾ أي: أعمالهم في الدنيا وسعيهم لها، كسراب في أرض منبسطة مستوية.

والسراب ما يراه المسافر في الفلوات من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة، فيظن أنه ماء يسرب، أي يجري.

﴿يحسبه الظمآن ماءً﴾ أي: يظنه الظمآن ماء، فيسعى إليه راكضاً لاهثاً،

﴿حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾ أي: لم يجده شيئاً مما ظنه، فما أشد حسرته! وما أعظم لوعته! ضاع سعيه واشتد عطشه وخسر عمره، لأنه كان يسعى على غير نور وهدى وبصيرة، وعندما يحين أجله يسقط على طريق الحيرة والضلال، لاهثاً متحسراً متعباً مكدوداً، هذا هو حال الضالين، الذين يضربون في ظلمات الشهوات والأهواء، كما قال تعالى فيهم: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون * ساء مثلاً

القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ لأنهم أعرضوا عن نور شريعة الله تعالى، فأضلهم وحرمهم من أنوار هدايته ﴿من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾[١]، خسروا حياتهم وضاع سعيهم.

وفي نهاية المطاف، لا بد أن يتحملوا أمام الله تعالى مسؤولية حياتهم.

﴿ووجد الله عنده﴾ أي: وجد حسابه ومسؤوليته أمام الله تعالى يوم القيامة، ومهما عاش الإنسان في هذه الحياة، فإن مصيره ومآله إلى الله تعالى.

﴿فوفاه حسابه﴾ أي: حاسبه حساباً كاملاً وافياً، وهو الحساب العسير المؤدي إلى الهلاك، كما جاء في الحديث الشريف: «من نوقش الحساب هلك»[٢].

﴿والله سريع الحساب﴾ [٣٩] أي: لا يشغله حساب عن حساب، أو: والله قريب حسابه، وكل آت قريب.

ثم ساقت الآيات مثالاً آخر، لبيان شدة الظلمات المعنوية التي تحيط بعقول الضالين وقلوبهم، فتحجبهم عن رؤية أنوار الشريعة والهداية.

﴿أو كظلمات في بحر لجي﴾ أي: في بحر عميق.

﴿يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب﴾ أي: تغطيه أمواج متراكمة، فوقها سحب سوداء داكنة، حجبت النجوم وأنوارها.

---

(١) الأعراف: الآيات ١٧٥ ـ ١٧٧.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجنة (٢٨٧٦).

﴿ظلمات بعضها فوق بعض﴾ أي: هو يعيش في ظلمات داكنة متراكمة فوق بعضها، تحجبه عن أي مصدر من مصادر النور.

﴿إذا أخرج يده لم يكد يراها﴾ أي: فلا يرى أقرب الأشياء منه، حتى أجزاءه وأبعاضه القريبة منه لا يكاد يراها.

إنه مثال رائع صادق لحياة وأعمال أولئك الذين سلخوا أنفسهم عن الشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى، فهم يعيشون في حيرة وقلق واضطراب، وظلمة تغلف عقولهم ونفوسهم، تتقاذفهم أمواج شهواتهم المضطرمة في نفوسهم، وإن هذا المثال الرائع يبين شدة افتقار الإنسان إلى هداية الله تعالى وأحكام شريعته.

﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ [٤٠] أي: من لم يهده الله تعالى فلا هادي له، كما قرر ذلك في آيات كثيرة، منها قوله الكريم: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾[1].

تسبيح المخلوقات

ووضوح الأدلة وظهورها لا يكفي وحده، فلا غنى للإنسان عن هدايته تعالى بتوفيقه إلى طاعته، والحق واضح أبلج لا لبس فيه ولا غموض، ومع ذلك تجد أكثر الناس لا ينقادون للحق ولا يذعنون له، وما أكثر الأدلة الدالة على وجوده تعالى ووحدانيته، وهي مبثوثة في كل ذرة من ذرات الوجود، وفي كل خلية من خلايا النفس البشرية، ومع ذلك ترى كثيراً من الناس يكفرون بالله تعالى، ويغفلون عن عبادته وطاعته.

---

(١) الأنعام: الآية ١١٠.

ولتقرير هذه الحقيقة وتأكيدها، اتجهت آيات سورة النور، تعرض بعض هذه الدلائل بأسلوب تقريري يزيدها وضوحاً وظهوراً:

﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض﴾ أي: ألم تعلم أن الله ينزهه ويقدسه ويمجده كل مخلوقاته السماوية والأرضية؛ لأنها تدل على كمال خالقها ووحدانيته.

وقد يكون المراد حقيقة التسبيح، فلكل مخلوق حاله الذي يسبح الله تعالى فيه، كما قال سبحانه: ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾[1].

﴿والطير صافات﴾ أي: والطير تسبح الله تعالى وتدعوه، وهي باسطة أجنحتها، طائرة في جو السماء.

﴿كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾ أي: كل مخلوق يسبح بحمد خالقه، ويدعوه بالطريقة التي هداه إليها، مما يدل على أن ما يصدر عن المخلوقات من تسبيح، لا يصدر عنها صدوراً عفوياً، بل بتعليم الله تعالى وهدايته.

فالإنسان ليس وحده في هذا الوجود، إذ معه وحوله مخلوقات كثيرة متنوعة في طبائعها وأجناسها وصورها، وكلها تسبح الله وتمجده، كما علمها وهداها جل وعلا.

﴿والله عليم بما يفعلون﴾ [٤١] أي: عليم بما يفعلون من تسبيح ودعاء وخضوع وعبادة.

---

(١) الإسراء: الآية ٤٤.

وكيف لا يكون عليماً بهم، وهو خالقهم ومالكهم، ومصيرهم إلى حكمه ومشيئته جل وعلا.

﴿ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير﴾ [٤٢].

ولعل سبب تخصيص الطير بالذكر، وهي تطير في جو السماء؛ لشدة ظهورها ووضوح أصواتها، فالآيات تعرض الأدلة الكونية الظاهرة البارزة.

جبال في الأرض والسماء

ولهذا عرضت بعد ذلك أدلة كونية أخرى، أكثر وضوحاً من سابقتها:

﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً﴾ أي: ألم تعلم أن الله يسوق سحاباً، وقد أخبرنا تعالى في موضع آخر أنه تعالى يسوقه بواسطة الرياح، التي تحمل بخار الماء إلى طبقات الجو الباردة، حيث يتكاثف بتقدير الله تعالى ومشيئته، فالرياح سبب، والله تعالى وحده خالق الأسباب والمسببات، كما قال في موضع آخر: ﴿والله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾[١].

﴿ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً﴾ أي: متراكماً بعضه فوق بعض، كما هو معلوم ومشاهد من حال سحب الأمطار.

---

(١) الروم: الآية ٤٨.

﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾ أي: ترى المطر يخرج من السحاب نازلاً إلى الأرض.

﴿وينزل من السماء من جبال فيها من برد﴾ أي: وينزل من جهة السماء من كتل مائية كبيرة ضخمة، تشبه الجبال في أشكالها وأحجامها، فيها برد.

ولا يمكن لأحد أن يدرك دقة التعبير القرآني الكريم وموضوعيته، إلا إذا حلق في الطائرة فوق كتل السحاب الهائلة، سبحان الله، ما أعظم قدرة الله! لقد رأيتها من الطائرة المحلقة فوق جبال الألب، كتلاً هائلة ذات قمم مرتفعة ووديان سحيقة، تشبه تماماً الكتل الجبلية الكبيرة في الأرض، ولما تجاوزت الطائرة السحاب، وانكشفت القمم العالية لجبال الألب، أدركت التشابه الكبير بين الجبال المائية المحمولة بقدرة الله تعالى في جو السماء، وبين الجبال الراسية على الأرض، وأدركت أيضاً دقة التعبير القرآني الكريم وإعجازه.

﴿فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء﴾ مما يدل على أن إرادته تعالى تامة، نافذة في ذرات الموجودات، فما من قطرة ماء أو حبة برد، تتحرك في جو السماء أو تنزل إلى الأرض، إلا بقدرته تعالى ومشيئته.

﴿يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾ [٤٣] أي: يكاد ضوء برق السحاب يذهب بالأبصار، لشدته وسرعة لمعانه، كما قال سبحانه: ﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير﴾[١].

---

(١) البقرة: الآية ٢٠.

﴿يقلب الله الليل والنهار﴾ أي: يجعلهما يتعاقبان بنظام دقيق ثابت لا يتغير، كما في قوله سبحانه: ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار﴾[1].

﴿إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ [٤٤] أي: إن في هذه الظواهر الكونية أدلة قاطعة على وجود الخالق العظيم ووحدانيته، وكمال قدرته وباهر حكمته، لأولي العقول المفكرة المبصرة، وهي البصائر، واستعيرت الأبصار للبصائر بجامع ما بينهما من الإدراك والتمييز.

الأصل الواحد لدواب الأرض

ثم أعلنت الآيات حقيقة علمية كبيرة، ما كان أحد يعلمها عند نزول القرآن الكريم، فكشفت عن وحدة الأصل للبنية المادية، لجميع المخلوقات الحية في الأرض.

﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾ أي: الله سبحانه خلق كل المخلوقات الحية التي تدب على الأرض، من ماء.

ولم تحدد الآية ماهية هذا الماء، أهو الماء المعهود، أم هو ماء مخصوص، كما في قوله تعالى: ﴿خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب﴾[2].

ومن المعلوم أن الماء الدافق هو ماء النطفة، وهو في الحقيقة

---

(١) الزمر: الآية ٥.

(٢) الطارق: الآيات ٦ ـ ٧.

مستخلص من الأغذية التي يتغذى بها الإنسان، وهي مكونة بتقديره تعالى، بسبب الماء الذي أنزله سبحانه من السحاب، فالآية تؤكد قوله تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾[1].

فالآية تقرر أن جميع المخلوقات التي تدب على الأرض، مكونة في بنيتها المادية العضوية من أصل واحد، مع أنها متعددة الأجناس والأنواع والأشكال، ومختلفة اختلافاً كبيراً في الصفات والملكات والطبائع. . . وهذا يدل على وحدانية خالقها وكمال قدرته جل وعلا، كما قال تعالى في عالم النبات: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيـات لقوم يعقلون﴾[2].

ثم لفتت الآيات الأنظار إلى أوضح جانب من جوانب الاختلافات الكبيرة، الظاهرة والخفية بين هذه المخلوقات، وهو اختلافها في الصور والأشكال:

﴿فمنهم من يمشي على بطنه﴾ كالزواحف.
﴿ومنهم من يمشي على رجلين﴾ كالإنسان والطير.
﴿ومنهم من يمشي على أربع﴾ كالبهائم والسباع.
ويدل ذلك أيضاً على كمال قدرته وطلاقة مشيئته جل وعلا.
﴿يخلق الله ما يشاء﴾ أي: مما ذكر ومما لم يذكر.

﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ [٤٥].

فأدلة وجوده تعالى ووحدانيته، وكمال قدرته وطلاقة مشيئته،

---

(١) الأنبياء: الآية ٣٠.
(٢) الرعد: الآية ٤.

كثيرة لا تحصى، وواضحة وقريبة من أبصار الناس وبصائرهم، ومع ذلك فإن أكثر الناس كافرون، مما يدل على أنهم محتاجون إلى هداية من الله تعالى مخصوصة، هي هداية التوفيق، فهداية البيان والتوضيح التي قام بها الأنبياء والمرسلون، لا تكفي وحدها للوصول إلى الإيمان، لا بد أن يكون معها هداية التوفيق من الله تعالى، وهذا ما قرره تعالى في قوله في الآية التالية، معقباً على ما سبق ذكره من أمثال وأحكام وتشريع وأدلة وبراهين.

﴿لقد أنزلنا آيات مبينات﴾ أي: موضحات للأحكام والأدلة والبراهين.

وهذه هي الآية الثالثة في السورة، التي قرر تعالى فيها هذا المعنى، ثم ختمها بما يتناسب مع سياق الآيات فقال:

﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ [٤٦].

وينبغي علينا أن نتذكر هنا أنه تعالى عليم حكيم، وهو أعلم حيث يجعل هدايته، كما قال سبحانه: ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين﴾[١].

وقال أيضاً: ﴿قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾[٢]، وسيأتي قريباً قوله تعالى: ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾ ولهذا فإن على الدعاة إلى الله تعالى ألا ييأسوا من هداية الناس، إن أعرضوا عنهم في أول الأمر، بل عليهم أن يلحوا في الدعوة ويكرروا عرضها بأساليب جديدة، لأنهم لا يعلمون متى تدرك هؤلاء الناس رحمته تعالى وهدايته.

---

(١) البقرة: الآية ٢٦.

(٢) الرعد: الآية ٢٦.

المعرضون عن أحكام الشريعة الإسلامية

إن كثيراً من الناس تحيط بهم أنوار الهداية من كل جانب، ومع ذلك أعرضوا ولم يهتدوا؛ لأنهم حرموا من توفيق الله تعالى وهدايته، وأوضح نموذج واقعي لأمثال هؤلاء الناس المنافقون، فإن من أبرز صفاتهم أنهم لا ينقادون للحق، ويرفضون تحكيم شريعته تعالى، ولا يرضون بأحكامها البينات، إلا إذا كان حكمها في صالحهم.

﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا﴾ أي: وأطعنا الله والرسول في كل ما شرعا من أحكام.

وهي مجرد دعوى، يعلنونها بألسنتهم، يظهر كذبها عندما يدعون إلى تحكيم شريعة الله.

﴿ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك﴾ أي: ثم يعرض فريق منهم عن قبول حكم الله ورسوله، من بعد ما صدر عنهم ما صدر من ادعاء الإيمان بالله وبالرسول عليه السلام وإعلان الطاعة لهما، والانقياد لأحكامهما.

﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ [٤٧] أي: وما أولئك المدعين للإيمان بالمؤمنين حقاً.

فالآية تنفي عنهم الإيمان نفياً قاطعاً، وهي تشير إليهم بإشارة ﴿أولئك﴾ للإشعار ببعد منزلتهم بالكفر وعراقتهم فيه، فالإيمان لا يصح إلا بالانقياد الكامل ظاهراً وباطناً لأحكام شريعة الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾[١].

---

(١) النساء: الآية ٦٥.

ثم بينت الآيات كيفية إعراضهم عن تحكيم شريعة الله تعالى، بقوله:

﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون﴾ [٤٨] أي: إذا دعوا إلى تحكيم شريعته تعالى فيما شجر بينهم وبين الناس من خصومات ومنازعات، إذا فريق منهم يرفضون حكمه تعالى وحكم رسوله عليه الصلاة والسلام، إذا كان الحكم ليس لصالحهم.

وأما الفريق الآخر، فإنهم يقبلون بحكم الله ورسوله إذا كان لمصلحتهم.

﴿وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين﴾ [٤٨] أي: منقادين له راضين به، وانقياد هذا الفريق في الحقيقة، ليس انقياداً لأحكام الشريعة الإسلامية، وإنما هو انقياد لمصالحهم، فالقوم عبيد المصالح والأهواء والشهوات، جعلوها أرباباً من دون الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿أرأيت من اتخذ إلَهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾(١)، وقال أيضاً: ﴿أفرأيت من اتخذ إلَهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾(٢).

وقد وصفهم النبي ﷺ بقوله: «تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض»(٣).

وتساءلت الآيات تساؤلات إنكارية توبيخية، وهي تعرض تحليلاً نفسياً لدخائلهم.

---

(١) الفرقان: الآية ٤٣.

(٢) الجاثية: الآية ٢٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجهاد (٢٨٨٦).

﴿أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله﴾ أي: أفي قلوبهم مرض ملازم لها؟ أم عرض لهم شك في دين الله تعالى؟ أم يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم؟

فحالهم لا يخرج عن هذه الصفات الثلاث، متفرقة أو مجتمعة، وهي تدل على كفرهم، ولهذا أضربت الآية عن هذا التقسيم والتحليل، لتقرر نتيجته.

﴿بل أولئك هم الظالمون﴾ [٥٠] أي: أولئك الكاملون في الظلم، العريقون فيه.

وبهذا التقرير نفت الآيات الظلم عن الله تعالى وعن رسول الله ﷺ. والمؤمنون حقاً هم الذين يسارعون إلى تحكيم شريعته تعالى مذعنين مستسلمين.

﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾ أي: سمعنا الدعوة وبادرنا إلى الإجابة دون إبطاء ولا تردد.

﴿وأولئك هم المفلحون﴾ [٥١] أي: أولئك المسارعون إلى تحكيم شريعته تعالى هم الفائزون.

وعليهم حتى يتحقق فلاحهم أن يستقيموا على الطاعة، ويلتزموا بأحكامه تعالى في جميع أحوالهم وأوقاتهم.

﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ أي: في الحكم.

﴿ويخشى الله ويتقه﴾ أي: في سلوكه ومعاملاته.

﴿فأولئك هم الفائزون﴾ [٥٢].

طاعة المنافقين

ثم وجهت الآيات أنوارها إلى مزاعم المنافقين وادعاءاتهم، فكشفتهم وفضحتهم وبينت حقيقتهم.

﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ أي: أقسموا بالله مبالغين في القسم، باذلين فيه أقصى جهدهم، فالمنافقون يحاولون ستر نفاقهم بالأيمان الكاذبة، كما قال سبحانه فيهم: ﴿اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾(١).

وقال أيضاً: ﴿يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين﴾(٢).

﴿لئن أمرتهم ليخرجن﴾ أي: لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد، ليخرجن.

﴿قل لا تقسموا طاعة معروفة﴾ أي: قل لا تحلفوا، طاعتكم طاعة معروفة معلومة، إنما هي مجرد قول لا فعل معه، فكلما حلفتم كذبتم.

﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ [٥٣] فلا يخفى عليه شيء من سرائركم، وهو تعالى فاضحكم ومجازيكم على نفاقكم، إلا إذا صدقتم في إيمانكم، وأطعتم الله تعالى طاعة حقيقية، وتمسكتم بسنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم﴾ أي: إن تتولوا عن الطاعة فلا تضرون الرسول؛ لأنه

---

(١) المنافقون: الآية ٢.

(٢) التوبة: الآية ٦٢.

مسؤول فقط عما كلف به من تبليغ الرسالة، وعليكم أنتم مسؤولية الطاعة المستمرة، والخشية والتقوى الدائمة.

﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾ أي: إن تطيعوا الرسول عليه الصلاة والسلام تصيبوا الحق والرشد في طاعته، أو: إن تطيعوه توفقوا إلى الهدى، فطاعة الرسول ﷺ سبب للفوز بتوفيق الله تعالى وهدايته، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ [٥٤] أي: إلا التبليغ الواضح.

وقد بلغ ﷺ الرسالة على أكمل وجه وأتمه، وأشهد على ذلك أمته في خطبة حجة الوداع، فقال: «إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقون ربكم، ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب»[١].

وإنما قال ذلك عليه الصلاة والسلام، لأنه كان فرضاً عليه أن يبلغ فأشهد الله على أنه أدى ما أوجبه عليه[٢].

أضواء على مستقبل الأمة المسلمة

ففلاح الأمة المسلمة وفوزها في الدنيا والآخرة، وانتصارها وتمكينها في بقاع الأرض، كل ذلك منوط بطاعتها لربها، وتمسكها

(١) صحيح البخاري، كتاب الحج (١٧٤١).
(٢) فتح الباري ٣/٥٧٦.

بسنة رسولها عليه الصلاة والسلام، وتحكيمها لشريعتها الإسلامية، قررت ذلك الآيات الكريمة، وهي توجه أنوارها إلى المستقبل القريب والبعيد للأمة المسلمة، فتكشف سجف الزمان، وتزيح أستار الغيوب عن المستقبل القريب والبعيد، بقول علام الغيوب جل وعلا.

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ هذا وعد من الله تعالى مؤكد بالقسم، للنبي ﷺ وأمته، ليجعلهم خلفاء الأرض وحكامها، وأصحاب السلطة والقوة والعزة فيها، كما جعل من قبلهم.

والمراد من ﴿الأرض﴾ الأرض على عمومها وإطلاقها، لقوله تعالى في موضع آخر: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾[١].

وفي الحديث الشريف عن ثوبان رضي الله عنه، أن نبي الله ﷺ قال: «إن الله تعالى زوى لي الأرض، حتى رأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض»[٢].

﴿وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم﴾ أي: وليجعلن دينهم ثابتاً قوياً محفوظاً، وهو الإسلام الذي رضيه تعالى لهم ديناً، كما قال سبحانه: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾[٣].

---

(١) الأنبياء: الآية ١٠٥.
(٢) صحيح مسلم، كتاب الفتن (٢٨٨٩).
(٣) المائدة: الآية ٣.

ومعنى تمكين الدين تطبيق الشريعة الإسلامية، وإقامة العدل بين الناس، والتعاون والتكافل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما في قوله تعالى: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾[1].

﴿وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً﴾ أي: وليجعلنهم آمنين أعزاء أقوياء، بعد أن كانوا قلة خائفين من أعدائهم، كما في قوله سبحانه: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾[2].

وذكروا في سبب النزول، أن النبي ﷺ مكث عشر سنين خائفاً، يدعو إلى الله سراً وعلانية، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة، فمكث بها هو وأصحابه خائفون، يصبحون في السلاح ويمسون فيه، فقال رجل: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح؟، فقال النبي ﷺ: «لا تغبرون إلا يسيراً، حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم، محتبياً ليس فيه حديدة» فأنزل الله هذه الآية: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم﴾[3].

وقد أنجز سبحانه وتعالى وعده، ونصر نبيه وأعز دينه، فعن عدي بن حاتم قال: بينا أنا عند النبي ﷺ، إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: «يا عدي، هل رأيت الحيرة؟» قلت: لم أرها، وقد أنبئت عنها، قال: فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله ـ قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دعار طيء الذين قد سعروا

---

(١) الحج: الآية ٤١.

(٢) الأنفال: الآية ٢٦.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ١٢٢.

البلاد؟ ـ ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى». قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى بن هرمز. ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة، يطلب من يقبله منه، فلا يجد أحداً يقبله منه. وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه، وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فيقولـنَّ: ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أعطك مالاً وأفضل عليك؟ فيقول: بلى. فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم» قال عدي: سمعت النبي ﷺ يقول: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة» قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ: «يخرج ملء كفه»[(١)].

﴿يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾ أي: يعبدونني وحدي، فلا يخافون أحداً غيري. أو: يعبدونني وحدي بتحكيم ديني وشريعتي، فلا يرضون بغيرها ديناً وشريعة.

وكأن قوله تعالى: ﴿يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾ ورد مورد التعليل لاستخلاف المسلمين في الأرض، وإعزاز دينهم، فهو كقوله تعالى: ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾[(٢)].

ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك:

﴿ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ [٥٥] أي: ومن ارتد وأعرض عن الإسلام وشرعه، بعد حصول الموعود به، فأولئك

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب (٣٥٩٥).

(٢) الحج: الآية ٤٠.

المرتدون هم الفاسقون، الكاملون في الفسق ومجاوزة حدود الإسلام وأحكامه. وهو تهديد يتضمن التحذير من زوال النعم وحلول البلايا والنقم، بسبب الإعراض عن طاعة الله تعالى وتحكيم شريعته، كقوله سبحانه: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال﴾[1].

ثم بينت الآيات أسباب الثبات على الإسلام، والوقاية من الفتن، المؤدية إلى مجاوزة أحكام الشريعة الإسلامية.

﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون﴾ [٥٦] أي: افعلوا ما ذكر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والتمسك بسنة الرسول ﷺ، لعلكم ترحمون بتوفيقكم وهدايتكم، كما تقدم في قوله: ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾.

فإن طاعة الرسول ﷺ خير وسيلة لاستنزال رحمته تعالى وتوفيقه ومعونته، وسيأتي التحذير من مخالفته، وما تؤدي إليه من البلاء والفتن، عند قوله تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾.

ثم أكدت الآيات مضمون الوعيد السابق.

﴿لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض﴾ أي: لا تحسبن الذين كفروا معجزين الله تعالى عن إهلاكهم، في أي قطر من أقطار الأرض، فهم في قبضة قدرته وتحت قهر مشيئته أينما كانوا.

﴿ومأواهم النار ولبئس المصير﴾ [٥٧] أي: مأواهم ومصيرهم يوم القيامة إلى النار، وبئس المآل والقرار.

---

(١) الرعد: الآية ١١.

الاستئذان داخل البيوت

عادت الآيات في آخر سورة النور، إلى بيان الأحكام والتشريع، فألقت أضواء جديدة، وشرعت أحكاماً أخرى للاستئذان داخل البيوت، لأفراد الأسرة، وأشارت الآيات بتأخير هذه الأحكام، إلى الاتفاق والتكامل بينها وبين ما سبق من تشريع وأحكام في صدر السورة، وبينها وبين الهداية، فالتشريع والهداية جانبان متلازمان ومتكاملان، ولا غنى للإنسان عنهما.

وهذه الأحكام مستثناة من عموم ما سبق تقريره وبيانه في تشريع الاستئذان، قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات﴾ أي: يجب على المماليك والأطفال الذين لم يصلوا إلى سن البلوغ، أن يستأذنوا عند الدخول عليكم، في ثلاثة أوقات من كل يوم، وهي:

﴿من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء﴾ وهي الأوقات التي يتجرد الإنسان فيها عادة من ثيابه، أو يتخفف من بعضها للنوم والراحة، ولهذا وصفها تعالى بقوله:

﴿ثلاث عورات لكم﴾ أي: هي ثلاث أوقات يختل فيها ستر عورتكم، ويمكن أن تنكشف فيها، ويمكن أيضاً أن يكون الزوجان فيها في حال لا يريدان لأحد أن يراهما عليه.

﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض﴾ أي: ليس عليكم ولا عليهم إثم في الدخول بغير استئذان، في غير هذه الأوقات الثلاثة؛ لأنكم جميعاً محتاجون إلى الطواف

والتنقل داخل البيت، فتشريع الاستئذان في كل الأوقات يؤدي إلى الحرج، والإسلام دين الرحمة واليسر، لا حرج ولا مشقة في أحكام شريعته.

وتوجيه الآية خطابها إلى المكلفين من الأحرار البالغين، يدل على أنهم مسؤولون عن هذه الأحكام، فعليهم أن يعلّموها للخدم والصغار، ويحملوهم على تطبيقها بالتربية والتأديب.

﴿كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم﴾ [٥٨] أي: هكذا يبين الله لكم ما تحتاجون من أحكام وتشريعات، وهو سبحانه عليم بمصالح عباده، حكيم في كل ما يشرع لهم.

﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم﴾ أي: إذا أصبح الأطفال بالغين، فعليهم أن يستأذنوا عند الدخول في جميع الأوقات؛ إذا وصلوا إلى سن التكليف، وأصبحوا مكلفين بجميع أحكام البالغين قبلهم، فمرحلة الطفولة تنتهي بالبلوغ، وهي مرحلة العبث واللعب والحركة الدائمة، واتفق العلماء على أن الصبي إذا احتلم، والبنت إذا حاضت، فقد بلغا، وإذا تأخر احتلام الصبي وحيض البنت، فإنهما يصبحان بالغين حكماً إذا تم لهما من العمر خمس عشرة سنة، عند جمهور العلماء.

﴿كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم﴾ [٥٩] كرره تعالى مرة ثانية، تأكيداً لهذه الأحكام، وإظهاراً لأهميتها وضرورتها.

حجاب العجائز

واستثنت الآيات أيضاً من وجوب ستر مواضع الزينة، التي سبق بيانها، النساء العجائز.

﴿والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً﴾ أي: والعجز اللواتي ضعفت حركتهن بسبب عجز الشيخوخة والهرم، واللاتي لا يطمع الرجال فيهن، ولا رغبة لهن في النكاح.

وأما من كانت فيها بقية جمال، وهي محل شهوة، فلا تدخل في حكم الآية(١).

﴿فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن﴾ أي: ليس عليهن إثم وذنب إذا وضعن ثيابهن الظاهرة، كالجلباب والرداء والقناع.

﴿غير متبرجات بزينة﴾ أي: بشرط ألا يقصدن بوضع هذه الثياب، التبرج وإظهار الزينة. والتبرج هو التكلف لإظهار ما يخفى من مواضع الزينة، يقال: سفينة بارجة: لا غطاء عليها.

﴿وأن يستعففن خير لهن﴾ أي: وخير لهن أن يطلبن العفة بالتستر، وترك وضع شيء من الثياب، فذلك أبعد عن التهمة والريبة، ولكل ساقطة لاقطة.

وإذا كان الاستعفاف بعدم وضع الثياب أحوط في حق العجائز، اللواتي لا زينة لهن، فكيف حال غيرهن من النساء، الكواعب والشابات؟ فالفتنة في النساء كبيرة وعظيمة، والواجب عليهن دفع مفسدتها بالتستر والتعفف، والبعد عن مخالطة الرجال غير المحارم ما استطعن، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء»(٢).

﴿ والله سميع عليم ﴾ [٦٠] أي: سميع لأقوالهن، عليم

---

(١) تفسير الخازن ٤/ ١٩٧.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الذكر (٢٧٤٠).

بأحوالهن، ولا يخفى ما فيه من تحذير ووعيد.

حرمة الأموال في البيوت

دلت آيات الاستئذان على أن للبيوت حرمة لا يجوز انتهاكها، ولا تخلو البيوت عادة من طعام وشراب، فهل تمتد هذه الحرمة إلى الطعام والشراب، فلا يجوز لمن دخل هذه البيوت أن يأكل مما فيها حتى يستأذن من صاحبها؟ هذا ما تكفلت الآية التالية ببيانه وتوضيحه.

﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾ أي: لا إثم على الأعمى والأعرج والمريض، وهم أصحاب الأعذار الذين يجوز لهم التخلف عن الخروج إلى الجهاد، وكان المجاهدون إذا خرجوا إلى الجهاد، يضعون مفاتيح بيوتهم عند المتخلفين من أصحاب الأعذار، ويأذنون لهم بدخولها وتفقدها في أثناء غيابهم، فكان هؤلاء يتحرجون عن الأكل مما يجدون فيها من طعام، فأنزل الله هذه الآية الكريمة، رافعة للحرج عنهم.

ثم أضافت الآية إلى هؤلاء في الحكم، الأقارب والأصدقاء.

﴿ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم﴾ أي: وكما لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوتكم، كذلك لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوت أقاربكم المحارم، وهم الطبقة الأولى من الأقارب الذين يحرم الزواج منهم.

وهذه من الآيات التي استدل بها الفقهاء، الذين يوجبون نفقة

الأقارب بعضهم على بعض، كما هو مذهب أبي حنيفة وأحمد في المشهور عنهما[1].

﴿أو ما ملكتم مفاتحه﴾ أي: ولكم أن تأكلوا أيضاً مما ملكتم مفاتحه، كالوكيل والخازن بدون أجر، فإن بأجر فلا يجوز لهما الأكل إلا بإذن صريح من صاحب الطعام.

﴿أو صديقكم﴾ أي: ولكم أن تأكلوا من بيوت أصدقائكم، وإن لم يكن بينكم وبينهم قرابة نسبية، فإنهم أرضى بالتبسط وأسر به من كثير من الأقرباء.

وهذا فيما إذا علم رضا صاحب البيت، بصريح الإذن أو بقرينة دالة عليه، ولذلك خصص هؤلاء بالذكر، لاعتيادهم التبسط فيما بينهم[2]. إذ الأصل التحريم والمنع، وللأموال في الإسلام حرمة كحرمة الأنفس والأعراض، وقد مرّ قريباً قول النبي ﷺ: «فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام» وفي الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال: «كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه»[3].

واستطردت الآية إلى بيان بعض الأحكام المناسبة لموضوعها، فرفعت حرج بعض العادات والتقاليد التي كانت سائدة بينهم.

﴿ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً﴾ أي: لا حرج عليكم في الأكل مجتمعين أو متفرقين، وكان بعض أحياء العرب لا يأكل أحدهم وحده، ولا يأكل إلا مع غيره، فوسع الله عليهم، وأذن

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٦١٩.
(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ١٩٦.
(٣) صحيح مسلم، كتاب البر (٢٥٦٤).

لهم بالأكل مجتمعين أو متفرقين.

﴿فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم﴾ أي: فابدؤوا بالسلام على أهلها، الذين هم منكم ديناً وقرابة.

أو: بيوتاً فارغة فقولوا: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين[1].

﴿تحية من عند الله مباركة طيبة﴾ أي: يكن سلامكم تحية ثابتة مشروعة، شرعها الله تعالى، مباركة الثواب طيبة الأثر، ففي الحديث الشريف عن أنس رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بني إذا دخلت على أهلك فسلم، يكن بركة عليك وعلى أهل بيتك»[2].

﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ [٦١] أي: تتفهمون ما فيها من شرائع وأحكام وحكم، وتعملون بموجبها.

استئذان الرسول ﷺ وطاعته

توج الله تعالى خاتمة سورة النور، بتشريع الاستئذان عند الانصراف والقيام من المجلس، وبين أهميته ودلالته على النظام والانضباط الاجتماعي، واحترام إمام المجلس وولي أمره، فقال سبحانه:

﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع﴾ أي: أمر يجمعهم، فيه مصلحة عامة، كمجالس العلم والشورى.

---

(١) تفسير النسفي ٤/ ٤٢٠.

(٢) رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

﴿لم يذهبوا حتى يستأذنوه﴾ أي: لم ينصرفوا حتى يستأذنوا رسول الله ﷺ، أو يستأذنوا نائبه وولي أمر المجلس بعده عليه الصلاة والسلام.

﴿إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله﴾ أي: هم المؤمنون بالله ورسوله حقاً.

ففي الآية ثناء كبير على المؤمنين المتمسكين بهذا الخلق الاجتماعي الرفيع، خاصة الصحابة الذين تأدبوا بهذا الأدب الكريم مع النبي ﷺ، فامتازوا بذلك على المنافقين، الذين كانوا ينصرفون من مجلسه عليه السلام دون استئذانه، كما سيأتي.

وفوضت الآية الإذن إلى رأيه عليه الصلاة والسلام، بحسب ما يرى من المصلحة والحكمة.

﴿فإذا استأذنوك لبعض شؤنهم فائذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله﴾ أي: بعد أن تأذن لهم، وهذا يدل على أن بقاءهم في مجلسه عليه الصلاة والسلام أفضل، وأن انصرافهم عنه فيه شيء من المؤاخذة يستدعي طلب المغفرة.

﴿إن الله غفور رحيم﴾ [٦٢] وينبغي أن يكون حال المسلمين كذلك مع أئمتهم ورؤسائهم في الدين والعلم، يظاهرونهم ولا يتفرقون عنهم إلا بإذن[١].

ثم حذرتهم الآيات من مخالفة أمره عليه الصلاة والسلام، والإعراض عن تلبية دعوته.

---

(١) تفسير النسفي ٤/ ٤٢٢.

﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ أي: لا تقيسوا دعاءه ﷺ إياكم، على دعاء بعضكم بعضاً في أمر من الأمور، ومن جملتها المساهلة في تلبية الدعوة، وترك مجلسه بغير استئذان، فشأن النبي ﷺ يختلف عن شأن غيره؛ لأن طاعته وتلبية دعوته واجبة عليكم.

ففي الحديث الشريف، عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، وفي رواية: فلم آته حتى صليت، ثم أتيته، فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي، فقال: «ألم يقل الله ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم﴾»؟[(١)] ثم قال لي: «لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن، قبل أن تخرج من المسجد» ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: «الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»[(٢)].

وذهب بعض المفسرين إلى أن المعنى المراد: لا تجعلوا نداءه ﷺ، كنداء بعضكم بعضاً باسمه ورفع الصوت، ولكن بلقبه المعظم: يا رسول الله، يا نبي الله، مع غاية التوقير والتفخيم والتواضع وخفض الصوت، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾[(٣)].

لكن المعنى الأول أعم، ويدخل فيه هذا المعنى ضمناً، ويتفق

---

(١) الأنفال: الآية ٢٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٤٤٧٤).

(٣) الحجرات: الآية ٢.

أكثر مع سياق الآية، ومع قوله تعالى في سياقها.

﴿قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً﴾ أي: يعلم الله الذين يخرجون من مجلسه عليه الصلاة والسلام قليلاً قليلاً، على خفية، يستخفي أحدهم بمن يجلس أمامه، حتى يخرج بلا إذن، وهو وعيد لمخالفي أمره ﷺ، المنصرفين عن مجلس دون استئذانه، أكده تعالى بعد ذلك بتحذير صريح فقال:

﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة﴾ أي: تصيبهم بسبب مخالفة أمره عليه الصلاة والسلام، محنة وبلاء في الدنيا، فطاعته ﷺ والتمسك بسنته، أمان للأفراد وللأمة من الفتن والمحن والبلاء، كما دل على ذلك الحديث الشريف عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا بوجهه، فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا ؟ فقال: «أوصيكم بتقوى الله تعالى، والسمع والطاعة وإن كان عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجد، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»(١).

﴿أو يصيبهم عذاب أليم﴾ [٦٣] أي: في يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول﴾(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي..

(٢) الأحزاب: الآية ٦٦.

وقررت آخر آيات السورة كمال علمه تعالى، وتمام سلطانه، لتؤكد كمال تشريعه، ووجوب التزام الناس به؛ لأنهم من خلقه وفي ملكه جل وعلا.

﴿ألا إن لله ما في السموات والأرض﴾ أي: خلقاً وملكاً وعلماً وتدبيراً، فتنويره تعالى للسماوات والأرض تنوير محكم متقن، صادر عن علم كامل وإحاطة تامة.

﴿قد يعلم ما أنتم عليه﴾ أي: في الحال، فأحوالكم وأعمالكم معلومة لله تعالى، فاحذروا مخالفة أمره والإعراض عن شرعه.

وأفادت كلمة ﴿قد﴾ تأكيد علمه سبحانه وتحققه، ويستلزم ذلك تأكيد ما تتضمن الآية من وعيد وتهديد.

﴿ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم﴾[٦٤] أي: ويوم الحساب والجزاء، ينبئهم تعالى بكل ما عملوا، لمحاسبتهم ومجازاتهم، فعليهم أن يلتزموا بأحكام شرعه، وأن يستضيئوا بأنوار هدايته، فهو الطريق الذي يوصلهم إلى السعادة في الدنيا ورضوانه يوم القيامة.

* * *

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأسأله تعالى أن ينور عقولنا وقلوبنا بأنوار آياته، وأن يكرمنا بهدايته، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

الفهـرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥

الفصل الأول
التشريع وبيان الأحكام

فرض وتفريض	١١
تشريع حد الزنا	١٣
التنفير من الزنا	١٦
تشريع حد القذف	١٧
تشريع اللعان	٢٠
حادثة الإفك	٢٤
تأديب وتوبيخ	٣١
البهتان العظيم	٣٤
التعقيبات	٣٥
فضل أبي بكر الصديق	٣٨
الكفر الغليظ	٣٩
براءة وبشارة	٤١
تشريع الاستئذان	٤٢
وجوب غض الأبصار وحفظ العورات	٤٦
تحريم كشف مواضع الزينة	٤٩

الموضوع	الصفحة
الحث على الزواج وتحريم البغاء	٥٥

الفصل الثاني

الهداية

النور والهداية	٦٣
الضالون	٧١
تسبيح المخلوقات	٧٤
جبال في الأرض والسماء	٧٦
الأصل الواحد لدواب الأرض	٧٨
المعرضون عن أحكام الشريعة	٨١
طاعة المنافقين	٨٤
الاستئذان	٩٠
حجاب العجائز	٩١
حرمة الأموال في البيوت	٩٣
استئذان الرسول ﷺ وطاعته	٩٥
الفهرس	٩٩

أسباب الضلال

في سورة الفرقان

مِنْ مَوْضُوعَاتِ سُوَرِ القُرْآنِ الكَرِيم
«٢٥»

أَسْبَابُ الضَّلَالِ
فِي سُورَةِ الفُرْقَانِ

تأليف

عبد الحميد محمود طهماز

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن السبب الأساسي الأول في شقاء الناس وعنائهم وتعاستهم وآلامهم، منذ فجر وجودهم على هذه الأرض، وحتى العصر الحاضر، أنهم لا ينقادون للحق ولا يرضون به، مع أنهم في قرارة أنفسهم يعرفونه، ويرون معالمه ودلائله، وذلك لأسباب متعددة نابعة من داخل نفوسهم، أهمها:

- انسلاخهم عن الشعور بالمسؤولية عن حياتهم أمام خالقهم ومالكهم يوم القيامة.

- جهلهم بحقيقة أنفسهم، ورفعها فوق حدود عبوديتها، مما أدى إلى استكبارهم وطغيانهم، وبغيهم على بعضهم وتحاسدهم.

- انقيادهم لأهوائهم وضعفهم أمام شهواتهم ونزواتهم.

- تأثرهم بقرناء السوء ودعاة الشر والضلال، وسرعة استجابتهم لهم.

ـ إعراضهم عن دعوة ربهم سبحانه في القرآن الكريم، الذي تكفل الله تعالى بحفظه، فلا يزال يتلى عليهم في مختلف عصورهم، غضاً طرياً ندياً، فارقاً للحق عن الباطل، يدعوهم إلى الحق، ويبين لهم أدلته وشواهده، ويحذرهم من طرق الباطل ومزالقه، ويبيّن عواقبه ومصيره.

ففي سورة الفرقان تصوير لحقيقة الداء الكبير، الذي هو سر شقاء البشرية ومنبع آلامها، وفيها أيضاً وصف للدواء الناجع، الذي يبرئها من أمراضها وينهي أسقامها، ويخلصها من عنائها وشقائها، ويأخذ بيدها إن تمسكت به إلى ساحل الأمان وبر السلام.

ذلك هو هدف هذا الكتاب، أسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكون للناس منارة هدى وإرشاد إلى طريق السلام.

اللهم آمين، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

الفقير إلى الله تعالى
عبد الحميد بن محمود طهماز
مكة المكرمة ـ المعهد العالي لإعداد الأئمة والدعاة

١٢/ ٢/ ١٤١٣ هـ
١٠/ ٨/ ١٩٩٢ م

موضوع السورة

الحق واضح أبلج، تؤيده حجج كثيرة قاطعة، وتدل عليه دلائل كبيرة، وهو قريب من الإنسان في كل عصر ومكان، ولا يحتاج الإنسان لكي يعرفه إلا إلى جهد قليل من النظر، يراه بعد ذلك واضحاً بارزاً، ويسمعه مجلجلاً مدوياً.

ومع ذلك يضل عنه أكثر الناس، ويتغافلون عن رؤيته، فالمشكلة إذاً ليست في خفاء الحق وعدم تمكن الناس من رؤيته ومعرفته، فالله تعالى قرب الحق إليهم برسله وكتبه، وزودهم بوسائل التمكين، التي تمكنهم من معرفته، زودهم بالأفئدة والسمع والأبصار، المشكلة في قبولهم للحق ورضاهم به وانقيادهم له.

ولو فتشت عن قلوب أكثر المتخاصمين، الواقفين على أبواب المحاكم وفي ساحات القضاء، لوجدتهم في قرارة أنفسهم يعرفون الحق، ويرون معالمه ودلائله، ولو أنهم انقادوا له لاستراح القضاة، وتوقفت الخصومات. فلماذا يعرض الناس عن الحق وينأون بأنفسهم عنه، وهو واضح بارز؟!

لقد تكفلت سورة الفرقان بالإجابة على هذا السؤال، فكشفت عن أهم أسباب الضلال، وأبرزت صوراً من صور ضلال الضالين، مع بيان بعض شواهد الحق ودلائله، وبينت في آخرها صفات المهتدين المنقادين للحق والراضين به، فتمت بذلك المقابلة، واكتملت الصورة

البشرية وجاءت آيات السورة بحق فرقاناً بين الهدى والضلال، وبين المهتدين والضالين.

ولهذا كان نزول القرآن الكريم، على النبي ﷺ، وعموم بعثته إلى الناس كافة، من أعظم النعم وأجلها على البشرية وغيرها من العوالم والمكونات ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾.

تفضل وإحسان

افتتح الله جل وعلا سورة الفرقان، بتمجيد ذاته، وبيان كمال فضله وتمام إحسانه على خلقه، بتنزيل كتابه الكريم على عبده محمد ﷺ، فقال: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده﴾ أي: تزايد خيره تعالى وعطاؤه على كل شيء، فإحسانه لم يزل ولا يزال ثابتاً في ازدياد.

ولم تستعمل كلمة ﴿تبارك﴾ إلا لله وحده، والمستعمل منه الماضي فقط، وهو إما من البركة، وهي كثرة الخير وزيادته، وإما من البِرْكة، لدوام الماء فيها وثباته، ولهذا يقال: برك البعير، إذا جلس على الأرض[1].

ولعل المعنى الأول أنسب، لقوله: ﴿نزّل الفرقان على عبده﴾ لكثرة ما في القرآن الكريم من خيرٍ وبركة، بينما المعنى الثاني أنسب لمثل قوله: ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾[2] لدوام سلطانه تعالى على ملكه وثباته عليه.

والفرقان مصدر من فرق بين الشيئين إذا فصل بينهما، سمي به

---

(١) تفسير النسفي وتفسير البيضاوي ٤/ ٤٢٤.
(٢) الملك: الآية ١.

القرآن الكريم لفصله بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والحلال والحرام، وأطلقه تعالى أيضاً على أنوار هدايته في قلوب عباده المتقين، التي يميزون بها بين الحق والباطل، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم﴾[1]، وأطلقه تعالى أيضاً على يوم غزوة بدر؛ لأنه أعزّ فيه الإيمان، وأذل فيه الشرك، فقال: ﴿إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير﴾[2]، وما قيل: سمي القرآن فرقاناً لكونه نزل مفرقاً، فيه نظر؛ لأنه تعالى أنزل التوراة جملة واحدة، وسماها فرقاناً، فقال: ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿على عبده﴾ مدح للنبي ﷺ وثناء عليه؛ لأنه أضافه إلى عبوديته، كما وصفه بها في أشرف أحواله، وهي ليلة الإسراء، فقال: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا أنه هو السميع البصير﴾[5]، ووصفه تعالى بذلك أيضاً في مقام الدعوة إليه، فقال: ﴿وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً﴾[6]، وفي غيرها من المقامات الشريفة للنبي ﷺ.

---

(١) الأنفال: الآية ٢٩.
(٢) الأنفال: الآية ٤١.
(٣) البقرة: الآية ٥٣.
(٤) الأنبياء: الآية ٤٨.
(٥) الإسراء: الآية ١.
(٦) الجن: الآية ١٩.

﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ [١] أي: نزل الفرقان على عبده، ليكون لجميع عوالم الجن والإنس نذيراً، وبشيراً أيضاً، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾.

واقتصرت الآية هنا على صفة النذارة، وهي الإخبار بما فيه تخويف؛ انسجاماً مع موضوع السورة الأساسي، وهو بيان أسباب ضلال الضالين، وعناد المعاندين.

ودلت الآية على عموم رسالة النبي ﷺ، للإنس والجن، ولمن عاصره ومن يأتي بعده إلى يوم القيامة، وذلك أمر معلوم من الدين بالضرورة، ويكفر منكره، لكثرة الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، ذات الدلالة القطعية عليه.

وذهب بعضهم إلى القول بعموم رسالته عليه الصلاة والسلام إلى جميع العالمين؛ لأن العالم ما سوى الله تعالى، فيشمل الملائكة، وفائدة دخولهم تحت دعوته عليه الصلاة والسلام، تشرفهم بمتابعته وإذعانهم لفضله[١].

الخلق والتقدير والتدبير

وبعد أن بين تعالى تمام فضله وكمال إحسانه، أردف يبين كمال سلطانه، وتفرده وحده بالخلق والملك والتدبير والتقدير، فقال:

﴿الذي له ملك السموات والأرض﴾ أي: الذي له خاصة دون غيره ملك السماوات والأرض، فهو وحده المتصرف فيهما خلقاً وملكاً وتدبيراً.

---

(١) روح المعاني ١٨/ ٢٣٢.

ثم نزه تعالى نفسه عن الولد والشريك فقال:

﴿ولم يتخذ ولداً﴾ وهذا رد على زعم النصارى في المسيح عليه السلام، وعلى زعم اليهود في عزير، وعلى زعم بعض مشركي العرب في الملائكة.

﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾ وهذا رد على جميع المشركين من عبدة الأصنام والأوثان، ومن عبدة الشمس والقمر والنار، كالثنوية والمجوس.

ولا شك أن قوله هذا من لوازم ما سبق تقريره في صدر الآية: ﴿الذي له ملك السموات والأرض﴾، وصرح به تعالى إظهاراً لبطلان قول القائلين بتعدد الآلهة.

﴿وخلق كل شيء﴾ أي: أحدث كل مخلوق وأخرجه من العدم، فلا خالق سواه جل وعلا، كما قال سبحانه: ﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل﴾[١].

﴿فقدره تقديراً﴾ [٢] أي: خص كل مخلوق بالخصائص والصفات والأفعال اللائقة به، قدر حجمه وشكله، وقدر وظيفته وعمله، وقدر زمانه ومكانه، وقدر تناسقه مع غيره من أفراد هذا الوجود الكبير... وكلما تقدم العلم البشري، فكشف عن بعض جوانب التناسق العجيب في قوانين الكون ونسبة مفرداته، اتسع تصور البشر لمعنى ذلك النص القرآني الهائل: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾[٢].

وفيه دليل أيضاً على أن كل مخلوق مقصود بذاته، بحسب حكمة

---

(١) الزمر: الآية ٦٢.

(٢) في ظلال القرآن ٥/٢٥٤٨.

الخالق الباهرة، ومشيئته التامة النافذة، كما قال سبحانه: ﴿سبح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى﴾(١).

فالخلق والتقدير والتدبير أعظم الأفعال الدالة على الألوهية، ولهذا قال تعالى:

﴿واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً﴾ أي: فكيف يملكون شيئاً منهما لغيرهم؟ فجميع هذه الآلهة المزعومة، عاجزة عن الخلق، وهي مخلوقة حادثة سُبقت بالعدم، وكل ذلك يدل على عجزها وضعفها وعدم استحقاقها صفة الألوهية، كما قال سبحانه: ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون﴾(٢).

﴿ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً﴾ [٣] أي: لا يقدرون على إماتة الأحياء، وإحياء الموتى وبعثهم من قبورهم.

هذا هو الفرقان بين الإله الحق، وبين غيره من الآلهة المزعومة، فالإله الحق يجب أن يكون قادراً على جميع ذلك، فما أشد ضلال من يعبد غيره!!

ظلم وزور

ثم شرعت الآيات تحكي بعض ضلالاتهم في حق النبي ﷺ، وفي حق القرآن الكريم المنزل عليه.

﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم

---

(١) الأعلى: الآيات ١ ـ ٣.

(٢) النحل: الآية ١٧.

آخرون﴾ أي: قالوا: ما هذا القرآن إلا كذب افتراه محمد، وأعانه عليه قوم آخرون.

وهذا القول من أشنع وأقبح ضلالاتهم، فالقرآن الكريم لا يمكن أبداً أن يكون مفترى، إذ هو في نفسه يدل على أنه كلام رب العالمين، الذي قال: ﴿وما كان هذا القرن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾(١).

ولهذا قال تعالى يصف قبح قولهم هذا:

﴿فقد جاءوا ظلماً وزوراً﴾ [٤] أي: جاءوا ظلماً عظيماً وكذباً كبيراً؛ لأنهم جعلوا الحق الثابت الواضح إفكاً مفترى من قبل البشر.

ثم بالغوا في ظلمهم وضلالهم:

﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾ [٥] أي: وقالوا القرآن خرافات سطرها السابقون من الأمم، اكتتبها محمد لنفسه، أو طلب من يكتبها له، فهي تلقى عليه كل يوم في أوله وآخره.

ولا بد أنهم كانوا في قرارة أنفسهم يعلمون أنهم يكذبون في قولهم هذا؛ لأنه عليه الصلاة والسلام كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، كما قال تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾(٢).

ولهذا بادرت الآيات إلى الرد عليهم، وإظهار شناعة ضلالهم، بقوله تعالى:

---

(١) يونس: الآية ٣٧.

(٢) العنكبوت: الآية ٤٨.

﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض﴾ أي: قل لهم: أنزل القرآن الكريم عالم غيب السماوات والأرض، فقد أخبر فيه عن مغيبات وأسرار لا يعلمها إلا عالم غيب السماوات والأرض، وقد ثبت أن في القرآن الكريم كثيراً من الحقائق العلمية والأخبار التاريخية، التي ما كان أحد يعلمها.

﴿إنه كان غفوراً رحيماً﴾ [٦] أي: إنه تعالى يمهلهم ولا يعاجلهم بالعقوبة التي يستحقونها، لمكابرتهم وعنادهم، وجرأتهم على كتابه تعالى، وعلى نبيه ﷺ.

ضلال وفساد

ومن ضلالهم وعنادهم، اعتراضهم على بشرية الرسول ﷺ، وتهكمهم به.

﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ أي: قالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام كما نأكل، ويمشي في الأسواق مكتسباً وملتمساً لمعاشه كما نمشي، فأنّىٰ له الفضل علينا بادعاء النبوة؟

ومن المعلوم أن دخول الأسواق مباح للتجارة وطلب المعاش، وكان عليه السلام يدخلها لحاجته، ولتذكرة الخلق بأمر الله تعالى ودعوته، ويعرض نفسه فيها على القبائل، لعل الله أن يرجع بهم إلى الحق(١).

﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً﴾ [٧] أي: هلا أنزل إليه ملك يصدقه ويساعده في رسالته.

---

(١) تفسير القرطبي ١٣/٥.

﴿أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها﴾ أي: فيستغني بهذا الكنز وهذه الجنة، عن الاكتساب وطلب المعاش في الأسواق.

﴿وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً﴾ [٨] أي: وقال الظالمون بسبب ضلالهم وشركهم للمؤمنين: ما تتبعون إلا رجلاً مسحوراً، قد سحر وغلب على عقله.

وهذه الأقوال والمقترحات واضحة البطلان ظاهرة الفساد، تثير العجب من تفوههم بها، لهذا التفتت الآيات إلى النبي ﷺ تعجبه منها.

﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال﴾ أي: انظر كيف قالوا في حقك هذه الأقوال العجيبة الشاذة، واخترعوا لك تلك الصفات الغريبة البعيدة عن الواقع.

﴿فضلوا﴾ أي: عن طريق الاحتجاج بالعقل والمنطق والبرهان.

﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾ [٩] أي: فلا يجدون طريقاً إلى الطعن بصحة نبوتك وصدق رسالتك؛ لأنها تقوم على الحجج والبراهين، التي تحميها من كل جانب، فلم يجد المبطلون ولن يجدوا أي منفذ، ينفذون بواسطته إلى النيل منها والطعن بها، فهي في حرز قوي حصين.

﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك﴾ أي: تزايد وتكاثر إحسانه وفضله عليك، فهو قادر أن يجعل لك في هذه الدنيا خيراً من كل مقترحاتهم، فكما تبارك الذي نزل الفرقان عليك لتكون للعالمين نذيراً، فكذلك تبارك عليك فضله وإحسانه.

﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي: إن شاء جعل لك جنات، لا جنة واحدة كما اقترحوا.

﴿ويجعل لك قصوراً﴾ [١٠].

فسعة الرزق وحصول الخيرات منوطان بمشيئة الله تعالى وقدرته، وقد عرض تعالى عليه الدنيا بزخارفها، فأعرض عليه الصلاة والسلام عنها، كما جاء في الحديث الشريف عن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال: «عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، قلت: لا يا رب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً، فإن جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإن شبعت شكرتك وحمدتك»(١).

إنكار المسؤولية والجزاء

وتوقفت الآيات فجأة عن بيان ضلال الكافرين، وانتقلت بأسلوب الإضراب لتبين سبباً هاماً من أسباب ضلالهم، بقوله تعالى:

﴿بل كذبوا بالساعة﴾ أي: كذبوا بيوم القيامة، وسلخوا أنفسهم عن الشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى، وهذا هو السبب الأساسي الأول في ضلالهم، فالإنسان الذي لا يدرك طبيعة حياته، ولا يتفهم جوهر وجوده، يبقى دائماً حائراً مضطرباً قلقاً تائهاً ضائعاً، شارداً عن طريق الحق، ولا يستطيع الإنسان أن يتفهم حقيقة حياته الدنيا، إذا لم يؤمن بحياته الثانية يوم القيامة، وما فيها من مسؤولية وحساب وجزاء، فتكذيبهم بالساعة هو سبب ضلالهم.

﴿وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً﴾ [١١] أي: هيأنا لمن كذب بيوم القيامة، وأنكر مسؤوليته عن أعماله، ناراً عظيمة الاشتعال والاستعار.

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن. الترغيب والترهيب ٤/ ١٨٩.

﴿إذا رأتهم من مكان بعيد﴾ أي: إذا كانوا منها بمرأى الناظر البعيد.

﴿سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ [١٢] أي: سمعوا لها صوتاً يدل على شدة غضبها وغليانها.

والغيظ: أشد الغضب، والتغيظ: إظهار الغيظ، فيكون بصوت مسموع، وأما الزفير فهو صوت ترديد النفس حين ينتفخ الصدر منه.

وتدل الآية على أن جهنم يزداد تلهُّبُها وتسعَّرُها، عند رؤيتها للكافرين، فكيف يكون حالها إذا ألقوا فيها!

﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين﴾ أي: إذا ألقوا في مكان ضيق منها، وهم مع ذلك الضيق مقيدون بالسلاسل والأغلال إلى بعضهم، وهذا يدل على أنها تضيق عليهم لتشديد العذاب، فإن الكرب يزداد مع الضيق.

﴿دعوا هنالك ثبوراً﴾ [١٣] أي: دعوا في ذلك المكان على أنفسهم بالهلاك.

فيقال لهم:

﴿لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً﴾ [١٤] فعذابكم دائم متجدد لا ينقطع.

فالهلاك اليوم أمنية المتمني، وهو المنفذ الوحيد للخلاص من هذا الكرب الذي لا يطاق، ثم ها هم أولاء يسمعون جواب الدعاء، يسمعون تهكماً ساخراً مريراً، ﴿لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً﴾ فهلاك واحد لا يجدي شيئاً ولا يكفي شيئاً[1].

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٥٥.

ولما وصلت الآيات إلى هذا الحد في وصف العذاب المرعب المخيف، التفتت إلى النبي ﷺ، تأمره أن يدعوهم إلى المقارنة بين مصير المعذبين ومصير المنعمين، فلفت الأنظار إلى المقارنة بين المتضادين في الأحوال، أسلوب من أساليب القرآن الكريم في الدعوة والتربية.

﴿قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيراً﴾ يصيرون إليه. فالمقاعد محجوزة للقلوب المخلصة المتوجهة إلىٰ الله.

﴿لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعداً مسئولاً﴾ [١٦] أي: حقيق بأن يسأل ويطلب.

المواجهة الرهيبة

فالضلال نابع من نفس الإنسان، ومن كسبه واختياره، وليس أمراً مفروضاً عليه من الخارج، وهو وحده الذي يتحمل تبعة ضلاله، فلا يشاركه أحد في تحملها، حتى ولا الآلهة المزعومة، التي ضل عن الحق من أجلها، وعبدها من دون الله تعالى.

أبرزت الآيات هذه الحقيقة، من خلال عرضها لمواجهة ستقع يوم القيامة، بين الضالين من جهة، وبين الآلهة المزعومة التي عبدوها من دون الله تعالى من جهة أخرى.

﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله﴾ أي: اذكر يوم القيامة، عندما يجمع الله تعالى المشركين، والآلهة المزعومة التي عبدوها من دونه تعالى، كالمسيح وعزير والملائكة، وحتى الأصنام

والأوثان، فإنه تعالى يجمعها وينطقها في هذه المواجهة الرهيبة.

﴿فيقول﴾ أي: الله تعالى مخاطباً المعبودين من دونه، بأسلوب الاستفهام التوبيخي الإنكاري للضالين.

﴿أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل﴾ [١٧] أي: أأنتم دعوتم عبادي هؤلاء إلى عبادتكم، أم هم ضلوا سبيل عبادتي وطاعتي باختيارهم؟

كما قال تعالى: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب﴾[١] ، وقال أيضاً: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾[٢].

﴿قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء﴾ أي: تتنزه وتتقدس عن أن يشاركك أحد في استحقاق العبادة والطاعة، فما صح وما استقام لنا أن نتولى أحداً غيرك، فكيف يصح لنا أن ندعوا غيرنا لكي يتولانا ويعبدنا من دونك.

أو: ما كان لنا أن نأمرهم بعبادتنا، ونحن نعبدك وحدك.

﴿ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر﴾ أي: جعلتهم يتمتعون هم وآباءهم من قبلهم، بأنواع النعم التي أنعمت بها عليهم، كالأموال والأولاد وطول الأعمار، فاستغرقوا في الشهوات، وانهمكوا في

---

(١) المائدة: الآية ١١٦.

(٢) سبأ: الآيات ٤٠ ـ ٤١.

الملذّات، حتى غفلوا عن ذكرك وشكرك وعبادتك.

انشغل القوم بالنعمة عن المنعم، وهو سبب آخر من أسباب الضلال، ستبرزه آيات السورة فيما بعد.

﴿وكانوا قوماً بوراً﴾ [١٨] أي: وأصبحوا بسبب انهماكهم في الشهوات، قوماً لا خير فيهم، كالأرض البور المعطلة عن الزرع، فلا خير فيها، وكذلك لا خير في الإنسان إذا ما أعرض عن طاعة ربه، ولا تتحقق إنسانيته إلا إذا استسلم لله تعالى وحده، وأذعن لأمره وشرعه.

وعقبت الآيات على هذه المواجهة، فالتفتت التفاتة رائعة إلى الضالين، تقيم عليهم الحجة بهذه المواجهة.

﴿فقد كذبوكم بما تقولون﴾ أي: فقد كذبتكم معبوداتكم في قولكم إنهم آلهة.

﴿فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً﴾ أي: فلا تستطيعون صرف العذاب عن أنفسكم، ولا نصر أنفسكم.

وفي قراءة ثانية ﴿فما يستطيعون صرفاً ولا نصراً﴾ أي: فما يستطيعون صرف العذاب عنكم، ولا نصركم وتأييدكم، فالمسؤولية واقعة عليكم، بسبب ظلمكم وضلالكم، النابع من أنفسكم، ولهذا ختم سبحانه الآية بهذا التقرير الجازم.

﴿ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً﴾ [١٩] أي: من يظلم منكم بعبادة غير الله تعالى، نذقه عذاباً كبيراً، بالخلود في نار جهنم.

الابتلاء والاختبار

ثم أضافت الآيات بيان سبب آخر من أسباب الضلال، وقبل أن تصرح به، ردت اعتراضهم على بشرية النبي ﷺ، بقوله تعالى:

﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ أي: إن جميع المرسلين قبلك كانوا بشراً مثلك، يأكلون الطعام كما تأكل، ويمشون في الأسواق لتأمين حوائجهم الدنيوية كما تمشي، فلست بدعا من الأنبياء والمرسلين، فلماذا يعترضون على بشريتك، ويقولون كما تقدم ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾.

ثم كشفت الآية عن الدافع الحقيقي، الذي جعلهم يعترضون على رسالة النبي ﷺ.

﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة﴾ أي: قدر تعالى بسابق علمه ومشيئته، أن يبتلي الناس ببعضهم، وذلك بما جعل بينهم من تفاوت في الخصائص والصفات والمواهب والملكات والأرزاق... فقد ابتلى سبحانه الفقراء بالأغنياء، والأغنياء بالفقراء، والمرضى بالأصحاء والخاصة بالعامة... وكذلك ابتلى الأمم بالأنبياء، والأنبياء بالأمم. وقال سبحانه:

﴿أتصبرون﴾ أي: أتصبرون على هذا الابتلاء، وترضون بما قدر تعالى لكم، فتفوزوا وتفلحوا، أم لا تصبرون فتضلوا.

فالفقير إذا رضي بما قدر له تعالى، ولم يحسد الغني، فقد فاز ونجح في الامتحان، وأما إذا حسده وبغى عليه، فقد ضل وخسر في الامتحان.

وفي المقابل، الغني إذا عرف فضل الله تعالى عليه وشكره، وأعان الفقير ولم يتكبر عليه، فقد فاز، وإلا فقد ضل.

وهذا أيضاً شأن الصحيح مع المريض، والشريف مع الوضيع، والرئيس مع المرؤوس... وكذلك شأن الأمة مع نبيها، فإذا ما انقادوا له وصدقوا بدعوته، فقد فازوا، وأما إذا حسدوه على ما أنعم الله عليه، واعترضوا على نبوته ورسالته، فقد ضلوا وخسروا.

﴿وكان ربك بصيراً﴾ [٢٠] أي: كان تعالى ولا يزال عالماً بحقيقة عباده، وما ابتلاهم إلا ليظهر علمه تعالى فيهم، وليعاملهم بعملهم، ويحاسبهم عليه، لا على علمه الأزلي فيهم سبحانه.

ولا تظنن أنه تعالى ابتلاهم لكي يضلوا، إنما ابتلاهم تعالى، بما قدر بينهم من التفاوت بالأرزاق والمواهب، ليتعاونوا ويتبادلوا المنافع والخبرات فيما بينهم، وقد صرح تعالى بذلك في قوله الكريم: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾(٢).

وليكون أيضاً هذا التفاوت والاختلاف، دليلاً على طلاقة مشيئته تعالى وكمال قدرته، كما في قوله سبحانه: ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾(٣).

---

(١) الزخرف: الآية ٣٢.

(٢) الحجرات: الآية ١٣.

(٣) الروم: الآية ٢٢.

الاستكبار والطغيان

ومن أسباب الضلال أيضاً، التكبر والتجبر ورؤية النفس والاغترار بها، وقد أوردت الآيات هذا السبب، مقترناً مع إنكار الحساب والجزاء، وعدم الشعور بالمسؤولية.

﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي: لا يؤمنون بلقاء الله تعالى يوم القيامة، والوقوف بين يديه للحساب والجزاء.

﴿لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾ أي: هلا أنزل علينا الملائكة رسلاً، أو نرى ربنا فيخبرنا بصدق محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وهي مقترحات أخرى، ضمتها الآيات إلى ما حكته من مقترحاتهم الفاسدة في أوائل السورة، وسلكت الآيات في هذا مسلك الطبيب الحاذق، الذي يصف المرض، ثم يبين أسبابه، فبعد أن وصفت الآيات ضلالهم، بينت بواعثه وأسبابه بقوله سبحانه.

﴿لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً﴾ [٢١] أي: استكبروا كبراً في قرارة أنفسهم، وأوصلهم هذا الكبر إلى غاية التجبر والطغيان ومجاوزة الحد.

فالعتو: أشد الكفر وأفحش الظلم[١].

فهم لم يجسروا على هذا القول العظيم، إلا أنهم بلغوا غاية الاستكبار، وأقصى العتو[٢].

---

(١) تفسير القرطبي ١٣/ ٢٠.

(٢) تفسير النسفي ٤/ ٤٣٧.

ثم بينت لهم الآيات متى يرون الملائكة، وتتحقق لهم هذه الأمنية.

﴿يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ أي: يرون الملائكة يوم تحين آجالهم، وينزل بهم الموت، وتشخص أبصارهم، فحينئذ يرون ملائكة العذاب رؤية لا بشرى فيها للمجرمين، بل فيها العذاب والألم فوق ما هم فيه من سكرات الموت وآلامه، كما قال سبحانه: ﴿ولو تـرى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾[1] وقال تعالى: ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق﴾[2].

وفي قوله تعالى: ﴿لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ إشارة إلى أن الملائكة تنزل بالبشرى على المؤمنين الصالحين عند الموت، وقد صرحت به الآيات في قوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾[3].

﴿ويقولون حجراً محجوراً﴾ [٢٢] أي: ويقول المجرمون عند رؤية الملائكة: حجراً محجوراً، وهي كلمة استعاذة، تدل على شدة خوفهم من رؤية الملائكة، يلتمسون فيها معاذاً يعيذهم، وأنى لهم المعاذ، وليس معهم عمل صالح ينفعهم ويلوذون به.

---

(١) الأنعام: الآية ٩٣.
(٢) الأنفال: الآية ٥٠.
(٣) فصلت: الآية ٣٠.

﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾ [٢٣] أي: عمدنا إلى أعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا، كإغاثة الملهوف، وقري الضيف، وحفظ الجوار، فأبطلناها بالكلية؛ لأنهم لم يعملوها تقرباً إلى الله تعالى ورجاء ثوابه، وإنما عملوها بقصد الرياء والسمعة والمفاخرة.

والهباء المنثور: ذرّات الغبار الصغيرة المتناثرة، التي ترى في شعاع الشمس.

وبأسلوب المقارنة الذي مر معنا في الآيات، قال تعالى:

﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾ [٢٤] وهم المؤمنون المتقون، يستقرون يوم القيامة في أقصى ما يكون من الخير والنعيم، فالجنة لهم دار قرار ومقيل واستراحة.

وأضافت الآيات رؤية أخرى للملائكة، وهي في يوم القيامة.

﴿ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً﴾ [٢٥] أي: ويرون الملائكة يوم القيامة، عندما تشقق السماء، وتتنزل الملائكة منها إلى أرض المحشر نزولاً عجيباً، مثل كتل الغمام.

﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾ أي: الملك الحقيقي في هذا اليوم للرحمن، فلا سلطان لأحد سواه، وفيه ينادي جل جلاله: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾(١).

وفي الحديث الشريف عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «يطوي الله عزّ وجلّ السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم

(١) غافر: الآية ١٦.

يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»[1].

وذكر سبحانه اسمه ﴿الرحمن﴾ للإيذان بأن اتصافه تعالى في هذا اليوم بغاية الرحمة، لا يهون الخطب على الكفرة؛ لعدم استحقاقهم للرحمة[2].

ولهذا قال بعده:

﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ [٢٦] أي: شديداً عليهم لا يسر فيه.

مصاحبة الضالين

ومن أسباب الضلال أيضاً، مصاحبة الضالين وقرناء السوء، ومجالستهم، فمن جالس جانس، والصاحب ساحب، وصدق القائل:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي

وقد بينت الآيات القرآنية التالية، خطورة مصاحبة الضالين، بأسلوب غير مباشر، من خلال وصفها لمشهد من مشاهد العسر والشدة على الكافرين يوم القيامة.

﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾ [٢٧] أي: يوم يعض الظالم لنفسه، المشرك بربه، على يديه؛ ندماً وأسفاً، على ما فرط في جنب الله، فأهلك نفسه في طاعة خليله، الذي صده عن سبيل ربه، وهو يقول: يا ليتني اتخذت في الدنيا مع

---

(١) صحيح مسلم، صفات المنافقين (٢٧٨٨).

(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ٢١٣.

الرسـول سبيلاً إلى النجاة من عذاب الله.

قال الإمام الطبري رحمه الله: قال بعضهم: عنى بالظالم عقبة بن أبي معيط؛ لأنه ارتد بعد إسلامه، طلباً منه لرضى أُبي بن خلف، ثم روى بسنده أن عقبة بن أبي معيط وأُبي بن خلف كانا خليلين، فقال أحدهما لصاحبه: بلغني أنك أتيت محمداً فاستمعت منه، والله لا أرضى عنك حتى تتفل في وجهه وتكذبه، فلم يسلطه الله على ذلك، فقتل عقبة يوم بدر صبراً، وأما أبي بن خلف فقتله النبي ﷺ بيده يوم أحد في القتال(١).

﴿يا ويلتا﴾ أي: يا ويلتي وهلكتي احضري، فهذا أوانك، قلبت الياء ألفاً للندبة، فالرجل يندب حظه، ويدعو بالويل والهلاك على نفسه، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً﴾.

﴿ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً﴾ [٢٨] أي: ليتني لم أتخذ فلاناً الضال صديقاً وصاحباً. وكلمة ﴿فلان﴾ يكنى بها عن كل اسم علم، وأفاد عدم التصريح باسمه عموم الحكم على كل صديقين اجتمعا على ضلالة ومعصية، ففي يوم القيامة تتقطع جميع الأواصر والصلات القائمة على غير طاعة الله تعالى، وتنقلب ندماً وحسرات، كما في قوله تعالى: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾(٢).

﴿لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني﴾ أي: لقد أبعدني عن ذكره تعالى وطاعته، بعد أن وصلني وبلغني وتمكنت منه.

---

(١) تفسير القرطبي ١٩/٦.
(٢) الزخرف: الآية ٦٧.

وكأنه يحاول الاعتذار وإلقاء المسؤولية على غيره، ولكن هذا لا يخلصه منها، ولا ينجيه من تبعة كسبه واختياره، فهو الذي أعرض عن دعوة النبي ﷺ، وفتح صدره وقلبه لضلال صديقه، كما أنه لم يحسن اختيار صاحبه، وقد حذر النبي ﷺ من سوء اختيار الصاحب والصديق، فقال: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل» وقال أيضاً: «لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي»[1].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك ـ يعطيك ـ، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحاً خبيثة»[2].

ومن مساوىء الصاحب الفاسد أيضاً، أنه يخذل صاحبه عند الشدة ويتخلى عنه، كما يفعل الشيطان بأتباعه وأوليائه.

﴿وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾ [٢٩] أي: يصاحبه ويواليه حتى يضله ويوصله إلى الهلاك ، ثم يتخلى عنه: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين * فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين﴾[3].

(١) أخرجهما أبو داود والترمذي، تيسير الوصول ٣/ ٣٧.
(٢) صحيح مسلم، كتاب البر (٢٦٢٨).
(٣) الحشر: الآيتان ١٦ ـ ١٧.

إعراض واعتراض

ومن أسباب الضلال أيضاً، الإعراض عن سماع القرآن الكريم، وعن تدبر آياته؛ إذ جعل الله فيه أعظم أسباب الهداية، فهو الفرقان بين الهدى والضلال، والحق والباطل، كما قرر تعالى في صدر آيات السورة: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾.

وقد أدرك مشركو قريش هذه الحقيقة، وعرفوا المدى الكبير لسلطان القرآن الكريم، وهيمنته على القلوب والنفوس، ولهذا أعرضوا عنه عناداً، وبذلوا جهدهم ليصرفوا الناس عن سماعه وتدبر آياته، وسجل سبحانه وتعالى عليهم إعراضهم في آيات كثيرة، منها قوله سبحانه: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾(١)، وقوله أيضاً: ﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾(٢).

وها هي الآيات الكريمة هنا، تحكي شكاية النبي ﷺ هجر قومه لكتاب الله تعالى، وإعراضهم عنه، بهذه الكلمات الخاشعة الضارعة، الدالة على شدة حزنه وأسفه عليه الصلاة والسلام، بسبب إعراض قومه عن دعوته، وهجرهم للقرآن الكريم:

﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾[٣٠].

فعلى المؤمن أن يتعهد القرآن الكريم، تلاوة وحفظاً وتدبراً، ويدوم على ذلك، ففي القرآن الكريم حصن حصين من أسباب الضلال،

---

(١) فصلت: الآية ٢٦.

(٢) الأنعام: الآية ٢٦.

ووقاية كبيرة من نزغات الشيطان ووساوسه وفتنه، كما قال سبحانه: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾[1].

وبادرت الآيات الكريمة، تعزي النبي ﷺ وتسليه، عما يلقى من إعراض قومه وضلالهم، بقوله تعالى:

﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين﴾ أي: كما جعلنا لك أعداء من مشركي قومك، كذلك جعلنا للأنبياء قبلك أعداء من مجرمي أقوامهم، فاصبر كما صبروا.

﴿وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾ [٣١] ويكفيك أن يكون الله تعالى هادياً لك وناصراً.

ومن صور ضلالهم المتعلقة بكتاب الله، اعتراضهم على نزوله منجماً ومفرقاً.

﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ أي: هلا نزل عليه القرآن، دفعة واحدة في وقت واحد، كما نزلت التوراة والإنجيل.

وهو اعتراض مدفوع لا قيمة له؛ لأن إعجاز القرآن الكريم، وما فيه من تحدي لهم، لا يختلف بنزوله جملة أو مفرقاً، وإن لتفريق نزوله حكماً كثيرة، ذكر تعالى بعضها في قوله:

﴿كذلك لنثبت به فؤادك﴾ أي: كذلك أنزلناه مفرقاً تثبيتاً لقلبك، في مواجهة ضلال المشركين وعنادهم، فإن توالي نزول وحي الله تعالى

---

(١) فصلت: الآية ٤٤.

عليه ﷺ، يقوي قلبه الشريف، ويجعله يستشعر دائماً عنايته تعالى به وتأييده له.

﴿ورتلناه ترتيلاً﴾ [٣٢] أي: وكذلك أيضاً رتلنا تلاوته، فقرأناه عليك مرتلاً بترسل وتثبت.

فحكمة تفريق التنزيل إذاً تثبيت فؤاد النبي ﷺ، والترسل في تلاوته عليه، وليست كما زعم كثير من المفسرين، مراعاة جانب النبي ﷺ، حتى يعيه ويحفظه؛ إذ أخبرنا تعالى أنه تكفل بجمعه في قلب النبي ﷺ، فقال سبحانه: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾(١)، وقال أيضاً: ﴿فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليك وحيه وقل رب زدني علماً﴾(٢).

ثم أضافت الآيات بيان حكمة أخرى لتفريق نزول القرآن الكريم:

﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾ [٣٣] أي: لا يأتونك بشيء يعترضون به على صحة نبوتك، إلا نزل القرآن الكريم يرد اعتراضهم، ويبين الحق أوضح بيان وأفصحه، وهذا كما قال ابن كثير رحمه الله: اعتناء كبير وشرف للرسول ﷺ، حيث كان يأتيه الوحي من الله عزّ وجلّ بالقرآن صباحاً ومساء، سفراً وحضراً، لا كإنزال ما قبله من الكتب المتقدمة، فهذا المقام أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر إخوانه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين(٣).

---

(١) القيامة: الآيات ١٦ ـ ١٨.

(٢) طه: الآية ١١٤.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٦٣١.

والجدير بالذكر هنا، أن في نزول القرآن الكريم مفرقاً، مراعاة لجانب الصحابة رضي الله عنهم أيضاً، لكي يتمكنوا من حفظه وفهم أحكامه، والقيام بها، كما في قوله تعالى: ﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً﴾[1].

تهديد الضالين ووعيدهم

ولما وصلت الآيات إلى هذا الحد في بيان ضلالهم، ورد اعتراضاتهم، ارتفع نبضها وعلا جرسها، وهي تتهددهم وتتوعدهم، وكأنها تبين بهذا الأسلوب الجديد المرعب المخيف، أنه أمثل أسلوب يعالج عنادهم وضلالهم.

﴿الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم﴾ أي: يسحبون يوم الحشر على وجوههم إلى جهنم، كما قال تعالى: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً﴾[2].

﴿أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً﴾ [٣٤] أي: أولئك مكانهم شر مكان، وسبيلهم أضل سبيل، فقد بلغوا الغاية في الشر والضلال، فلا يجدي معهم إلا الوعيد والتهديد، شأنهم في هذا كشأن من سبقهم من الأمم المعاندة الضالة.

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً﴾ [٣٥] أي: جعلنا هارون مع موسى مساعداً في أداء الرسالة.

---

(١) الإسراء: الآية ١٠٦.
(٢) الإسراء: الآية ٩٧.

ومع أنه تعالى أيدهما بالمعجزات الكثيرة الدالة على صدقهما، كذب القوم بها عناداً واستكباراً، وكانت النتيجة:

﴿فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً﴾ [٣٦] أي: دمرناهم تدميراً عجيباً عظيماً لا يدرك مداه، بعد أن أقمنا عليهم الحجة بالمعجزات الكثيرة.

﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية﴾ أي: جعلناهم عبرة وعظة لكل من جاء بعدهم من الناس.

﴿وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً﴾ [٣٧] أي: وهذه سنتنا في معاملة الظالمين، فقد هيأنا لهم عذاباً أليماً.

﴿وعاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً﴾ [٣٨] أي: ودمرنا أيضاً عاداً وثمود وأصحاب الرس، وهم أصحاب بئر لهم، قتلوا نبيهم ورسوه فيها، فانهارت بهم، وخسف بهم وبديارهم(١).

وثمة أمم كثيرة ضالة، دمرها تبارك وتعالى، لم تذكرها الآيات، واكتفت بالإشارة إليها، لا يعلمها إلا الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾(٢).

ولم يهلك الله تعالى هذه الأمم الكثيرة الضالة، إلا بعد أن أرسل إليهم الرسل، وألزمهم بالحجج والبراهين والبينات، وضرب لهم الأمثال.

---

(١) تفسير النسفي ٤/ ٤٤٣.

(٢) الإسراء: الآية ١٧.

﴿وكلاً ضربنا له الأمثال﴾ أي: وضربنا الأمثال المقربة للمعاني والمبينة للحق، لكل أمة من هذه الأمم، ومع ذلك أعرضوا وكذبوا وعاندوا.

﴿وكلا تبرنا تتبيراً﴾ [٣٣] أي: أهلكناهم إهلاكاً عظيماً، كما سبق في قوله: ﴿فدمرناهم تدميراً﴾.

﴿ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء﴾ أي: ولقد مر مشركو قريش على قرية قوم لوط، التي أنزل تعالى عليها مطراً من حجارة، بعد أن جعل عاليها سافلها، وذلك عندما كانوا يسافرون للتجارة في بلاد الشام.

﴿أفلم يكونوا يرونها﴾ أي: فيعتبروا بما حل بأهلها.

فالآيات تدعوهم إلى الاعتبار بمصير الأمم الهالكة قبلهم، كما في قوله تعالى: ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون﴾[١].

وانتقلت الآيات فجأة، من دعوتهم إلى الاعتبار بأحداث التاريخ، إلى تأكيد سبب ضلالهم الأول.

﴿بل كانوا لا يرجون نشوراً﴾ [٤٠] أي: إنهم ضلوا ولم يعتبروا، بسبب إنكارهم ليوم الجزاء والحساب، وهو يوم الخروج والنشور من القبور، وهو تأكيد بنفس الأسلوب الذي سبق في قوله تعالى: ﴿بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً﴾ وهذا يظهر لنا شدة الاتفاق والاحتباك بين آيات السورة، في الموضوع والأسلوب.

---

(١) الصافات: الآيات ١٣٧ ـ ١٣٨.

عباد الأهواء والشهوات

ومن أسباب الضلال أيضاً، الانهماك بشهوات الدنيا، والانشغال بالأهواء، وسبق معنا الإشارة إلى ذلك، في قوله تعالى: ﴿بل متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً﴾.

وهو من أكبر أسباب الضلال، فما أكثر الذين صرعتهم شهواتهم، واستعبدتهم أهواؤهم ونزواتهم، فصرفتهم عن الحق وأضلتهم عن الصراط المستقيم، ولهذا لم تكتف الآيات بالإشارة السابقة إليه، بل صرحت به هنا، وبينت خطره وأثره، بضرب المثل له، ومهدت لذلك بإظهار صورة من صور ضلالهم وعنادهم، وكيف كانوا يواجهون النبي ﷺ ويتعاملون معه.

﴿وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً﴾ أي: لا ينظرون إليك إلا نظر المستكبر المستهزىء، ويضمون إلى نظرات السخرية والاستهزاء، الأقوال الجارحة.

﴿أهذا الذي بعث الله رسولاً﴾ [٤١] أي: يقولون ذلك ازدراءً لرسول الله ﷺ، واعتراضاً على الله تعالى، الذي فضله عليهم، واختاره دونهم لحمل رسالته وأداء أمانته، وهذا يدل على أنهم ما كفروا برسالته عليه السلام، إلا حسداً وبغياً، كما ذكر تعالى ذلك عنهم بقوله الكريم: ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾(١).

﴿إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها﴾ أي: إنه قارب أن يصرفنا عن عبادة آلهتنا، لولا أن ثبتنا عليها وتمسكنا بها، وهذا اعتراف منهم بأنه عليه الصلاة والسلام، قد بلغ من الاجتهاد في الدعوة

---

(١) الزخرف: الآية ٣١.

إلى الحق، وإقامة الحجج والبينات، إلى حيث شارفوا أن يتركوا دينهم، لولا فرط لجاجهم وغاية عنادهم[1].

﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً﴾ [٤٢] أي: وسوف يعلمون حين يشاهدون العذاب عند الموت أو يوم القيامة، من هو الضال عن سبيل الحق والهدى، وهذا رد لقولهم: ﴿إن كاد ليضلنا﴾ فقد نسبوا الضلال إلى رسول الحق والهدى، وحاشاه عن ذلك، فلا يضل غيره إلا من كان ضالاً في نفسه.

والدليل على أنهم هم الضالون في أنفسهم، أنهم اتخذوا أهواءهم وشهواتهم آلهة يطيعونها من دون الله تعالى، ولهذا اتجهت الآيات بالخطاب إلى النبي ﷺ، تعجبه من شدة ضلالهم، وتعزيه عن جموحهم واستهزائهم.

﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ أي: أطاع هواه وجعله إلهه ومعبوده، حتى أصبح لا يسمع حجة، ولا يفهم حقيقة.

﴿أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾ [٤٣] أي: لا تكون عليه حفيظاً من الضلال؛ لأنه لا يسمع دليلاً ولا يعقل حجة.

﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون﴾ أي: هل تظن أنهم يسمعون دعوة الحق ويتفهمون أدلتها، وهم منصرفون إلى طاعة أهوائهم، منهمكون في تحقيق شهواتهم.

وتأمل دقة التعبير القرآني وموضوعيته في قوله: ﴿أكثرهم﴾ لأن بعضهم أذعن للحق ودخل في الإسلام.

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٢٠.

وهذا الانتقال بأسلوب الإضراب من معنى إلى آخر، أبلغ في الذم والتقبيح، ولهذا استعملته الآية لوصفهم بغاية الضلال والعناد.

ثم خطت الآيات خطوة أخرى بالأسلوب نفسه، لتقرير معنى آخر، أعمق جرحاً، وأكثر ذماً.

﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾ [٤٤] أي: ما هم إلا كالبهائم في عدم انتفاعهم بالحجج المنطقية، والبراهين العقلية، بل هم أكثر ضلالاً من الأنعام، لأنها تعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها، وتتجنب ما يضرها، وتهتدي إلى مراعيها ومشاربها، وهي تفعل ما خلقت من أجله، أما هؤلاء فقد خلقوا لعبادة ربهم وطاعته، فأعرضوا عن ذلك، وعطلوا أسماعهم وأبصارهم وعقولهم عن أدلة الحق ومؤيداته، وتنكبوا طريق الهدى، وساروا في طريق الضلال والبوار، كما وصفهم تعالى بقوله الكريم: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾(١).

من شواهد الحق وأدلته

وقد يقول قائل: ما هي الحجج والبراهين التي أعرضوا عنها، ولم ينتفعوا بها؟ وأقول: إن مؤيدات الحق وأدلته وبراهينه وحججه كثيرة وكبيرة وقريبة، وهي مبثوثة في جميع المكونات، صغيرها وكبيرها، وها هي الآيات الكريمة تذكرنا ببعضها.

---

(١) الأعراف: الآية ١٧٩.

﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل﴾ أي: ألم تنظر إلى الظل، كيف مده ربك.

والمراد به الظل الممتد قبل طلوع الشمس.

﴿ولو شاء لجعله ساكناً﴾ أي: ولو شاء سبحانه وتعالى لجعل الظل ثابتاً دائماً، لا يزول ولا تنسخه الشمس.

وهذا يدل على أن كل النظم الكونية والنواميس الفلكية، تجري بمشيئته تعالى وحده وقدرته، فكما أنه الخالق وحده، فالتدبير أيضاً له وحده جل وعلا، فله سبحانه الخلق والتدبير.

﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً﴾ [٤٥] أي: ثم جعلنا الشمس دليلاً على وجود الظل، فلا يظهر للحس حتى تطلع الشمس، عندئذ تظهر ظلال الأشياء وتتميز عن بعضها.

﴿ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً﴾ [٤٦] أي: ثم جعلنا الظل يتقلص ويتناقص شيئاً فشيئاً كلما ارتفعت الشمس، حتى ينتهي إلى غاية نقصانه عند الزوال، ويسمى ما يبقى منه فيء الزوال.

وقوله سبحانه ﴿إلينا﴾ دل على أن نقصان الظل يتم بمشيئته تعالى وقدرته وحده، فلا يشاركه أحد في تدبير أمر هذه الظاهرة الكونية العجيبة المحكمة الدقيقة.

ومن هذه الأدلة أيضاً، تنظيم البيئة المناسبة لحياتكم، وتقسيم الزمان ليلائم حاجاتكم.

﴿وهو الذي جعل لكم الليل لباساً﴾ أي: وهو تعالى وحده الذي جعل لكم الليل كالباس يستركم بظلامه.

﴿والنوم سباتاً﴾ أي: راحة لأبدانكم، تنقطع به عن العمل.

﴿وجعل النهار نشوراً﴾ [٤٧] أي: جعله ذا نشور، تنتشرون فيه لمعاشكم ومصالحكم.

هذه نعم جليلة، ضرورية لاستمرار حياة الإنسان ووجوده على هذه الأرض، تدل دلالة قاطعة على كمال قدرته تعالى وباهر حكمته، وهي أقرب الظواهر الكونية إلى مدارك الإنسان وأحاسيسه، تطوقه من كل جانب، فلا يستطيع الانفكاك عنها، بل ولا غنى له عنها أيضاً، ومع ذلك يغفل أكثر الناس عنها، ويعرضون عن التفكير في مبدعها ومدبرها جل جلاله.

وانتقلت الآيات من مد الظلال وقبضها، وتقليب الليل والنهار، وما فيهما من نوم ونشور، إلى إرسال الرياح الحاملة للمطر.

﴿وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ أي: وهو سبحانه الذي أرسل الرياح، تبشر بقرب نزول المطر، وهو من رحمته تعالى لعباده.

فقدوم الرياح الحاملة للسحاب، ينبىء عن قرب نزول الأمطار، وعلماء الأرصاد الجوية الذين يرصدون حركة الرياح واتجاهاتها، ويبنون على ذلك توقعاتهم، لا يأتون بأمور مغيبة، وإنما يخبرون بأمور محسوسة مشاهدة، تمكنوا من مشاهدتها بأسباب الرصد التي يستعملونها.

﴿وأنزلنا من السماء ماء طهوراً﴾ [٤٨] أي: أنزلنا من السحاب، الذي هو في جهة السماء، ماء طاهراً في نفسه ومطهراً لغيره، وهذا يدل على أن للماء وظيفة أساسية هامة في النظافة والطهارة، فضلاً عن وظائفه الأخرى، في السقيا والخصب والنماء.

﴿لنحيي به بلدة ميتاً﴾ أي: لنحيي به بلداً لا نبات فيه، فالمحيي هو الله تعالى، وماء المطر سبب لإحياء الأرض بالنبات، كما قال سبحانه: ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾[1].

﴿نسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً﴾ [٤٩] أي: ونجعل في ماء المطر سقياً لكثير مما خلق الله تعالى من البشر والأنعام، فما أكثر الذين يعتمدون في شربهم وزراعتهم على مياه الأمطار، والناس محتاجون إليها أينما كانوا، في المدن العامرة أو في البوادي المقفرة.

القرآن الكريم والدعوة

هكذا عرضت الآيات الكريمة بعض الشواهد والأدلة على وجوده تعالى، بهذه الصور الرائعة والأساليب البديعة المعجزة، التي تدل على رحمته تعالى بعباده، وإحسانه الواسع إليهم، فقرب إليهم معاني التنزيل الحكيم، بهذا البيان الفائق والكلم الرائق، لعل صدورهم تنشرح له، ونفوسهم تتشوف إليه، وعقولهم تدرك حقائقه، فماذا كانت النتيجة؟:

﴿ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ [٥٠] أي: ولقد كررنا عرض الأدلة والبراهين والحجج القرآنية، بأساليب مختلفة، ليتعظوا وينتفعوا بها، فأبى أكثر الناس إلا جحوداً لها وتكذيباً، وهذا يدل على شدة وكثافة حجب الشهوات والأهواء، التي تغلف عقولهم وقلوبهم، فتبعدهم عن الحق، وتبقيهم منغمسين في حمأة

---

(١) الحج: الآية ٥.

الضلال، كما سبق في وصفهم ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾.

فماذا يريد الضالون أكثر من ذلك؟! هل يريدون أن نرسل رسولاً لكل بلد ولكل مجتمع بشري؟ نحن قادرون على ذلك.

﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً﴾ [٥١] أي: رسولاً ينذر أهلها، ويحمل عن النبي الخاتم، الذي أرسل للعالمين نذيراً، بعض أعباء التبليغ والنذارة، ولكنا لم نشأ ذلك، وقصرنا الأمر عليك يا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فجعلناك نذيراً للعالمين، لأننا نعلم أنك حقيق بحمل أعباء الرسالة وتبليغها، فرسالتك تغني عن كل رسالة، بسبب عمومها وشمولها وقوة أدلتها وسطوع حججها وبراهينها، ونذارتك تغني عن كل نذارة، لفخامتها وضخامتها وقوة دويها وصداها في القلوب والنفوس.

﴿فلا تطع الكافرين﴾ أي: فيما يدعونك إليه من الملاينة والمداهنة، وترك تسفيه أحلامهم وعيب آلهتهم، كما في قوله تعالى: ﴿فلا تطع المكذبين * ودوا لو تدهن فيدهنون﴾(١).

﴿وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾ [٥٢] أي: جاهدهم بالقرآن الكريم، بقوارعه وزواجره ومواعظه، وأدلته وبراهينه، جهاداً كبيراً عظيماً، جامعاً كل أنواع المجاهدة، وكل أساليبها وأفانينها، بلا كلل ولا ملل ولا فتور.

فما أعظم رسالة النبي الخاتم ﷺ! وما أثقلها! إن هذه الآية الكريمة تبين عمق مدلول الآية الأولى في صدر السورة: ﴿تبارك الذي

---

(١) ن: الآيتان ٨ ـ ٩.

نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ وتبين أيضاً أن القرآن الكريم هو أعظم سلاح يتسلح به الداعية إلى الله تعالى في كل زمان ومكان، ففيه من أساليب الدعوة ما يكفي ويغني كل داعية، مهما كانت ظروف دعوته، وطبيعة الناس الذين يدعوهم، وعلى الدعاة أن يتدبروا آياته ويتفهموا أساليبه، ويحسنوا اختيار الأسلوب الأمثل، الذي يناسب أحوال الدعوة وأطوار المدعوين، ولا يليق بالدعاة إلى الله تعالى أن يجهلوا أساليب القرآن الكريمة في الدعوة، فيؤدي بهم ذلك إلى الجمود على أسلوب واحد رغم اختلاف الأحوال والأزمان، وهو مع الأسف نقص كبير يعاني منه كثير من الدعاة في عصرنا الحاضر، وهو من أسباب فشلهم وضعف مردود دعوتهم.

الماء والحياة

وبعد هذه الالتفاتة القصيرة للآيات الكريمة، إلى أهمية رسالة النبي ﷺ، وأهمية التمسك بأساليب القرآن الكريم في الدعوة إلى الله تعالى، استأنفت الآيات عرض مجموعة جديدة من الأدلة والبراهين، الدالة على كمال قدرته تعالى وباهر حكمته.

﴿وهو الذي مرج البحرين﴾ أي: خلقهما متجاورين متلاصقين.

والمراد بالبحرين الماء الحلو الذي فرقه الله تعالى بين خلقه، لاحتياجهم إليه، أنهاراً وعيوناً وبحيرات، في مختلف البقاع والأصقاع، والماء المالح الذي جمعه سبحانه في البحار والمحيطات، لحكم جليلة قدرها العليم الحكيم. وقد عرف العلماء في العصر الحاضر بعض هذه الحكم، عندما اكتشفوا دور البحار في استمرار التوازن الدقيق في الهواء، والمحافظة على البيئة، ودفع أخطار التلوث، فضلاً عما فيه من

موارد غذائية واقتصادية كبيرة للإنسان.

وبين تعالى مراده من البحرين بقوله بعد ذلك:

﴿هذا عذب فرات﴾ أي: هذا شديد العذوبة، يدفع العطش من فرط عذوبته.

﴿وهذا ملح أجاج﴾ أي: والثاني مالح شديد الملوحة.

﴿وجعل بينهما برزخاً﴾ أي: جعل بين الماء العذب والماء المالح حاجزاً، يدل على كمال قدرته جل وعلا.

﴿وحجراً محجوراً﴾ [٥٣] أي: ومانعاً يمنع طغيان أحدهما على الآخر، بحيث يبقى الماء العذب محافظاً على عذوبته، والمالح محافظاً على درجة ملوحته، مع أنه تعالى قدر لهما أن يلتقيا بشكل دائم مستمر، كما قال سبحانه: ﴿مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان﴾(١).

فأكثر المياه العذبة، سواء منها النابعة من الأرض، أو النازلة من السماء، تذهب في نهاية رحلتها الأرضية إلى البحار، وتلتقي المياه المالحة عند مصبات الأنهار، ثم تنفصل عنها بتقديره تعالى، الذي قدر نواميس الحرارة والتبخر والتكاثف، وتحملها الرياح إلى حيث يشاء تعالى أن تنزل مرة ثانية، وهكذا تستمر دورة هذه المياه، فما أعظم مشيئته تعالى النافذة في كل ذرة من ذرات المياه! وما أعظم علمه الذي وسع عدد قطر الأمطار ومكاييل البحار، وما أدق وأحكم هذا البرزخ، الذي جعل التوازن بين المياه العذبة والمياه المالحة دائماً ومستمراً، كضرورة لاستمرار الحياة على هذه الأرض!!!

---

(١) الرحمن: الآيتان ١٩ ـ ٢٠.

فللمياه دور كبير قدره العليم الحكيم لاستمرار الحياة، كما أن لها دوراً أساسياً كبيراً في تكاثر المخلوقات وتوالدهم، وتأمل دقة وروعة التعبير القرآني واتساقه مع سباقه.

﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً﴾ وهو ماء النطفة، خلق سبحانه منه إنساناً.

وقد يقول قائل: ماء النطفة يختلف عن مياه الأمطار والبحار، نعم، هو يختلف في الصفات والأحوال، ولكنه في الأصل مستمد من الماء المطلق، فماء النطفة يستخلص من الدماء، التي تستمد قوامها من الغذاء، المتكون من مياه الأمطار الممزوجة بتراب الأرض وأملاحها، فالماء هو الأصل، كما أخبر الحق سبحانه في قوله: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾[1].

﴿فجعله نسباً وصهراً﴾ أي: جعله تعالى قسمين، ذكوراً ينسب إليهم، وإناثاً يصاهر بهن، كما قال سبحانه: ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾[2].

﴿وكان ربك قديراً﴾ [٥٤] أي: وكان ربك ولا يزال قديراً على خلق كل ما يريد مما سبق به علمه وتعلقت به مشيئته.

وعلى الرغم من ظهور هذه الأدلة، الدالة على كمال قدرته تعالى ووحدانيته، وتفرده بالخلق والتدبير، يضل كثير من الناس، فيعبدون غيره جل وعلا.

﴿ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم﴾ أي: يعبدون

---

(١) الأنبياء: الآية ٣٠.

(٢) القيامة: الآية ٣٩.

آلهة لا تنفعهم إذا عبدوها، ولا تضرهم إذا تركوها، فما أجهلهم!

﴿وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾ [٥٥] أي: معيناً ومساعداً للشيطان على معصية الرحمن.

دعوة كريمة

ومهمة النبي ﷺ لا تقتصر على النذارة، وإنما هي رحمة وبشارة، ولهذا أضافت الآيات هذا المعنى بقوله تعالى:

﴿وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾ [٥٦] أي: تبشر المؤمنين بفضله تعالى ورحمته، وتنذر الضالين بعذابه وسخطه، فهي مهمة كريمة هدفها الأول سعادة الإنسان، والأخذ بيده إلى طريق الفلاح، منزهة عن أي غرض دنيوي.

﴿قل ما أسألكم عليه من أجر﴾ أي: ما أسألكم على تبليغ الرسالة أي أجر. فهي دعوة منزهة عن أي مقصد مادي أو نفع دنيوي، وإعلام المدعوين بذلك يقربها إليهم، وهو ما فعله جميع الأنبياء عليهم السلام، فما من نبي إلا قال لقومه ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾[١].

﴿إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ [٥٧] أي: إلا من أراد أن ينفق ماله تقرباً إلى الله تعالى.

وقد يكون المعنى: إلا أن تؤمنوا بالله وتطلبوا رضوانه، فهذا هو الأجر الذي أطلبه منكم، إنه هدايتكم إلى طريق الحق، الذي يوصلكم إلى رضوانه تعالى وجنته.

---

(١) الشعراء: الآية ١٠٩.

﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ أي: توكل في الاستغناء عن أجورهم، ومواجهة ضلالهم وعنادهم، ودفع شرورهم، على الله الحي الذي لا يموت، ولا تتوكل على حي يموت.

﴿وسبح بحمده﴾ أي: ونزهه عن صفات النقصان، مع الثناء عليه سبحانه بأوصاف الكمال.

﴿وكفى به بذنوب عباده خبيراً﴾ [٥٨] أي: لا عليك إن كفروا وضلوا وأعرضوا، فإنه تعالى مطلع على جميع ذنوبهم، ومجازيهم عليها.

﴿الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾ أي: على الوجه اللائق بكماله وجلاله سبحانه.

﴿الرحمن﴾ أي: هو الرحمن الذي يجب التوكل عليه.

﴿فاسأل به خبيراً ﴾[٥٩] أي: اسأله تعالى وحده ولا تسأل غيره، فهو المحيط بظواهر الأمور وبواطنها، فإن سألته وجدته خبيراً.

وبعد أن شدت الآيات من عزم النبي ﷺ، للقيام بأعباء الدعوة الثقيلة التي كلف بها، كشفت عن سر اهتمامها وتركيزها على الاسم الكريم الرحمن، من أسمائه تعالى الحسنى.

﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن﴾ أي: إذا قال لهم الرسول ﷺ: «اسجدوا لرحمن، بالانقياد له وحده والاستسلام لأمره».

﴿قالوا وما الرحمن﴾ أي: قالوا بتجاهل ووقاحة: لا نعرف الرحمن، كما قال فرعون: ﴿ما رب العالمين﴾ حين قال له موسى: ﴿إني رسول رب العالمين﴾، وهو عالم بالله عز وجل، كما يؤذن بذلك قول موسى: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض

بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً﴾[1].

﴿أنسجد لما تأمرنا﴾ أي: أنسجد للذي تأمرنا أنت يا محمد.

﴿وزادهم نفوراً﴾ [٦٠] أي: زادهم الأمر بالسجود للرحمن نفوراً عن الإيمان، وزيادةً في الضلال، إذ تجاهلوا الرحمن الذي فاضت رحمته على جميع المكونات، فكلها أثر من آثار رحمته العظمى جل جلاله؛ ولهذا شرع للمؤمنين عند سماع أو تلاوة هذه الآية، أن يخالفوا المعاندين الضالين، بالسجود سجدة تلاوة لله رب العالمين.

وعرضت الآيات مرة ثالثة، في مقابل عتوهم واستكبارهم ونفورهم، مجموعة أخرى من الدلائل الدالة على كمال رحمته تعالى وقدرته.

﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾ [٦١] أي: تزايد خيره وبره وآثار رحمته، الذي أبدع هذا الكون، فجعل في السماء نجوماً بارزة ظاهرة، وجعل فيها الشمس، مصدراً للضوء والحرارة، وجعل فيها قمراً منيراً يعكس ضوء الشمس وينير ظلمة الليل.

﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة﴾ أي: يخلف كل منهما الآخر، أو اختلافاً في الزيادة والنقصان والنور والظلام.

﴿لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾ [٦٢] أي: لمن أراد أن يتذكر نعمه تعالى عليه، وأدلة وجوده وفضله جل جلاله، ويشكره بطاعته وعبادته وحده، فـ ﴿أو﴾ هنا بمعنى الواو، كما في قوله تعالى: ﴿ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً﴾ أي: آثماً وكفوراً.

---

(١) الإسراء: الآية ١٠٢. انظر: روح المعاني ١٩/ ٣٩.

فأسباب الهداية والإيمان قريبة من كل إنسان، وهي واضحة ظاهرة ظهور الشمس والقمر والكواكب النيرات في جو السماء.

ولا يخفى ما في كلمة ﴿أراد﴾ وتكريرها، من دلالة على أن بواعث الهدى والإيمان، نابعة أيضاً من نفس الإنسان ومن كسبه واختياره، كما مر معنا بالنسبة إلى أسباب الضلال، ولا بد للإنسان مع هذه البواعث، من توفيقه تعالى وهدايته ورحمته.

صفات المهتدين

وبعد أن عرضت السورة صوراً من صور عناد الضالين وجحودهم، وأبرزت إلى جانبها بعض أدلة الحق وشواهده وبراهينه، وكشفت عن بعض أسباب ضلالهم وعنادهم، عرضت في ختام السورة صفات المؤمنين المهتدين، فإذا هي على الضد تماماً من صفات الضالين.

﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً﴾ أي: يمشون بسكينة وتواضع، هينين ليني الجانب، من غير فظاظة ولا استكبار، وهذا يدل على أنهم يتصفون بصفة التواضع، فإن مشية الإنسان تعكس حقيقة ما تنطوي عليه نفسه من تواضع أو تكبر، قال تعالى: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً﴾[1].

وهذه صفتهم مع أنفسهم، وأما صفة تعاملهم مع غيرهم، فتظهر من قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ [٦٣] أي: إذا كلمهم السفهاء بالسوء والسفه والجهل، ردوا عليهم بالكلام الحسن الطيب،

---

(١) الإسراء: الآية ٣٧.

وأغلقوا على أنفسهم منفذاً من منافذ الضلال، إذ مر معنا أنه تعالى جعل بعض الناس فتنة لبعض ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون﴾ فعباد الرحمن صبروا على السفهاء، واحتملوا سفاهتهم وطيشهم، ودفعوا السيئة بالحسنة، كما قال سبحانه: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾[١].

﴿والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً﴾ [٦٤] أي: يحيون الليل كلاً أو جزءاً في الصلاة والدعاء، يتقربون إلى ربهم، وهذا يدل على شدة خوفهم وخشيتهم منه تعالى وتعظيمهم له، ولهذا يسألونه أن ينجيهم من عذاب جهنم.

﴿والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم﴾ أي: ابعد عنا عذاب جهنم، فالقوم يقدرون مسؤوليتهم يوم القيامة، ويدركون حكمة وجودهم وجوهر حياتهم، فهم على الضد تماماً من الضالين، الذين سلخوا أنفسهم عن الشعور بالمسؤولية يوم القيامة، كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿بل كانوا لا يرجون نشوراً﴾ وقوله سبحانه: ﴿بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً﴾.

﴿إن عذابها كان غراماً﴾ [٦٥] أي: إن عذاب جهنم كان شراً وهلاكاً لا بد منه، وهذا يدل على أنهم غير معجبين بأعمالهم، يتهمون أنفسهم بالتقصير في طاعة ربهم والقيام بأعباء عبوديتهم له جل جلاله، فهم محتاجون إلى عفوه ورحمته، مشفقون من عذابه، كما قال سبحانه: ﴿والذين هم من عذاب ربهم مشفقون * إن عذاب ربهم غير مأمون﴾[٢].

---

(١) فصلت: الآية ٣٤.

(٢) المعارج: الآيتان ٢٧ ـ ٢٨.

﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ [٦٦] أي: إن جهنم بئست مستقراً ومقاماً.

﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا﴾ أي: يسيرون في حياتهم المعيشية ونفقاتهم سيراً معتدلاً وسطاً، من غير إسراف وتقتير وتقليل.

﴿وكان بين ذلك قواماً﴾ [٦٧] أي: وكان حالهم في الإنفاق وسطاً وعدلاً بين الإسراف والتقتير، فهم ينفذون وصايا الحق تبارك وتعالى في قوله الكريم: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾(١).

وهذا يدل على أنهم لا يعيشون حياة المسرفين المترفين، المنهمكين في الشهوات والأهواء، والذين ضلوا بسبب ذلك، حتى أصبحوا عبيداً لأهوائهم وشهواتهم، كما مر عند قوله تعالى: ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾.

﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾ أي: لا يعبدون إلا الله تعالى، ولا يشركون معه غيره، فهم على الضد تماماً من الضالين، الذين وصفهم الله تعالى بقوله الكريم: ﴿واتخـذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً﴾ والذين ـ كما تقدم أيضاً ـ رفضوا دعوة النبي ﷺ من أجل آلهتهم المزعومة، وقالوا: ﴿إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها﴾.

﴿ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون﴾ أي:

---

(١) الإسراء: الآية ٢٩.

يحترمون حقوق الناس، فلا يعتدون على حياتهم أو أعراضهم؛ لأنهم يشعرون بالمسؤولية عن ذلك أمام الله تعالى، ويعلمون عظم المسؤولية عن حقوق الآخرين.

﴿ومن يفعل ذلك يلق أثاماً﴾ [٦٨] أي: يلق جزاء إثمه يوم القيامة، فهم على الضد من عبّاد الأهواء والشهوات، الوالغين بدماء الناس وأعراضهم.

﴿يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً﴾ [٦٩] أي: يخلد في العذاب ذليلاً، فقد جمع الله تعالى له في هذا العذاب المضاعف، الألم الحسي والمعنوي.

وقد عودنا الله تعالى في كتابه الكريم على أسلوبه التربوي التهذيبي، فلا ييأس أصحاب هذه المعاصي من رحمته تعالى، ولهذا فتح لهم باب التوبة والإنابة، والرجوع إلى الحياة النظيفة الفاضلة، فقال:

﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً﴾ أي: إلا من ترك الكفر والضلال، وآمن الإيمان الصحيح بالله الواحد الأحد، وبرسالة النبي ﷺ، وتقرب إليه تعالى بالأعمال الصالحة.

﴿فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ أي: فأولئك التائبون يمحو الله تعالى سيئاتهم، ويثبت مكانها الحسنات، بفضله ورحمته.

وفي الحديث الشريف عن أبي ذر أن النبي ﷺ قال: «إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجاً منها، رجل يؤتى به يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها، فتعرض عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا،

وعملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا، فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة، فيقول: رب قد عملت أشياء لا أراها ههنا» فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه[1].

﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ [٧٠].

وأكدت الآيات قبوله تعالى توبة التائبين.

﴿ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾ [٧١] أي: فإن التائب المخلص في توبته يتوب توبة مقبولة، كما في قوله تعالى: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾[3].

ومن صفات عباد الرحمن المهتدين أيضاً أنهم يعرفون قيمة حياتهم، وأنهم مسؤولون عنها أمام الله تعالى، فلا يضيعونها في الأمور التافهة الرخيصة، كاللهو واللعب والعبث، وشأنهم في هذا على الضد من شأن الضالين، الذين لا يعرفون قيمة حياتهم وجوهر وجودهم؛ لأنهم سلخوا أنفسهم عن الشعور بالمسؤولية أمام ربهم جل وعلا.

﴿والذين لا يشهدون الزور﴾ أي: لا يحضرون مجامع ومشاهد الكذب واللهو واللعب، فحياتهم كلها جد وعزم واجتهاد.

﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾ [٧٢] أي: وإذا مروا بأمثال هذه

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان (١٩٠).
(٢) التوبة: الآية ١٠٤.
(٣) طه: الآية ٨٢.

المجالس والمجامع، مروا معرضين عنها، ولم يلتفتوا إليها ويهتموا بها، مكرمين أنفسهم عن التلوث بها، كما قال تعالى: ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾[١].

ومن صفاتهم أيضاً أنهم يقبلون على القرآن الكريم، يتلون آياته ويتدبرون معاني كلماته، بصدور منشرحة، وعقول منفتحة، وقلوب خاشعة، فلا يهجرونه ويعرضون عن سماعه، كما يفعل الضالون المشركون، الذين شكاهم الرسول ﷺ إلى ربه، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾.

﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾ [٧٣] أي: والذين إذا قرىء عليهم القرآن أو وعظوا بآياته، لم يستقبلوا آيات القرآن بآذان صم وقلوب عمي، بل أقبلوا عليها مستمعين متدبرين خاشعين، يتعظون بمواعظها، ويتأدبون بآدابها، ويلتزمون بأحكامها، كما قال سبحانه: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾[٢].

وفضلاً عن كل ذلك، فهم دعاة خير وصلاح في مجتمعهم، وفي داخل أسرهم، يحرصون على صلاح أزواجهم وأولادهم، ويتوجهون إلى الله تعالى يدعونه ضارعين، يسألونه أن يصلحهم ويصلح أولادهم وأزواجهم.

﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين﴾ أي: راحة وسروراً لأعيننا، بتوفيقهم للعمل الصالح والأخلاق الكريمة،

---

(١) القصص: الآية ٥٥.
(٢) الأنفال: الآية ٢.

فإن المؤمن الصالح تقر عينه ويفيض قلبه سروراً، إذا رأى زوجه وأولاده صالحين مثله، يسيرون معه على درب الانقياد والاستسلام لله تعالى وأحكام شريعته.

﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾ [٧٤] أي: واجعلنا أئمة صلاح وهدى، وأسوة خير ورشاد، في داخل أسرنا وفي محيط مجتمعنا، فإن الدعوة إلى الهدى والصلاح من أعظم القربات والعبادات، قال تعالى: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»(٢).

هكذا فرقت آيات سورة الفرقان المهتدين عن الضالين، فأبرزت صفات الضالين وأعمالهم، ثم بينت صفات المهتدين وأعمالهم، وكما وصفت الآيات مصير الضالين، بينت أيضاً هنا مصير المهتدين، بقوله تعالى:

﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا﴾ أي: أولئك المتصفون بهذه الصفات الكريمة، يتفضل الله تعالى عليهم بالدرجة العالية في الجنة، بسبب صبرهم على أعباء ما كلفوا به من العبادات والطاعات، ومجاهدتهم لأنفسهم.

---

(١) فصلت: الآية ٣٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب العلم (٢٦٧٤).

والغرفة في الأصل البناء المرتفع العالي، فهي تدل على ارتفاع مكانة سكانه، قال تعالى: ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد﴾(١).

﴿ويلقون فيها تحية وسلاماً﴾ [٧٥] أي: ويلقون في الجنة التحية والسلام والإكرام والاحترام، كما قال تعالى: ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾(٢)، وقال سبحانه: ﴿جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾(٣).

﴿خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً﴾ [٧٦] أي: ماكثين فيها أبداً، لا يتحولون عنها حسنت منظراً وطابت مقاماً ومستقراً ومنزلاً، نسأله تعالى أن يجعلنا من أهلها.

وبعد أن فرقت الآيات بين صفات الضالين وصفات المهتدين، في الحال والمآل، ختمت السورة بأمر النبي ﷺ، أن يبين للناس جميعاً الضالين والمهتدين، حقيقة كبيرة، وهي أنه تعالى غني عن طاعتهم وعبادتهم، وأنه سبحانه ما خلقهم لحاجته إلى عبادتهم.

﴿قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم﴾ أي: ربي غني عنكم، فهو ما خلقكم إلا ليدعوكم إلى عبادته وطاعته، كما قال سبحانه: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾(٤).

---

(١) الزمر: الآية ٢٠.
(٢) الزمر: الآية ٧٣.
(٣) الرعد: الآية ٢٣ ـ ٢٤.
(٤) الذاريات: الآية ٥٦.

﴿فقد كذبتم﴾ أي: فقد كذبتم أيها الضالون رسلي، الذين أرسلتهم ليدعوكم إلى طاعتي وعبادتي، فضللتم.

﴿فسوف يكون لزاماً﴾ [٧٧] أي: فسوف يكون عذابكم أمراً ثابتاً لازماً، بسبب ضلالكم وتكذيبكم.

فالله سبحانه ما خلقنا ليعذبنا، بل خلقنا ليشرفنا بعبادته وطاعته، ويكرمنا بفضله وجنته، والضالون هم الذين عرضوا أنفسهم لسخطه وعذابه، وحرموا أنفسهم من رحمته وإحسانه، فالمسؤولية نابعة من أنفسهم، من كسبهم واختيارهم، وما يترتب عليها من حساب وجزاء واقع على أنفسهم، والله سبحانه ما ظلمهم، ولكن أنفسهم كانوا يظلمون.

والحمد لله أولاً وآخراً، أسأله تعالى أن يثبتنا على طريق الهدى والنور، ويجنبنا طرق الضلال ومزالق الشيطان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

الفهـرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
موضوع السورة	٧
تفضل وإحسان	٨
الخلق والتقدير	١٠
ظلم وزور	١٢
ضلال وفساد	١٤
إنكار المسؤولية والجزاء	١٦
المواجهة الرهيبة	١٨
الابتلاء والاختبار	٢١
الاستكبار والطغيان	٢٣
مصاحبة الضالين	٢٦
إعراض واعتراض	٢٩
تهديد الضالين ووعيدهم	٣٢
عبّاد الأهواء والشهوات	٣٥
من شواهد الحق وأدلته	٣٧
القرآن الكريم والدعوة	٤٠
الماء والحياة	٤٢
دعوة كريمة	٤٥
صفات المهتدين	٤٨
الفهرس	٥٧

العناد والعقاب

في سورة الشعراء

مِنْ مَوْضُوعَاتِ سُوَرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ
«٢٦»

العِنَادُ وَالعِقَابُ

فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ

تأليف
عبد الحميد محمود طهماز

دار القلم
دمشق

الدّار الشّاميّة
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة والموضوع

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن لله تعالى في خلقه سنناً لا تتخلف، منها معاقبة المعاندين للحق الجاحدين له، بعد أن يبينه تعالى لهم بأدلته وبراهينه وحججه، وبعد أن يمكنهم أيضاً من الانقياد له، بما أعطاهم من كسب واختيار، وبإمهالهم وتأخير العقاب عنهم، فهو العزيز الرحيم، القوي القادر، غني عن عبادتهم وطاعتهم، ومحسن ومتفضل عليهم بأسباب الهداية والسعادة.

هذا ـ فيما أرى ـ موضوع سورة الشعراء الأساسي، الذي دارت في فلكه آياتها المئتان والسبع والعشرون، والتي جاءت قصيرة قوية متلاحقة، كأنها مطارق متتابعة، تهوي على رؤوس المعاندين، لعلها تلين للحق وتذعن له.

أظهرت الآيات الأولى في السورة، عناد مشركي قريش،

وإعراضهم عن المعجزة القرآنية، في مقابل حرص النبي ﷺ على إيمانهم، وشفقته عليهم من عاقبة عنادهم.

ثم عرضت صوراً من عناد بعض الأمم السالفة، وما أدى إليه من عقاب وهلاك، وعقبت على كل موقف بما قررته في صدر السورة: ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾.

وعادت الآيات في آخر السورة إلى عناد مشركي قريش، فبينت شدته بإضافة أدلة جديدة إلى المعجزة القرآنية البيانية، التي جاءت تتناسب مع ما اشتهروا به من قوة العارضة، وفصاحة اللسان، والتمكن من البيان، فأكدت أنها تنزيل رب العالمين، بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، على النبي الكريم محمد ﷺ.

ثم دحضت شبهاتهم التي كانوا يسترون بها عنادهم، فبينت استحالة تنزل الشياطين بشيء من آيات القرآن الكريم، واستحالة نزولهم على النبي ﷺ، كما بينت بطلان زعمهم بأنها ضرب من ضروب الشعر، فلم يكن عليه الصلاة والسلام شاعراً، ولم يصدر عنه شيء منه، وحاله عليه السلام ودعوته وأتباعه وأصحابه، لا تتفق أبداً مع حال الشعراء وأتباعهم وما يصدر عنهم.

ثم توجت الآيات كل ذلك بخاتمة فيها وعيد شديد للمعاندين، الذين ظلموا أنفسهم، وظلموا الحقيقة بجحودهم وعنادهم، فعقابهم أمر لازم لا بد منه، ولا ينتهي هذا العقاب عند حدود الدنيا الفانية، بل يمتد إلى ما بعد الموت، حيث الخلود في العذاب: ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ فالعناد يؤدي لا محالة إلى العقاب والخلود في العذاب.

أسأله تعالى أن يجعلنا من الذين ينقادون للحق ويذعنون له، وأن يثبتنا على طريقه، وأن يقينا شؤم عناد المعاندين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين.

الفقير إلى الله تعالى
عبد الحميد طهماز
١٢/ ٣/ ١٤١٣
٩/ ٩/ ١٩٩٢

مكة المكرمة
المعهد العالي لإعداد
الأئمة والدعاة

إشفاق وإعراض

بدأ تعالى سورة الشعراء بالحروف التالية:

﴿طسم﴾ [١] سبق الحديث عن هذه الحروف في سور سابقة، ويلاحظ هنا تشابه في فواتح السور الثلاث المتوالية: الشعراء والنمل والقصص، لوجود حرفي الطاء والسين متواليين في فواتحها، حتى إن بعض المفسرين أطلق على هذه السور اسم الطواسين.

﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ [٢] أي: هذه آيات الكتاب البين إعجازه، أو المبين للأحكام الشرعية، أو الفارق بين الحق والباطل، كما سبق في أول سورة الفرقان.

﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ [٣] أي: لعلك يا نبي الله قاتل نفسك أسفاً وحسرةً، لعدم إيمان قومك بذلك الكتاب المبين.

وأصل البخع أن يبلغ بالذبح البخاع، وهو عرق مستبطن الفقار، وذلك أقصى حد الذبح.

وكلمة ﴿لعلك﴾ للإشفاق، أي: أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ما فاتك من إسلام قومك(١).

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٣٣.

وكان ﷺ حريصاً على إسلام قومه، يتألم من إعراضهم وعنادهم، ويشفق عليهم أن يموتوا على كفرهم وشركهم، فيستحقوا الخلود في العذاب، كما في قوله تعالى: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾[1].

وقوله سبحانه: ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون﴾[2].

ثم بين تعالى أنه قادر على إجبارهم على الإيمان وإلجائهم إليه، فقال:

﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾[٤] أي: إن نشأ إجبارهم على الإيمان، ننزل عليهم آية، فيظلوا لها منقادين خاضعين، فلا يلوي أحدهم عنقه إباء وعناداً.

وأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع، وقد يكون المراد منها رؤساءَهم وزعماء الضلال فيهم، أو جماعاتهم، يقال: جاءنا عنق من الناس، لفوج منهم[3].

والله جل وعلا قادر على إجبارهم على الإيمان، كما قال سبحانه: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾[4].

---

(١) الكهف: الآية ٦.

(٢) فاطر: الآية ٨.

(٣) تفسير النسفي ٤/ ٤٦٣.

(٤) يونس: الآية ٩٩.

ولكنه تعالى قدر أن يكون للإنسان اختيار وكسب، وجعل هذا الاختيار والكسب أساس تكليفه ومسؤوليته وجزائه يوم القيامة.

وأصر القوم باختيارهم وكسبهم على ضلالهم وكفرهم، وأعرضوا عن دعوة الحق المؤيدة بالأدلة والبراهين:

﴿وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين﴾[٥] فكلما جدد تعالى لهم بوحيه موعظة وتذكيراً، جددوا إعراضاً وعناداً وكفراً، فلقد أنزل تعالى عليهم آيات القرآن مفرقة منجمة، تجديداً لتذكيرهم وموعظتهم، وتنبيهاً إلى ما فيها من أدلة جديدة ملزمة وحجج بالغة، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً * ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾[١].

ومع ذلك أصر القوم على إعراضهم وعنادهم وتكذيبهم:

﴿فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ [٦] أي: كذبوا بكل الآيات التي أنزلها تعالى عليهم، فسيأتيهم أخبار وعاقبة تكذيبهم واستهزائهم.

وكما أعرض القوم عن الأدلة في الآيات القرآنية الكريمة، أعرضوا أيضاً عن الأدلة المبثوثة في المكونات والمخلوقات السماوية والأرضية، وما أكثرها.

﴿أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ [٧] أي: أو لم ينظروا كم أنبت تعالى في الأرض، من أصناف كثيرة

---

(١) الفرقان: الآيات ٣٢ ـ ٣٣.

المنافع، تدل على وحدة خالقها وحكمته ورحمته وإحسانه.

فالكريم صفة لكل ما يحمد ويرضى، وأصل الكرم في اللغة الشرف والفضل، فنخلة كريمة أي: فاضلة كثيرة الثمر، ورجل كريم، شريف فاضل صفوح(١).

وتشير الآية إلى الزوجية المبثوثة في أصناف النباتات، وهي حقيقة علمية اكتشفها الإنسان المعاصر، وذكرها تعالى في مواضع متعددة من التنزيل الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عيها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾(٢)، ومنها قوله سبحانه: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾(٣).

العزيز الرحيم

﴿إن في ذلك لآية﴾ أي: إن في كل واحد من تلك الأصناف والأزواج، آية عظيمة دالة على كمال قدرة منبتها وخالقها، وسعة علمه، وتمام حكمته، وعظيم رحمته وإحسانه، تلزم بالإيمان، ومع ذلك:

﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ [٨] أي: وما كان أكثر الناس في الحقيقة والواقع مؤمنين، مما يدل على شدة عنادهم، وغاية ضلالهم وجهلهم، كما قال سبحانه: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين * وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين * وكأين من آية في

---

(١) تفسير القرطبي ١٣/٩٦.

(٢) الحج: الآية ٥.

(٣) يس: الآية ٣٦.

السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾[١].

فالآية تقرر حقيقة واقعة مشاهدة في كل عصر ومصر، والمراد من الأكثرية، أكثرية الناس مطلقاً، وليس المراد مشركي قريش وحدهم، كما ذهب بعض المفسرين، وخصوص السبب لا يعني خصوص الحكم إذا كان اللفظ عاماً.

﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ [٩] أي: إنه جل وعلا الغالب القوي القاهر، القادر على الانتقام منهم، وإنه أيضاً المبالغ في الرحمة، ولذلك يمهلهم ولا يعاجلهم بالعقوبة.

ففي هذين الاسمين الكريمين من أسمائه الحسنى، دلالة على غناه وكمال قدرته وقوته، مع عظيم إحسانه وفضله، وسعة كرمه وجوده، فما خلق سبحانه الخلق إلا بمحض مشيئته واختياره، وما كلفهم بطاعته وعبادته إلا ليرحمهم ويحسن إليهم، فهو غني عن عبادتهم وطاعتهم، وإعراضهم عن طاعته وعبادته، ومعاندتهم لرسله، يحرمهم من فضله تعالى وآثار رحمته، ويعرضهم لسخطه وعذابه وانتقامه.

تلك هي الأفكار الأساسية الكبرى، التي تدور آيات السورة في فلكها، فلا عجب أن يتكرر تقرير هذه الحقائق، بعد عرض مواقف العناد والعقاب عند الأمم الماضية: ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾.

ولا شك أن فيها أيضاً مواساة للنبي ﷺ، وتخفيفاً لأسفه وحزنه على قومه وشفقته عليهم أن يحل بهم عذابه تعالى وانتقامه، فسنته تعالى

---

(١) يوسف: الآيات ١٠٣ ـ ١٠٥.

لا تتخلف في إهلاك الجاحدين المعاندين، كما أن فيها تأكيداً لصدق رسالته وصحة نبوته، وأن القرآن الكريم الذي ينزل عليه، إنما هو كلام الله تعالى المعجز، ينزل بأمره تعالى ومشيئته على النبي ﷺ.

رسالة موسى وهارون عليهما السلام

بدأت الآيات عرضها لمواقف العناد من دعوة الأنبياء عليهم السلام، بالحديث عن موقف فرعون، ومعاندته لدعوة موسى عليه السلام، المؤيدة بالبراهين العقلية والمعجزات الحسية:

﴿وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين﴾ [١٠] أي: اذكر إذ نادى ربك موسى وكلفه أن يذهب إلى القوم الظالمين.

ودلت الآية على أنه من الواجب على الداعية أن يذهب بنفسه إلى المَدْعُوِّين، يأتيهم في بلادهم وبيوتهم ومجتمعاتهم.

وكان النبي ﷺ يفعل ذلك، فقد كان يطوف على القبائل في منازلهم، في الأسواق ومواسم الحج، كما كان يرسل أصحابه إلى بلادهم وديارهم، ويذهب أحياناً بنفسه، كما فعل عندما سافر إلى الطائف ليبلغ ثقيف دعوة الله تعالى.

ثم بينت الآيات هوية الظالمين الذين أرسل إليهم موسى عليهم السلام:

﴿قوم فرعون ألا يتقون﴾ [١١] أي: ائت قوم فرعون، وقل لهم: اتقوا الله تعالى، بطاعته وعبادته وحده، وترك المعاصي والظلم والفجور.

﴿قال رب إني أخاف أن يكذبون﴾ [١٢] أي: إني أخاف أن

يبادروا إلى تكذيبي، فأصاب بضيق الصدر.

﴿ويضيق صدري ولا ينطلق لساني﴾ أي: ولا أستطيع رد تكذيبهم بسبب ما يعتريني من ضيق الصدر، وبسبب خلل في نطقي وكلامي.

وكان في نطقه عليه السلام بعض الخلل والنقص، فسأل الله تعالى أن يزيله عنه، كما سأله أيضاً أن يجعل أخاه هارون مساعداً له في أداء الرسالة.

﴿فأرسل إلى هارون﴾ [١٣] أي: اجعل أخي هارون رسولاً، كما في قوله تعالى: ﴿قال رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري * واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي * واجعل لي وزيراً من أهلي * هارون أخي * اشدد به أزري * وأشركه في أمري * كي نسبحك كثيراً * ونذكرك كثيراً * إنك كنت بنا بصيراً﴾(١).

﴿ولهم عليّ ذنب﴾ أي: ولقوم فرعون عليّ تبعة ذنب، وهو قتل رجل منهم، ضربه موسى دفاعاً عن رجل مظلوم، فأدى ذلك إلى موته، قال تعالى: ﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضىٰ عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين﴾(٢).

﴿فأخاف أن يقتلون﴾ [١٤] أي: فأخاف أن يقتلوني لهذا السبب.

وما أراد عليه السلام بكلماته هذه إلا إظهار ضعفه وشدة احتياجه إلى معونة ربه، ليقوم بتبليغ الرسالة على أحسن الوجوه وأكملها.

(١) طه: الآيات ٢٥ ـ ٣٥.

(٢) القصص: الآية ١٥.

واستجاب سبحانه لدعائه وأرسل إلى هرون، وأمره بمعونته وتأييده، وآتاه سُؤْله.

﴿قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون﴾ [١٥] أي: اترك هذه الظنون والمخاوف، واذهب أنت وأخوك مؤيداً بالمعجزات، إنا معكم بالمعونة والنصرة، سامعون كل ما يجري بينكما وبين فرعون، كما قال سبحانه: ﴿قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾[١].

﴿فائتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين﴾ [١٦] أي: إنا أرسلنا إليك من رب العالمين.

وأفرد ﴿رسول﴾ للدلالة على وحدة رسالتهما، أو لأنه مصدر بمعنى الرسالة، فيستوي بالوصف به المفرد والمثنى والجمع.

﴿أن أرسل معنا بني إسرائيل﴾ [١٧] أي: أطلق بني إسرائيل من طغيانك وظلمك، واتركهم أحراراً ليخرجوا معنا من مصر.

وهذا دليل على أن مهمة موسى وهارون هي تبليغ فرعون وقومه دعوة الله تعالى، وتخليص بني إسرائيل من طغيانه وظلمه، كما قال سبحانه: ﴿فائتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى﴾[٢].

وهذا يدل على أن من مقاصد دعوة الأنبياء الأساسية، نصرة المظلومين وتخليصهم من طغيان الظالمين وبغيهم وفسادهم، وتدل أيضاً على أن موسى أرسل إلى فرعون وقومه كما أرسل إلى بني إسرائيل، وليس صحيحاً قول سيد قطب أنه لم يكن رسولاً إلى فرعون

---

(١) طه: الآية ٤٦.

(٢) طه: الآية ٤٧.

وقومه، ليدعوهم إلى دينه، ويأخذهم بمنهج رسالته، وإنما كان رسولاً إليهم ليطلب إطلاق بني إسرائيل، ليعبدوا ربهم كما يريدون، وقد كانوا أهل دين منذ أبيهم إسرائيل، وهو يعقوب أبو يوسف عليهما السلام، فبهت هذا الدين في نفوسهم، وفسدت عقائدهم، فأرسل الله إليهم موسى لينقذهم من ظلم فرعون، ويعيد تربيتهم على دين التوحيد(١).

ولا أدري السبب الذي حمله رحمه الله على حصر رسالة موسى في بني إسرائيل، وتغافله عن الآيات الكثيرة، القاطعة بأنه أرسل مباشرة إلى فرعون ومَلَئِهِ، منها قوله تعالى: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى * فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى﴾(٢)، ومنها قوله سبحانه: ﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾(٣).

المحاورة

وبعد أن بينت الآيات رسالة موسى وهارون عليهما السلام، تجاوزت كثيراً من حلقات القصة وأحداثها، وانتقلت مباشرة إلى وصف مواجهة موسى وهارون للطاغية، وحكاية المحاورة في هذه المواجهة بين الجانبين، فأظهرت بذلك شدة عناد فرعون وقومه، وجحودهم للبراهين الساطعة والحجج القاطعة، التي واجههم بها النبيان الكريمان موسى وهارون عليهما السلام.

فبعد أن أدى موسى لفرعون الرسالة، تغافل عنها فرعون، وأقبل

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٩٠.

(٢) النازعات: الآيات ١٧ ـ ١٩.

(٣) طه: الآيات ٤٣ ـ ٤٤.

على موسى يمن عليه بما قدمه له عندما كان صغيراً ناشئاً في قصره.

﴿قال ألم نُـرَبِّـكَ فينا وليداً ولبثـت فينا من عمرك سنين﴾ [١٨] أي: ألم نعمل على تنشئتك وتربيتك عندما كنت حديث عهد بالولادة، ومكثت تتمتع برعايتنا سنين كثيرة من عمرك.

﴿وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين﴾ [١٩] أي: فقابلت نعمتنا عليك بالجحود والكفران، وقتلت رجلاً منا.

﴿قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين﴾ [٢٠] أي: قال موسى: فعلت ما فعلت وأنا حينئذ من الضالين البعيدين عن الرسالة والنبوة، أو: كنت من الجاهلين لعاقبة ما فعلت، فما كنت أحسب أني قاتله بمجرد وكزة واحدة. وما أراد عليه السلام ضلال أهل الجاهلية وكفرهم، فالأنبياء محفوظون منذ صغرهم من مثل هذا الضلال.

﴿ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين﴾ [٢١] أي: ففررت خوفاً من ظلمكم وبغيكم، فوهب لي ربي النبوة، وأكرمني بحمل الرسالة، وجعلني من المرسلين.

ثم رد عليه السلام منة فرعون عليه بأسلوب التهكم، تقليلاً لشأنها، بالكشف عن سببها، وهو ظلم فرعون وطغيانه، فقال:

﴿وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل﴾ [٢٢] أي: وهذه النعمة التي تمنها عليّ ليست فـي الحقيقة إلا بسبب استعبـادك لبني إسرائيل ، عندما أمرت بذبـح أبنائهم واستحياء نسائهم، فلولا ذلك لكفلني أهلي وما ألقوني في اليم، وما وصلت إلى قصرك ونشأت فيه.

هكذا بكل هذا الثبات والجرأة والثقة، رد موسى عليه السلام منة

الطاغية الكبير عليه، مما حمله على الانتقال إلى موضوع رسالة موسى، والاعتراض عليها.

﴿قال فرعون وما رب العالمين﴾ [٢٣] أي: ما حقيقة رب العالمين، الذي تدّعي أنه أرسلك.

ورد عليه موسى ببيان بعض أفعاله تعالى وآثار قدرته، لامتناع معرفة كنه ذاته جل وعلا.

﴿قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين﴾ [٢٤] أي: إن كنتم موقنين بشيء قط، فرب السماوات والأرض وما بينهما أولى وأحق ما توقنون بأنه ربكم.

ودهش فرعون من قوة جواب موسى وظهور حجته، فالتفت إلى رجال حاشيته المحيطين به، مخاطباً لهم:

﴿قال لمن حوله ألا تستمعون﴾ [٢٥] وكأنه يطلب منهم إسعافه بجواب يرد به على موسى، ولكنه عليه السلام بادرهم بالكلام، مضيفاً دليلاً آخر بأسلوب التحدي لهم.

﴿قال ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ [٢٦] فهو تعالى ربكم ورب آبائكم الأولين شئتم أم أبيتم، فهي حقيقة لا تستطيعون تجاهلها.

ولاحظ فرعون أن موسى عليه السلام قد تمكن من السيطرة على عقول القوم ومشاعرهم، بقوة حججه ووضوح براهينه، فحاول صرفهم عن التفكير في كلمات موسى وأدلته، فعدل إلى الاستهزاء والسخرية من موسى، واتهامه بالجنون.

﴿قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ [٢٧] وسماه رسولاً تهكماً واستهزاءً، وفطن موسى إلى مراد فرعون، فأعرض عن

الرد المباشر لفريته وسخريته، وأضاف دليلاً آخر ملزماً.

﴿قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾ [٢٨] أي: إن كنتم حقاً من أهل العقل والتفكير والتمييز، علمتم أن ربكم هو رب المشرق والمغرب وما بينهما.

ولا يخفى ما في كلماته عليه السلام من التعريض بوصفهم بصفة الجنون، وعدم التعقل والتمييز، إذا أعرضوا عن هذه الأدلة الباهرة القاطعة، والحجج البالغة الملزمة.

عناد وانقياد

ولما رأى فرعون أنه وحاشيته لا حجة لهم في عقائدهم الفاسدة، لجأ إلى لغة التهديد والوعيد، شأنه في هذا شأن جميع المستبدين المعاندين في كل زمان ومكان.

﴿قال لئن اتخذت إلّهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ [٢٩] أي: لأجعلنك ممن عرفت أحوالهم في سجوني الرهيبة المخيفة.

وهذا يدل على غاية عناده وعتوه وطغيانه، فهو لا يريد من موسى أن يتخلى عن رسالته فقط، بل يريد منه أن يتخذه إلّهاً ومعبوداً من دون الله تعالى، وقد كان يدعي لنفسه صفة الألوهية والربوبية، وقد حكى ذلك عنه تعالى في قوله الكريم: ﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إلّه غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إلّه موسى وإني لأظنه من الكاذبين﴾[١]، وقال تعالى: ﴿فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال

---

(١) القصص: الآية ٣٨.

الآخرة والأولى﴾[١].

ولم يأبه موسى لتهديده ووعيده، ورأى أنه قد حان الوقت لمواجهته بالمعجزات الإلّهية التي أيده تعالى بها، بعد أن طوقه بحججه العقلية الفكرية.

﴿قال أولو جئتك بشيء مبين﴾ [٣٠] أي: بأمر واضح ظاهر، يدل على صدق رسالتي، وكمال قدرة رب العالمين الذي أرسلني.

وهو تحدٍ جديد، لا بد لفرعون أن يستجيب له أمام حاشيته وأعوانه.

﴿قال فائت به إن كنت من الصادقين﴾ [٣١] أي: فيما تقول وتدعي.

﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ [٣٢] أي: فإذا هي ثعبان حقيقي ظاهر، ليس فيه تخييل ولا تزوير.

﴿ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ [٣٣] أي: ونزع موسى يده من تحت إبطه بعد أن أدخلها فيه، فإذا هي بيضاء بياضاً منيراً متلألئاً، تجذب إليها أنظار الناظرين.

ولا شك أن فرعون وحاشيته قد بهروا بسلطان المعجزتين، ولكن عنادهم جعلهم يخفون تأثرهم وانفعالهم، ويظهرون غير ما يبطنون، كما قال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾[٢].

---

(١) النازعات: الآيات ٢٣ ـ ٢٥.

(٢) النمل: الآية ١٤.

﴿قال للملأ حوله إنَّ هذا لساحر عليم﴾ [٣٤] أي: قال فرعون لمن حوله إن موسى لساحر عليم بفن السحر.

﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون﴾ [٣٥] أي: يريد أن يستولي على سلطانكم وملككم في أرضكم بسحره، فماذا تأمرون فيه؟.

ولقد وشت كلمات فرعون هذه، بشدة انفعاله وتأثره برؤية المعجزتين، حتى حط ذلك من كبريائه وادعائه الألوهية والربوبية، إلى مشاورة أفراد حاشيته، والائتمار بأمرهم، والاستعانة بهم على موسى، وتذكيرهم بخطره على مناصبهم ورتبهم وامتيازاتهم، وهو نفس الأسلوب الذي يلجأ إليه الطغاة المستبدون، فإنهم يبادرون إلى اتهام كل معارض لطغيانهم واستبدادهم، بالطمع بالملك والسلطان والاستئثار به دونهم.

﴿قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين﴾ [٣٦] أي: أخر أمرهما وابعث في المدن رجالاً، يجمعون لك السحرة المهرة.

﴿يأتوك بكل سحار عليم﴾ [٣٧] لكي يتحدوا موسى ويظهروا بطلان سحره.

﴿فجمع السحرة لميقات يوم معلوم﴾ [٣٨] أي: يوم مشهور عندهم، فقد كان يوم عيد وزينة لهم، قال تعالى: ﴿قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى﴾[١].

وقام رجال حاشية فرعون بحملة دعائية كبيرة لجمع الناس،

---

(١) طه: الآية ٥٩.

ودسوا بينهم الدعاة يحثونهم على الاجتماع لتشجيع السحرة.

﴿وقيل للناس هل أنتم مجتمعون [٣٩] لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين﴾ [٤٠] وهذا يدل على أنهم نظموا حملة دعائية لإثارة الرأي العام ضد دعوة موسى عليه السلام، ظناً منهم أن الحق يضيع ويضمحل أمام طوفان الباطل وصراخ رعاع الناس وغوغائهم.

وانتهز السحرة المناسبة ليحققوا لأنفسهم بعض المكاسب المادية، شأنهم في هذا شأن الانتهازيين، الذين يتملقون الطغاة المستبدين، لتحقيق مصالحهم.

﴿فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أإنَّ لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾ [٤١] فما كان من فرعون إلا أن أطعمهم بالمال والمراتب، فالطغاة المستبدون لا يجدون من يؤيدهم في صفوف الأمة، إلا المنافقين والمداهنين والانتهازيين.

﴿قال نعم وإنكم لمن المقربين﴾ [٤٢].

وانتقلت الآيات إلى ميدان المواجهة:

﴿قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون﴾ [٤٣] قال لهم ذلك بعد أن قالوا له ﴿يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى﴾[١].

﴿فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾[٤٤] أي: قالوا ذلك على جهة التعظيم والقسم باسمه، ولا شك أنه نوع من التزلف له، لينالوا ما وعدهم به من الرتب والمراتب، يقابله فرعون وأمثاله بمزيد من التكبر والانتفاش.

---

(١) طه: الآية ٦٥.

وقد شاع ـ مع الأسف ـ في كثير من المجتمعات الإسلامية، مثل هذه الأيمان، مع أن الحلف بغير الله تعالى محرم، ففي الحديث الشريف عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ، أدرك عمر بن الخطاب في ركب، وعمر يحلف بأبيه، فناداهم رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»(١).

وعن عبد الرحمن بن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بالطواغي ولا بآبائكم»(٢).

والطواغي تشمل كل من طغى وجاوز القدر المعتاد في الشر.

ولم يطل زهو فرعون وانتفاشه:

﴿فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾ [٤٥] أي: فإذا هي تتحول بتقديره تعالى إلى حية عظيمة، تبتلع بسرعة كل آلات تزويرهم وتمويههم من حبال وعصي.

فما كان من السحرة أمام عظمة المعجزة وقوة برهانها، إلا السجود على الأرض لله رب العالمين، معلنين إيمانهم به وتصديقهم برسالة موسى عليه السلام.

﴿فألقي السحرة ساجدين﴾ [٤٦] أي: بدون تردد ولا توقف، كأن ملقياً ألقاهم.

﴿قالوا آمنا برب العالمين [٤٧] رب موسى وهارون﴾ [٤٨] وبهذا دفعوا أي توهم أنهم أرادوا فرعون، فإيمانهم برب العالمين، الذي يدعو موسى وهارون إلى عبادته وطاعته.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الأيمان (١٦٤٦).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الأيمان (١٦٤٨).

وتحول زهو فرعون وانتفاشه إلى غضب شديد، صبه على السحرة الساجدين لرب العالمين.

﴿قال آمنتم له قبل أن آذن لكم﴾ فالرجل غاضب لكبريائه المجروح، بسبب مبادرة السحرة إلى الإيمان بالله تعالى، من غير استئذانه.

وليس في قوله دلالة على أنه يمكن أن يأذن لهم، فأمثاله من المغرورين المعاندين لا يرجى منهم أي خير، ولا يأذنون به.

﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ أي: إن موسى هو الذي علمكم السحر، فأنتم متآمرون معه على ذلك.

وأراد فرعون بهذا أن يضل الجماهير عن الحقيقة، لئلا يتأثروا بموقف السحرة، ولهذا اتهمهم بالتآمر مع موسى، قال تعالى: ﴿قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون﴾[1].

وهو الأسلوب نفسه الذي اعتاد المستبدون اللجوء إليه، لقمع معارضي ظلمهم واستبدادهم.

﴿فلسوف تعلمون﴾ أي: تعلمون وبال تآمركم.

﴿لأقطِّعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنّكم أجمعين﴾ [٤٩] أي: لأقطعن اليد اليمنى والرجل اليسرى، ولأصلبنكم على جذوع النخل.

ولم يتأثر السحرة بتهديد فرعون، بعد أن أشرقت في قلوبهم

---

(١) الأعراف: الآية ١٢٣.

جذوة الإيمان، وتذوقت نفوسهم لذته وحلاوته، فردوا عليه بثبات واستعلاء.

﴿قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون﴾ [٥٠] أي: لا ضرر لنا في ذلك، بل لنا فيه نفع عظيم، بما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله تعالى من تكفير الخطايا والثواب العظيم.

أو: لا ضير علينا فيما تتوعدنا به من القتل، إنه لا بد لنا من الانقلاب إلى ربنا بأي سبب من أسباب الموت[١].

﴿إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين﴾ [٥١] أي: أول المصدقين برسالة موسى عليه السلام، فالسبق إلى الخير فضيلة كبيرة، أكرم الله تعالى بها السحرة، ببركة صدقهم وإخلاصهم وانقيادهم للحق، عندما رأوا أدلته وبراهينه.

عقاب المعاندين

وبعد أن أظهرت الآيات عناد فرعون وقومه، بجانب انقياد السحرة للحق وإذعانهم له، طوت الآيات صفحات كثيرة من قصة موسى وفرعون، فصلتها في سورة الأعراف، وانتقلت مباشرة إلى بيان عاقبة العناد والطغيان، والعذاب الذي أنزله تعالى بهم.

﴿وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون﴾ [٥٢] أي: اخرج بهم ليلاً، إن فرعون سيتبعكم بجنوده.

وحدث ما أخبر تعالى، فلما علم فرعون بخروج موسى مع بني إسرائيل، استنفر جنوده وجمع جيوشه.

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٦٣.

﴿فأرسل فرعون في المدائن حاشرين﴾ [١٥٣] أي: أرسل الجامعين للجنود، وخطب فيهم قائلاً:

﴿إن هؤلاء لشرذمة قليلون﴾ [٥٤] أي: إن بني إسرائيل لطائفة قليلة، بالنسبة لما عنده من جيوش وجنود.

﴿وإنهم لنا لغائظون﴾ [٥٥] أي: إنهم فعلوا ما أغضبنا عليهم.

﴿وإنا لجميع حاذرون﴾ [٥٦] أي: وإن من عادتنا الحذر والتيقظ، واستعمال القوة في مثل هذه الأحوال.

وعقبت الآيات على تصرفات فرعون وكلماته، بقوله تعالى:

﴿فأخرجناهم من جنات وعيون [٥٧] وكنوز ومقام كريم﴾ [٥٨] أي: بهذا جعلناهم يخرجون من قصورهم وبساتينهم وأموالهم، وجميع ما كانوا عليه من مظاهر سرفهم وترفهم.

﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾ [٥٩] أي: جعلناهم المالكين لها بعدهم، كما قال سبحانه: ﴿كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوماً آخرين﴾[١].

فهو سبحانه مالك الملك، ينزعه ممن يشاء، ويعطيه من يشاء، وكل تحول وتغير يتم بإرادته ومشيئته تعالى وسابق علمه.

ثم فصلت الآيات تتابع الأحداث:

﴿فأتبعوهم مشرقين﴾ [٦٠] أي: عند شروق الشمس.

﴿فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون﴾ [٦١]

---

(١) الدخان: الآية ٢٥ ـ ٢٨.

أي: لما اقترب الجمعان من بعضهما، وأصبح كل جمع على مرأى من الآخر، غلب على بني إسرائيل الخوف والوهن، وقالوا إنا واقعون لا محالة في قبضة فرعون وجنوده، فالبحر أمامنا وهم خلفنا.

ولكن موسى عليه السلام زجرهم عن مثل هذه الكلمات، الدالة على الخوف والجبن واليأس.

﴿قال كلا إنَّ معي ربي سيهدين﴾ [٦٢] أي: قال موسى: انزجروا عن ذلك وارتدعوا، فإنهم لا يدركونكم، لأنه تعالى معي ينصرني ويهديني إلى طريق السلامة.

ويلاحظ أنه عليه السلام لم يقل: إن الله معنا، كما قال النبي ﷺ لأبي بكر عندما كانا في الغار، ولعل السبب أن موسى عليه السلام كان يعلم حقيقة ما تنطوي عليه قلوب كثير من بني إسرائيل، من النوايا السيئة، وسوء الظن بالله تعالى، والتي أظهرتها بعد ذلك الأحداث اللاحقة، كعبادتهم العجل وتخاذلهم عن تنفيذ أمر موسى بالجهاد.

وجاء الفرج من الله تعالى في اللحظة الحاسمة الحرجة:

﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر﴾ أي: أمرنا موسى بواسطة الوحي أن يضرب البحر بعصاه.

﴿فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم﴾ [٦٣] أي: فضربه فانشق عن طريق يابس، وأصبح الماء على جانبيه كالجبل المنيف الراسخ، كما قال سبحانه: ﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى﴾[١].

وفي الآية حذف، فيه إشارة إلى سرعة امتثاله عليه السلام،

---

(١) طه: الآية ٧٧.

وسرعة ترتب الانفلاق على الضرب، وإنما أمر عليه السلام بالضرب فضرب، وترتب الانفلاق عليه، إعظاماً لموسى عليه السلام، بجعل هذه المعجزة العظيمة مترتبة على فعله، ولو شاء الله لفلقه بدون ضربه بالعصا[1].

وتم مراده تعالى بإهلاك الطاغية وجيوشه، ونجاة موسى وبني إسرائيل.

﴿وأزلفنا ثم الآخرين﴾ [٦٤] أي: قربنا فرعون وجنوده من بني إسرائيل، حتى دخلوا وراءهم.

﴿وأنجينا موسى ومن معه أجمعين﴾ [٦٥] أي: أنجيناهم من الهلاك في أيدي أعدائهم، ومن الغرق في البحر.

﴿ثم أغرقنا الآخرين﴾ [٦٦] أي: أغرقناهم بإطباق البحر عليهم، كما قال سبحانه: ﴿فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾[2] وقال أيضاً: ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾[3].

واكتفت الآيات بهذا المقدار من قصة موسى، وعقبت عليها بقوله تعالى:

﴿إن في ذلك لآية﴾ أي: إن في هذه القصة العجيبة برهاناً واضحاً، يدل على كمال قدرة الله تعالى وتمام مشيئته، توجب الإيمان به، وتلزم بتصديق دعوة نبيه عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك:

---

(١) روح المعاني ١٩/٨٦.
(٢) طه: الآية ٧٨.
(٣) القصص: الآية ٤٠.

﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ [٦٧] وهذا يدل على شدة عنادهم وقسوة قلوبهم.

﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ [٦٨] أي: وإن ربك لهو القاهر القادر على إهلاكهم، كما أهلك فرعون وجنوده، وهو رحيم، ولهذا يؤخر عقابهم لعلهم ينقادون للإيمان ويدخلون في الإسلام.

انقياد إبراهيم لله رب العالمين

لم تلتزم الآيات في سورة الشعراء، بالتسلسل التاريخي، حيث عرضت أولاً مواقف العناد والعقاب في قصة موسى وفرعون، مع أنها متأخرة عن غيرها، ثم ثنت بعرض قصة إبراهيم عليه السلام، مع أبيه وقومه، وأبرزت فيها استسلامه وانقياده لله رب العالمين، في مقابل عناد أبيه وقومه، مع أن هذه القصة متقدمة في الزمن كثيراً عن عصر موسى عليه السلام.

﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم﴾ [٦٩] أي: اتل يا محمد على المعاندين من مشركي مكة، نبأ نبي الله إبراهيم.

﴿إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون﴾ [٧٠] وسؤاله عليه السلام لم يكن سؤال استعلام، وإنما سؤال استنكار لعبادتهم معبودات لا تستحق العبادة.

﴿قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين﴾ [٧١] أي: فنظل مقيمين على عبادتها، ولا شك أنهم قالوا ذلك افتخاراً وتبجحاً.

وقابل عليه السلام تبجحهم وافتخارهم بعبادة الأصنام، بالهجوم عليها وإظهار عجزها، وعدم استحقاقها للعبادة.

﴿قال هل يسمعونكم إذ تدعون[٧٢]أو ينفعونكم أو يضرون﴾[٧٣] وبهذا حصرهم عليه السلام بقوة حججه، وأظهر لهم عجز معبوداتهم، فأضربوا عن إجابته إلى التصريح بأنهم يقلدون آباءهم في عبادتها.

﴿قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ [٧٤] فلا حجة لهم إلا تقليد آبائهم تقليداً أعمى.

ووجد عليه السلام في جوابهم هذا، فرصته المناسبة ليعلن براءته من جميع معبوداتهم لعلهم يقتدون به، بعد أن أظهر لهم عجزها وعدم استحقاقها للعبادة.

﴿قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون [٧٥] أنتم وآباؤكم الأقدمون [٧٦] فإنهم عدو لي إلا رب العالمين﴾ [٧٧] أي: فكل معبوداتكم عدو لي، لكن رب العالمين هو معبودي الذي يستحق العبادة.

وأراد عليه السلام بهذا الاستثناء أن يذكرهم بالمعبود الحقيقي، وأن يشد أفكارهم وعقولهم إليه.

ثم تابع عليه السلام كلامه، مبيناً فضله تعالى وإحسانه عليه، وشدة افتقاره عليه السلام إلى هذا الفضل والإحسان.

﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾ [٧٨] فهو يهدي كل مخلوق لما خلق له من أمور المعاش والمعاد، كما قال سبحانه: ﴿والذي قدر فهدى﴾[١].

فهدايته تعالى مدرجة من مبدأ إيجاده للمخلوق، إلى منتهى

---

(١) الأعلى: الآية ٣.

أجله، مبدؤها بالنسبة للإنسان هداية الجنين إلى امتصاص غذائه من دم الرحم، ومنتهاها الهداية إلى طريق الجنة والنعيم[1].

﴿والذي هو يطعمني ويسقين﴾ [٧٩] أي: هو سبحانه الذي يمدني بأسباب الحياة من طعام وشراب.

﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ [٨٠] أي: هو وحده الذي يبرئني من مرضي ويعافيني.

وبلغ عليه السلام في هذه الكلمات غاية الأدب مع الله تعالى، فنسب المرض إلى نفسه والشفاء إلى ربه، مع أن كل شيء بمشيئته تعالى وإرادته.

والإنسان يتسبب بسوء كسبه واختياره بخلق الشر، كما قال تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾[2].

فالشر منا تسبباً، ومن الله خلقاً وإيجاداً، قال تعالى: ﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾[3].

وتابع عليه السلام إظهار شدة افتقاره لله تعالى، وإعلان استسلامه له جل وعلا:

﴿والذي يميتني ثم يحيين﴾ [٨١] أي: بيده تعالى موتي وحياتي،

---

(١) تفسير البيضاوي ٤/٤٧٨.
(٢) الشورى: الآية ٣٠.
(٣) النساء: الآية ٧٨.

وهو وحده القادر على الإماتة والإحياء، وبعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء.

وأكد عليه السلام هذه الحقيقة بقوله بعد ذلك:

﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ [٨٢] أي: وهو الذي أرجو مغفرته يوم الحساب والجزاء.

واستغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم، وهضم لأنفسهم، وتعليم للأمم في طلب المغفرة[١].

وأكد عليه السلام شدة افتقاره واحتياجه لربه، بأن توجه إليه يدعوه بضراعة وخشوع.

﴿رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين﴾ [٨٣] أي: هب لي حكمة وحسن فهم وتمييز، ووفقني لأسير على طريق الصالحين، لأكون يوم القيامة معهم. وهذا تعريض بقومه، الذين عطلوا مداركهم وعقولهم، وقلدوا آباءهم تقليداً أعمى وساروا وراءهم على طريق الضلال.

﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ [٨٤] أي: اجعل لي ثناءً حسناً وذكراً جميلاً، في الأعقاب والأجيال المتوالية بعدي، وذلك بتوفيقي للأعمال الحسنة، التي تبقى آثارها ومنافعها ماثلة في ذاكرة الأمم والشعوب.

ولا تزال أعمال إبراهيم عليه السلام الخالدة، معالم حق وهدى بين الأمم والشعوب، ومن أبرزها دعوة التوحيد، ورفع قواعد بيت الله

---

(١) تفسير النسفي ٤/٤٧٨.

الحرام، وقصة الذبح والفداء، قال تعالى تعقيباً على قصة الذبح والفداء: ﴿وتركنا عليه في الآخرين * سلام على إبراهيم * كذلك نجزي المحسنين﴾(١).

﴿واجعلني من ورثة جنة النعيم﴾ [٨٥] أي: أدخلني برحمتك جنة النعيم، وهذا يدل على أنه عليه السلام يستقل عمله في طاعة ربه، ويرى أنه لا يدخل الجنة بعمله، إنما يدخلها بفضله تعالى ورحمته، كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام: «سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يُدخل الجنة أحداً عملُه» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله منه برحمة، واعلموا أن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل»(٢).

﴿واغفر لأبي إنه كان من الضالين﴾ [٨٦] أي: بهدايته إلى الإيمان، وهذا قبل أن يعلم إصراره على الكفر حتى الموت، قال تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾(٣).

﴿ولا تخزني يوم يبعثون﴾ [٨٧] أي: أجرني يوم القيامة من العار والفضيحة، عندما يحشر أبي في زمرة المعاندين الضالين، وفي الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى:

---

(١) الصافات: الآيات ١٠٨ ـ ١١٠.
(٢) صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين (٢٨١٨).
(٣) التوبة: الآية ١١٤.

إنـي حرمت الجنة علـى الكافرين، ثم يقـال: يـا إبراهيم، مـا تحت رجليك؟ فينظر، فإذا هو بذيخ ملتطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار»[١].

﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾ [٨٨] أي: يوم القيامة لا ينتفع الإنسان بمال ولا أولاد.

﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ [٨٩] أي: إلا من أتى الله بقلب سالم من الكفر.

ويلاحظ أن دعوات إبراهيم عليه السلام، خالية من طلب أي عرض من أعراض هذه الأرض، إنه دعاء يتجه إلى آفاق أعلى، تحركه مشاعر أصفى، ودعاء القلب الذي عرف الله، فأصبح يحتقر ما عداه، والذي ذاق فهو يطلب المزيد، والذي يرجو ويخاف في حدود ما ذاق وما يريد[٢].

تخاصم أهل النار

وانتقلت الآيات مباشرة إلى يوم القيامة، بعد حكاية دعوات إبراهيم الخاشعة الضارعة، التي دلت على استسلامه لله تعالى،وانقياده الكامل له، فبينت مصير المعاندين وعقابهم، في مقابل مصير المتقين:

﴿وأزلفت الجنة للمتقين﴾ [٩٠] أي: قربت الجنة للمتقين تكريماً لهم، فقد أسلموا لله تعالى وانقادوا لأمره، فأكرمهم تعالى بتقريب الجنة وما فيها من النعيم، تأتي منقادة لهم، حتى تصبح قريبة منهم، كما قال

(١) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء (٣٣٥٠). والذيخ: ذكر الضباع إذا كان كثير الشعر.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٦٠٤.

تعالى: ﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد﴾[1].

﴿وبرزت الجحيم للغاوين﴾ [٩١] أي: أظهرت الجحيم للضالين، الذين عاندوا أدلة الحق، وساروا في طريق الغواية والضلالة.

وكشف لهم عما فيها من أنواع العذاب، قبل أن يساقوا إليها، ويقال لهم توبيخاً وتبكيتاً، وهم يسحبون إليها.

﴿وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون [٩٢] من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون﴾ [٩٣] أي: هل يمنعون العذاب عنكم، أو يمنعونه عن أنفسهم، فالجميع يحشرون إلى جهنم، العباد والمعبودات من طواغيت الكفر والشرك والأوثان والأصنام، قال تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون * لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكُلٌّ فيها خالدون﴾[2].

﴿فكبكبوا فيها هم والغاوون﴾ [٩٤] أي: فكبوا وطرحوا جميعاً في نار جهنم، زعماء الضلال والكفر، ومن سار وراءهم من الضالين.

والكبكبة: تكرير الكب، كأن من ألقي فيها ينكب مرة بعد أخرى، حتى يستقر في قعرها[3].

﴿وجنود إبليس أجمعون﴾ [٩٥] أي: وكبكب معهم أيضاً أعوان إبليس وأتباعه من الجن والإنس.

﴿قالوا وهم فيها يختصمون﴾[٩٦] أي: قال الضالون المعاندون، وهم يختصمون في النار مع معبوداتهم ورؤساء شركهم وضلالهم.

---

(١) ق: الآية ٣١.

(٢) الأنبياء: الآيات ٩٨ ـ ٩٩.

(٣) تفسير البيضاوي ٤/ ٤٨٠.

﴿تالله إن كنا لفي ضلال مبين[٩٧]إذ نسويكم برب العالمين﴾[٩٨] أي: والله إنا كنا في ضلال واضح ظاهر، عندما سويناكم في استحقاق الطاعة والعبادة برب العالمين.

ويدل قولهم هذا على شدة حسرتهم وندامتهم، فهم يعترفون متحسرين بانهماكهم في الضلال ومعاندتهم للحق.

﴿وما أضلنا إلا المجرمون﴾ [٩٩] أي: ما دعانا إلى الضلال إلا المجرمون العريقون بالإجرام والظلم والضلال.

﴿فما لنا من شافعين [١٠٠] ولا صديق حميم﴾ [١٠١] أي: يشفعون لنا كما للمؤمنين الذين ينتفعون بشفاعة الشافعين، من الأنبياء والصالحين، وليس لنا أيضاً صديق قريب، ننتفع بصداقته وقرابته.

وكأنهم عندما يقولون هذه الكلمات، يتلفتون حولهم بأبصارهم الزائغة، وقلوبهم الواجفة المتحسرة، فلا يجدون إلا العذاب والنكال محيطاً بهم، وأنى لهم ذلك بعد أن تقطعت الأسباب بينهم، كما قال تعالى: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾[(١)].

﴿فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين﴾ [١٠٢] أي: يا ليت لنا رجعة إلى الدنيا لنستدرك ما فاتنا من الإيمان.

وتتركنا الآيات مع حسرات أهل النار الحارة، وأمانيهم المستحيلة، لتذكرنا بالتعقيب الأول في السورة:

﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين [١٠٣] وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ [١٠٤﴾ فما أشد عناد الجاحدين، وما أقسى قلوبهم،

(١) الزخرف: الآية ٦٧.

وما أعظم رحمة الله تعالى بنا وفضله علينا.

عناد قوم نوح وعقابهم

وأوغلت الآيات في أعماق التاريخ البعيدة، إلى زمن قوم نوح عليه السلام، فحكت لنا جزءاً من محاورته مع قومه، كشفت من خلالها عنادهم، ثم أجملت بعد ذلك عقابهم.

﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ [١٠٥] أي: كذبوا كل المرسلين، عندما كذبوا رسولهم نوحاً عليه السلام، لأن رسالتهم واحدة.

﴿إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون﴾ [١٠٦] أي: ألا تتقون الله تعالى بعبادته وحده، وترك عبادة الأصنام.

﴿إني لكم رسول أمين﴾ [١٠٧] أمين على وحي الله تعالى، ومعروف بينكم بالأمانة.

﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ [١٠٨] أي: أطيعوني فيما أدعوكم إليه.

﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾[١٠٩] فدعوة الأنبياء خالصة لله تعالى، منزهة عن أي نفع مادي، وهو ما يجب على الدعاة أن يبادروا إلى إعلانه، وتحقيقه في سلوكهم، حتى لا يتهموا بمقاصدهم، فإن ذلك يعوق الناس عن قبول دعوتهم.

﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ [١١٠] كرر طلبه وألح فيه، إشارة إلى أن صدقه وأمانته يستدعيان متابعته والاستجابة لدعوته، كذلك تنزهه عن تحقيق المكاسب الدنيوية، يستدعي أيضاً طاعته والاستجابة لدعوته.

ومع ذلك أعرض قومه عن دعوته عناداً واستكباراً:

﴿قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ [١١١] أي: كيف نؤمن لك، وقد اتبعك السفلة والضعفاء؟!.

وهذا من سخافة عقولهم وقصور رأيهم، إذ جعلوا مبادرة الفقراء إلى اتباع نوح، مانعاً لهم عن اتباع الحق والانقياد له، وأشاروا بذلك إلى أن اتباع الفقراء لنوح لم يكن عن نظر وبصيرة، وإنما هو لتوقع مال ورفعة، دل على ذلك حكاية قولهم مفصلاً في قوله تعالى: ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾(١).

ولهذا رد عليه السلام عليهم:

﴿قال وما علمي بما كانوا يعملون﴾ [١١٢] أي: ما علمي بحقيقة إخلاصهم في عملهم، فهذا ليس من شأني، والله تعالى هو الذي يعلم حقيقة أعمالهم، وهو الذي يحاسبهم عليها.

﴿إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون﴾ [١١٣] أي: ليتكم تدركون هذه الحقيقة وتشعرون بها.

﴿وما أنا بطارد المؤمنين [١١٤] إن أنا إلا نذير مبين﴾ [١١٥] وكأنه عليه السلام يقول لهم: لا أبالي بكم ولا بإعراضكم، فلن أطرد المؤمنين طمعاً في إيمانكم، فمهمتي أن أنذركم وأحذركم.

وعاند القوم أدلة الحق التي طوقهم بها عليه السلام، ولجؤوا إلى لغة الوعيد والتهديد كما فعل غيرهم من المعاندين:

﴿قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين﴾ [١١٦] أي:

---

(١) هود: الآية ٢٧.

من المقتولين رجماً بالحجارة.

فما كان منه عليه السلام، بعد أن دعاهم زمناً طويلاً، إلا أن توجه إلى الله تعالى يستنصره عليهم.

﴿قال رب إن قومي كذبون [١١٧] فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين﴾ [١١٨] أي: فاحكم بيني وبينهم حكماً يؤدي إلى إهلاكهم، ونجني مع المؤمنين من شؤم عنادهم وإعراضهم.

﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون﴾ [١١٩] أي: في السفينة المملوءة بأزواج المخلوقات، التي أمره تعالى بحملها.

﴿ثم أغرقنا بعد الباقين﴾ [١٢٠] أي: أغرقنا الباقين على الأرض، الذين لم يحملوا في السفينة.

وتركتنا الآيات مع صورة الهالكين بين أمواج الطوفان العاتية، لتعقب على عنادهم واستحقاقهم لما أنزل الله فيهم من عقاب.

﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين [١٢١] وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ [١٢٢] فما أكثر شواهد الحق ومؤيداته، المبثوثة في صفحات المكونات القريبة والبعيدة، وفي صفحات تاريخ الوجود البشري البعيد والقريب، ومع ذلك يعرض أكثر الناس عن الحق معاندين.

عناد عاد وعقابهم

ثم اختارت الآيات من قصة نبي الله هود مع قومه عاد، جزءاً من محاورته معهم، وهو يدعوهم إلى الله تعالى، أظهرت من خلاله النعم الكثيرة التي أنعم الله بها عليهم، وركزت على التمكين المادي الذي

كانوا عليه، وسعة أموالهم وكثرة أرزاقهم، وبينت كيف قابلوا كل ذلك بالاستكبار والطغيان والعناد. :

﴿كذبت عاد المرسلين [١٢٣] إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون [١٢٤] إني لكم رسول أمين [١٢٥] فاتقوا الله وأطيعون [١٢٦] وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾ [١٢٧].

والتشابه ظاهر بين دعوتي النبيين الكريمين نوح وهود عليهما السلام، وهي الدعوة التي دعا إليها جميع الأنبياء، وإن اختلفوا في بعض فروع الشرائع، لاختلاف أزمنتهم وعصورهم، كما أنهم جميعاً منزهون عن المطامع الدنيوية بالكلية[١].

﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون﴾ [١٢٨] أي: أتبنون بكل مكان مرتفع بناءً كبيراً، لمجرد العبث والفخر؟

ويبدو أنهم كانوا بسبب كثرة ترفهم وبطرهم، يشيدون في الأماكن المرتفعة أبنية ومجسمات لا فائدة منها، سوى الإشارة إلى قوتهم، كما يفعل في عصرنا الحاضر كثير من الحكام المستبدين، تراهم يملؤون الساحات الكبيرة والأماكن المرتفعة، بالمجسمات والتماثيل، إرضاءً لغرورهم، وتخليداً كما يزعمون لذكرهم، ينفقون عليها نفقات باهظة، ويتركون شعوبهم تعاني من الأزمات الاقتصادية الخانقة، والفقر المدقع.

﴿وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون﴾ [١٢٩] أي: وتتخذون المخازن الكبيرة، المملوءة بالأموال والطعام والمياه، كأنكم باقون أبداً، لن تموتوا.

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/٢٥٦.

وهذا يدل على شدة تعلقهم بالدنيا وانهماكهم بشهواتها، روي أن أبا الدرداء رضي الله عنه، لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة من البنيان ونصب الشجر، قام في مسجدهم فنادى: يا أهل دمشق، فاجتمعوا عليه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ألا تستحيون، تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون، إنه قد كانت قبلكم قرون، يجمعون فيوعون، ويبنون فيوثقون، ويأملون فيطيلون، فأصبح أملهم غروراً، وأصبح جمعهم بوراً، وأصبحت مساكنهم قبوراً، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً، فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين؟[١].

ولعله رضي الله عنه أنكر على المسلمين ما أحدثوا من البنيان ونصب الشجر، لانشغالهم به عن طاعته تعالى، وخشية الانصراف عن الجهاد في سبيله، وإلا فهو أمر مشروع وجائز، بل مندوب ومستحب، إذا قصد فاعله مساعدة الناس والحيوان، وإشاعة الخير، تقرباً من الله تعالى.

وفي الحديث الشريف عن جابر رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ على أم مبشر الأنصارية في نخل لها، فقال لها النبي ﷺ: «من غرس هذا النخل، أمسلم أم كافر؟» فقالت: بل مسلم، فقال: «لا يغرس مسلم غرساً ولا يزرع زرعاً، فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء، إلا كانت له صدقة»[٢].

والجدير بالذكر أن الإمام أحمد في مسنده روى أن رجلاً مر بأبي الدرداء وهو يغرس غرساً بدمشق، فقال له: أتفعل هذا وأنت صاحب

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٦٥٤.

(٢) صحيح مسلم، كتاب المساقاة (١٥٥٢).

رسول الله ﷺ؟ قال: لا تعجل عليّ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من غرس غرساً لم يأكل منه آدمي ولا خلق من خلق الله، إلا كان له به صدقة»[1].

﴿وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾ [١٣٠] أي: بطشتم بطشاً قوياً شديداً، من غير رحمة ولا تسامح، مما يدل على غلظتهم وقسوتهم وجبروتهم.

﴿فاتقوا الله وأطيعون [١٣١] واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون [١٣٢] أمدكم بأنعام وبنين [١٣٣] وجنات وعيون﴾ [١٣٤] وهذا يدل على أن بلادهم جنوب أرض العرب كانت بلاداً غنية خصبة.

﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ [١٣٥] وهذا يدل على أنه عليه السلام كان يشفق عليهم ويخشى نزول العذاب بهم.

ولكن القوم قابلوا شفقته عليهم بالعناد والجحود.

﴿قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين﴾ [١٣٦] أي: فإنا لن نترك ما نحن عليه، فقلوبهم قاسية لا تلين ولا تهتز لموعظة النبي الكريم.

﴿إن هذا إلا خلق الأولين﴾ [١٣٧] أي: ما هذا الذي نحن عليه إلا عادة آبائنا الأولين، ونحن بهم مقتدون.

﴿وما نحن بمعذبين [١٣٨] فكذبوه فأهلكناهم﴾ أي: أهلكناهم بسبب تكذيبهم وعنادهم، قال تعالى: ﴿كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر * إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر * تنزع

(١) رواه أحمد وإسناده حسن كما في الترغيب والترهيب ٣/ ٣٧٧.

الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر * فكيف كان عذابي ونذر﴾[1].

﴿إن في ذلك لآية﴾ من الآيات الكثيرة البارزة في صفحات التاريخ البشري، الدالة على كمال قدرته تعالى ورحمته، ومع ذلك.

﴿وما كان أكثرهم مؤمنين [١٣٩] وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ [١٤٠].

عناد ثمود وعقابهم

وكررت الآيات للمرة الثالثة، نفس المقدمة التي ذكرتها عندما تحدثت عن قوم نوح وقوم هود في بداية بيان عناد ثمود وعقابهم.

﴿كذبت ثمود المرسلين [١٤١] إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون [١٤٢] إني لكم رسول أمين [١٤٣] فاتقوا الله وأطيعون [١٤٤] وما أسألكم من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾ [١٤٥].

ثم أضافت الآيات من كلام صالح لقومه، وهو يدعوهم إلى الله تعالى، ويذكرهم ببعض نعمه عليهم، ويخوفهم من زوال هذه النعم عنهم.

﴿أتتركون فيما ههنا آمنين﴾ [١٤٦] وهو سؤال استنكار، معناه: لا تتركون في هذا النعيم آمنين مطمئنين، من غير تكليف بطاعة المنعم وعبادته، فالله سبحانه العليم الحكيم ما خلقكم لمجرد المتاع واللهو.

﴿في جنات وعيون [١٤٧] وزروع ونخل طلعها هضيم﴾ [١٤٨] أي: ثمرها الذي يطلع منها لطيف لين ناضج.

---

(١) القمر: الآيات ١٨ ـ ٢١.

﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾ [١٤٩] أي: بنشاط وحذق وإتقان، وهذا يدل على سعة عيشهم، وكثرة مزارعهم، وامتداد عمرانهم، ولا تزال آثاره باقية حتى العصر الحاضر.

﴿فاتقوا الله وأطيعون [١٥٠] ولا تطيعوا أمر المسرفين [١٥١] الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ [١٥٢] فالسرف والترف يؤديان إلى نشر الفساد في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾[١].

﴿قالوا إنما أنت من المسحرين﴾ [١٥٣] أي: المخدوعين المصابين بخلل واضطراب في عقولهم.

﴿ما أنت إلا بشر مثلنا فائت بآية إن كنت من الصادقين﴾ [١٥٤] أي: فائت بمعجزة تدل على صدق رسالتك وصحة نبوتك.

﴿قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾ [١٥٥] أي: هذه ناقة معجزة في خلقها، فقد خلقها سبحانه من صخرة أمام أعينهم، وهي معجزة أيضاً في شربها ولبنها، فقد كانت تشرب كل ماء البئر، وتعطيهم لبناً يكفي جميع قبيلة ثمود، ولهذا كانت تشرب الماء يوماً، وتتركه لهم في اليوم الثاني، كما قال تعالى: ﴿إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر * ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر﴾[٢].

وأوصاهم نبيهم صالح عليه السلام، ألا يتعرضوا لهذه الناقة بشيء من الأذى فقال:

---

(١) الإسراء: الآية ١٦.

(٢) القمر: الآيات ٢٧ ـ ٢٨.

﴿ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم﴾ [١٥٦].

ومع ظهور المعجزة وقوة دلالتها، لم يذعنوا للحق، وقتلوا الناقة المعجزة عناداً وجحوداً.

﴿فعقروها فأصبحوا نادمين﴾ [١٥٧] أي: نادمين على قتلها خوفاً من حلول العذاب، لا ندم توبة.

﴿فأخذهم العذاب﴾ وهو الذي ذكره تعالى في قوله: ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾(١)، وقوله سبحانه: ﴿فأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾(٢).

وكررت الآيات تعقيبها على عناد ثمود وهلاكهم.

﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين [١٥٨] وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ [١٥٩] هكذا شأن أكثر الناس، يجحدون الحق معاندين، مع كثرة شواهده ومؤيداته.

عناد قوم لوط وعقابهم

وأما قوم لوط فأضافوا إلى عنادهم، الشذوذ والانحراف عن سنن الفطرة الإنسانية في علاقاتهم الجنسية، وهو ما أبرزته الآيات في دعوة نبي الله لوط عليه السلام، فالأنبياء يسعون إلى مقاومة الفساد في شتى صوره وأشكاله، ودفع الآفات الخبيثة عن أبناء المجتمع، وردهم إلى صفاء الفطرة التي خلقهم الله تعالى عليها.

---

(١) القمر: الآية ٣١.

(٢) هود: الآية ٦٧.

﴿كذبت قوم لوط المرسلين [١٦٠] إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون [١٦١] إني لكم رسول أمين [١٦٢] فاتقوا الله وأطيعون [١٦٣] وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾ [١٦٤].

وأضاف عليه السلام بعد هذه المقدمة، التي ذكرها سلفه من الأنبياء، يستنكر شذوذهم في علاقاتهم الجنسية.

﴿أتأتون الذكران من العالمين﴾ [١٦٥﴾ أي: أنتم مختصون بشيوع هذه الفاحشة من بين سائر الناس.

ويبدو أنهم هم الذين استحدثوها.

﴿وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون﴾ [١٦٦] أي: وتتركون ما أحل الله لكم من نسائكم، بل أنتم في هذا متجاوزون حدود الفطرة الإنسانية السوية.

وقابل القوم موعظة نبيهم، بتهديده بالطرد والتشريد عن بيته وبلده.

﴿قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين﴾ [١٦٧] كما قال سبحانه: ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون﴾[١].

ولم يجد عليه السلام في مواجهة عنادهم، إلا أن يعلن براءته من عملهم، ويتوجه إلى الله تعالى يسأله النجاة من شؤمه وعذابه:

﴿قال إني لعملكم من القالين﴾ [١٦٨] أي: المبغضين له غاية البغض.

---

(١) النمل: الآية ٥٦.

﴿رب نجني وأهلي مما يعملون [١٦٩] فنجيناه وأهله أجمعين [١٧٠] إلا عجوزاً في الغابرين﴾ [١٧١] أي إلا امرأته بقيت مع الهالكين.

﴿ثم دمرنا الآخرين﴾ [١٧٢] أي: أهلكناهم بقلب بلادهم وتنكيسها، كما قال تعالى: ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود﴾[١] وهو المطر الذي قال عنه تعالى هنا:

﴿وأمطرنا عيهم مطراً فساء مطر المنذرين﴾ [١٧٣] أي: فبئس المطر الذي أنزل عليهم.

وعقبت الآيات على عناد قوم لوط وعقابهم، كما عقبت على من سبقهم من الأمم الهالكة.

﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ [١٧٤] ففي عقابهم وإهلاكهم آية عظيمة داعية إلى الاعتبار والاتعاظ، قال تعالى: ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون﴾[٢]، وقال أيضاً: ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين * وإنها لبسبيل مقيم * إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾[٣].

ولا تزال آثار غضب الله تعالى عليهم باقية حتى عصرنا الحاضر، في ما يسمى البحر الميت أو بحيرة لوط من أرض فلسطين، ومع ذلك لم يتعظ أكثر الناس ولم يعتبروا بما حدث.

---

(١) هود: الآية ٨٢.
(٢) الصافات: الآيات ١٣٧ ـ ١٣٨.
(٣) الحجر: الآيات ٧٥ ـ ٧٧.

﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ [١٧٥].

عناد أصحاب الأيكة وعقابهم

ختمت الآيات جولتها التاريخية مع بعض الأمم المعاندة للحق، بالحديث عن عناد أمة مدين، قوم نبي الله شعيب عليه السلام.

﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين﴾ [١٧٦] أي: كذب أصحاب الشجرة الكبيرة، ذات الأغصان الكثيرة الملتفة، المرسلين.

ويبدو أنهم كانوا يعبدون هذه الشجرة الكبيرة، ولهذا نسبوا إليها.

﴿إذ قال لهم شعيب ألا تتقون﴾ [١٧٧] أي: قال لهم نبي الله شعيب ألا تتقونه تعالى بعبادته وحده.

وهم أهل مدين على الصحيح، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هھنا: أخوهم شعيب؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، فقطع نسب الأخوة بينهم، للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسباً[١].

ورأى بعض المفسرين أن نبي الله شعيب أرسل إلى أمتين، هما: أهل مدين وأصحاب الأيكة، لكن رأي ابن كثير هو الأوجه، ويؤكده قوله تعالى عن قوم لوط وأصحاب الأيكة: ﴿وإنهما لبإمام مبين﴾[٢] أي: إنهما على طريق واضح، هو طريق القوافل الممتد بين الحجاز وبلاد الشام، والذي يمر أولاً ببلاد مدين، ثم يتجه إلى الشمال ماراً بفلسطين كما أن الآيات وصفتهم بنفس الصفات التي ذكرت لأهل

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٦٥٧.
(٢) الحجر: الآية ٧٩.

مدين، وهي التلاعب بالمكاييل والموازين، وقطع الطريق، ونشر الفساد، كما سيأتي.

﴿إني لكم رسول أمين [١٧٨] فاتقوا الله وأطيعون [١٧٩] وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين [١٨٠] أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين﴾ [١٨١] أي: أتموا الكيل ولا تكونوا من المنقصين لحقوق الناس.

﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ [١٨٢] أي: زنوا بالميزان السوي العدل.

﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾[١٨٣] أي: لا تنقصوا الناس شيئاً من حقوقهم، ولا تنشروا الفساد في الأرض، بالإغارة على الناس وقطع الطريق عليهم، كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليك عذاب يوم محيط * ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾[١].

وتابع عليه السلام دعوته الإصلاحية في قومه ومجتمعه، والتأكيد على تقوى الله تعالى وعبادته وحده، فإنها أساس كل صلاح.

﴿واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين﴾ [١٨٤] أي: اتقوا الله الذي خلقكم وخلق الأمم السابقة.

وسموا جبلة، لأنهم جبلوا وخلقوا على الخصائص والطبائع، التي خصهم الخالق جل وعلا بها، يقال: جُبل فلان على كذا، أي:

---

(١) هود: الآيات ١٨٤ ـ ١٨٥.

خُلق، قال تعالى: ﴿ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون﴾[1].

ولكن القوم عاندوا الحق، ولم يذعنوا لدعوة الإصلاح، وردوا على نبيهم بوقاحة واستهتار.

﴿قالوا إنما أنت من المسحرين﴾ [١٨٥] أي: من المخدوعين، الذين سحروا حتى أصيبوا بخلل واضطراب في عقولهم.

﴿ما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين﴾ [١٨٦] أي: وإنا نظنك من الكاذبين في ادعاء النبوة.

ثم تمادوا في عنادهم، فسألوه متحدين أن ينزل عليهم العذاب:

﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين﴾ [١٨٧] أي: أسقط علينا قطعاً من السماء، إن كنت من الصادقين فيما تدعيه.

فعنادهم عناد جحود واستكبار، لا عناد جهل وغباء، وهو كعناد مشركي مكة، عندما سألوا الله تعالى قائلين: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾[2].

وقابل عليه السلام عنادهم واستكبارهم، باللجوء إلى الله تعالى، ليقضي بأمره فيهم:

﴿قال ربي أعلم بما تعملون﴾ [١٨٨] أي: من الكفر والمعاصي، وبما تستحقون من العقاب والعذاب.

---

(١) يس: الآية ٦٢.

(٢) الأنفال: الآية ٣٢.

﴿فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة﴾ أي: تمادوا في تكذيبهم وعنادهم، فأخذهم عذاب اليوم الذي أهلكهم الله فيه.

ودلت الآيات على أنه تعالى أنزل بهم أكثر من عذاب واحد، كما فعل بقوم لوط، الذين أهلكهم بالصيحة، وأمطر عليهم الحجارة، وقلب الأرض بهم، كذلك فعل بهؤلاء، أرسل عليهم سحابة أمطرت عليهم ناراً، وأرسل عليهم أيضاً الصيحة الشديدة، قال تعالى: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾[1].

﴿إنه كان عذاب يوم عظيم﴾ [١٨٩] أي: عظيم في شدته وهوله.

عظمت الآيات عقابهم، فجاء مناسباً لما سبق من عنادهم واستكبارهم.

ومع كل هذه القصص، وما فيها من عظات وعبر، فإن الناس هم الناس، لا يزال أكثرهم مصرين على عنادهم واستكبارهم.

﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين [١٩٠] وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ [١٩١]، كما أخبر تعالى عنهم في أول السورة بقوله الكريم: ﴿وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين * فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ وأتتهم الأنباء، وتوالت عليهم العبر والمواعظ، وطوقتهم الدلائل والبراهين، ولا زالت تتوالى على الأجيال البشرية، فإن آيات التنزيل الحكيم محفوظة بحفظ الله تعالى، لا تزال تتلى على مسامع الناس، غضة طرية نقية، كأنها أنزلت الساعة، ويرى الناس كل يوم فيها علماً من أعلام

---

(١) هود: الآية ٩٤.

إعجازها، ومؤيداً من مؤيدات صدقها، ومع ذلك لا يزال أكثرهم معرضين عنها، مغترين بفسحة الأجل التي متعهم بها العزيز الرحيم.

تنزيل القرآن الكريم

ولهذا ما إن انتهت الآيات من عرضها لبعض مواقف العناد، عند الأمم السالفة، حتى التفتت تتحدث عن القرآن الكريم، تؤكد صدقه وصحة تنزيله من رب العالمين، على النبي ﷺ، وتظهر في الوقت نفسه عناد مشركي قريش، وإعراضهم عن الإذعان له والانقياد لدعوته.

﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ [١٩٢] أي: وإن القرآن الكريم، منزل من رب العالمين، بأمره ومشيئته جل وعلا.

﴿نزل به الروح الأمين﴾ [١٩٣] أي: نزل به جبريل الأمين، كما قال تعالى: ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين﴾(١).

فالروح الأمين هو جبريل عليه السلام، أمين الله على وحيه، كما قال تعالى: ﴿إنه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاع ثم أمين﴾(٢).

﴿على قلبك لتكون من المنذرين﴾ [١٩٤] أي: نزل به على قلبك يا محمد مباشرة، لتكون من الرسل المنذرين.

وإنزال القرآن الكريم على قلبه الشريف مباشرة، يؤكد كمال تلقيه له، وأن القرآن كان يثبت في قلبه الشريف، ولهذا قال عليه الصلاة

---

(١) البقرة: الآية ٩٧.

(٢) التكوير: الآيات ١٩ ـ ٢١.

والسلام عندما سأله الحارث بن هشام رضي الله عنه: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني، فأعي ما يقول»[1].

﴿بلسان عربي مبين﴾ [١٩٥] أي: أنزل تعالى القرآن الكريم، بلسان عربي فصيح واضح، فلا عذر لمشركي العرب على وجه الخصوص في جحوده وتكذيبه، ومعاندة دعوته.

﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ [١٩٦] أي: وفضلاً عن ذلك، فإن ذكره والتنويه به موجود في جميع كتب الأنبياء السابقين.

﴿أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ [١٩٧] أي: أو لم يكن تصديق علماء بني إسرائيل وشهادتهم له، دليلاً لمشركي قريش على صدق النبي ﷺ وصحة رسالته.

قال ابن عباس: بعث أهل مكة إلى اليهود، يسألونهم عن محمد عليه السلام، فقالوا: إن هذا لزمانه، وإنا لنجد في التوراة نعته وصفته.

وعلى هذا فالمراد بعلماء بني إسرائيل، كل من كان له علم بكتبهم، أسلم أم لم يسلم، وإنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين، لأنهم كانوا يرجعون في أشياء من أمور الدين إلى أهل الكتاب[2].

ورأى بعضهم أن المراد بعلماء بني إسرائيل، من أسلم منهم، كعبد الله بن سلام، وزيد بن سعنة، لكن مكية الآيات ترجح الرأي الأول.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي (٢).
(٢) تفسير القرطبي ١٣/ ١٣٩.

عناد مشركي قريش

هكذا طوقتهم الآيات بالحجج القاطعة والأدلة الواضحة، ثم دمغتهم بطابع الجحود والعناد بقوله تعالى:

﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين [١٩٨] فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين﴾ [١٩٩] أي: لو نزلنا القرآن الكريم على أعجمي لا يحسن العربية، فقرأه عليهم قراءة صحيحة معجزة خارقة للعادة، ما آمنوا به، وهذا يدل على شدة عنادهم وجحودهم.

كما قال تعالى: ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾[٣].

﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين﴾ [٢٠٠] أي: بهذا العناد والجحود أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين، وعلى مثل هذه الحال وهذه الصفة، من الكفر به والتكذيب له، وضعناه في قلوبهم[٤].

وقد يكون المعنى المراد: كذلك أدخلنا تكذيب القرآن والجحود به في قلوب المجرمين.

---

(١) الحجر: الآيات ١٤ ـ ١٥.

(٢) الأنعام: الآية ١١١.

(٣) الأنعام: الآية ٧.

(٤) روح المعاني ١٩/١٢٩.

ولكن المعنى الأول أوجه، وأكثر انسجاماً مع سباق الآيات وسياقها، وليس فيه تشتيت للضمائر، فالآيات تركز على إبراز عناد مشركي قريش، وشدة معارضتهم لدعوة القرآن الكريم.

التهديد بالعقاب

وسنة الله في عباده لا تتخلف، فبعد أن أظهرت الآيات عنادهم، أخذت تتوعدهم بالعقاب.

﴿لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم﴾ [٢٠١] أي: لا يؤمنون بالقرآن الكريم حتى ينزل بهم العذاب الأليم، وإيمانهم هذا غير مقبول؛ لأنه إيمان الإلجاء والبأس، كإيمان فرعون عندما أدركه الغرق.

﴿فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ [٢٠٢] أي: فيأتيهم العذاب فجأة وهم في حال غفلة، منهمكون في شهواتهم وأهوائهم.

﴿فيقولوا هل نحن منظرون﴾ [٢٠٣] أي: يتمنون وقتئذ أن يؤخر العذاب عنهم قليلاً، ليستدركوا ما فاتهم من طاعة الله تعالى.

﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ [٢٠٤] وهو استفهام إنكار وتهديد، فإنهم كانوا قبل نزوله يستعجلونه، ويقولون ـ كما مر ـ لنبيهم ﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين﴾.

﴿أفرأيت إن متعناهم سنين [٢٠٥] ثم جاءهم ما كانوا يوعدون [٢٠٦] ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ [٢٠٧] أي: أخبرني إن جعلناهم يتمتعون في الحياة الدنيا عدداً من السنين، ثم جاءهم العذاب والهلاك، فهل ينفعهم ما مضى من متاع، فإن لحظة واحدة من العذاب تنسي الإنسان متاع عمر كامل، كما جاء في الحديث الشريف عن

أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة ـ أي يغمس غمسة ـ ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»(١).

ففي الآيات موعظة بليغة لمن له قلب، روي عن ميمون بن مهران، أنه لقي الحسن البصري في الطواف، وكان يتمنى لقاءه، فقال له: عظني. فلم يزده عن تلاوة هذه الآيات، فقال له ميمون: لقد وعظت فأبلغت(٢).

فمهما عاش الإنسان ممتعاً بالسلطان والأموال والأولاد، وزخارف الدنيا وزينتها، فإن الموت نازل به، وقاطعه عن كل ما هو فيه، وحينئذ تكون حسرته أعظم، وخسارته أكبر.

ثم أخبر تعالى عن عدله في خلقه، وأنه ما أنزل عقابه في الأمم الهالكة، إلا بعد الإعذار والإنذار، ببعثة الرسل وإنزال الكتب وإقامة الحجج فقال:

﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون [٢٠٨] ذكرى وما كنا ظالمين﴾ [٢٠٩] أي: أرسلنا الرسل إليهم مذكرين بما أوجب سبحانه عليهم ، وبمسؤوليتهم عن حياتهم، فما خلقهم تعالى للعب والعبث، كما قال سبحانه: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾(٣)، وقال

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين (٢٨٠٧).

(٢) روح المعاني ١٩/ ١٣١.

(٣) الإسراء: الآية ١٥.

تعالى: ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾[١].

حفظ القرآن عند تنزيله

وكما أكدت الآيات أن القرآن الكريم تنزيل رب العالمين، بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، نفت نزول الشياطين به، وردت مزاعم مشركي قريش أن لمحمد عليه الصلاة والسلام تابعاً من الجن، يخبره كما تخبر الكهنة، وأن القرآن مما ألقاه إليه[٢]، قال تعالى ينفي ذلك نفياً صريحاً قاطعاً.

﴿وما تنزلت به الشياطين﴾ [٢٠١] بل هو تنزيل الحكيم الحميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ثم بينت الآيات استحالة تنزل الشياطين بالقرآن الكريم من ثلاثة أوجه، أولها:

﴿وما ينبغي لهم﴾ أي: وما يصح وما يستقيم لهم النزول بالقرآن الكريم؛ لأن سجاياهم الفساد، وإضلال العباد، بينما القرآن نور وهدى، وبرهان عظيم، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة[٣].

وثانيهما:

﴿وما يستطيعون﴾ [٢١١] أي: ولا يستطيعون أيضاً أن يأتوا بمثل

(١) القصص: الآية ٥٩.

(٢) روح المعاني ١٩/ ١٣٢.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٦٦٠.

سورة منه؛ لأنه كلام الله المعجز، الذي عجزت الإنس والجن عن أن يأتوا بمثله، كما قال سبحانه: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾(١).

فهو كلام الحق تعالى، ويستحيل أن يكون مختلقاً ومفترى، قال سبحانه: ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾(٢).

والوجه الثالث لاستحالة تنزل الشياطين بالقرآن الكريم:

﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾ [٢١٢] أي: إن الشياطين عن استماع الوحي لمحجوبون وممنوعون، فهم في معزل عن استماع القرآن(٣).

وهم معزولون أيضاً عن النبي ﷺ، فلا يدنون منه، وخاصة عند نزول الوحي عليه، بسبب الملائكة المحيطة به عند التنزيل، قال تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾(٤).

فالقرآن الكريم محفوظ في السماء، في اللوح المحفوظ، ومحفوظ عند نزوله بواسطة أمين الوحي جبريل، والملائكة المحيطة به، كما أنه تعالى تكفل بحفظه في الأرض من التغيير والتبديل، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

---

(١) الإسراء: الآية ٨٨.
(٢) يونس: الآية ٣٧.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٦٦٠.
(٤) الجن: الآيات ٢٦ ـ ٢٧.

تلقي القرآن وتبليغه

ثم بينت الآيات أن النبي ﷺ أيضاً، لا كسب له ولا اختيار في نزول القرآن الكريم عليه، وإنما عليه فقط واجب التلقي والتبليغ، فوجهت إليه ﷺ، هذا الخطاب الحازم الجازم:

﴿فلا تدع مع الله إلَهاً آخر فتكون من المعذبين﴾ [٢١٣] أي: أخلص في التوحيد، فالشرك أمر خطير وكبير، ينهى عنه من لا يمكن صدوره منه، فكيف بمن عداه، وهذا يؤكد نزول القرآن الكريم على النبي ﷺ، وأنه لا دخل له فيه سوى التلقي، فلا يعقل أبداً أن يخاطب الإنسان نفسه بمثل هذا الخطاب، ويتوعدها بمثل هذا الوعيد الشديد.

وقد تكرر مثل هذا المعنى في عدد من الآيات الكريمة منها قوله تعالى: ﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾(١).

ومنها قوله سبحانه: ﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾(٢).

ويؤكد كل ذلك، أن نزول القرآن الكريم على النبي ﷺ، بأمره تعالى ومشيئته وحده، ولا دخل لأحد فيه، وأن النبي ﷺ ليس له إلا

---

(١) الزمر: الآيات ٦٥ ـ ٦٦.

(٢) الشورى: الآية ١٥.

التلقي والتبليغ، وهذا ما أمرته الآيات به.

﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ [٢١٤] أي: ابدأ بإنذار الذين هم أكثر قرباً إليك من غيرهم.

والعشيرة: رهط الرجل الأدنون، أو أهل الرجل الذين يتكثر بهم، أي: يصيرون له بمنزلة العدد الكامل، وهو العشرة[١].

ودلت الآية على الاهتمام بالأقارب، والبداءة بدعوتهم، فعلى الداعية أن يبدأ بدعوة من يليه من الأقارب والجيران، ثم من بعدهم، فإذا بلغتهم الدعوة، انتشرت منهم إلى غيرهم، وإلا كانوا حجة للآخرين في الامتناع عن قبولها.

وقد بادر ﷺ إلى القيام بما أمر به، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي ـ لبطون قريش ـ حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج، أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾.

وعن أبي هريرة قال: قام رسول الله ﷺ، حين أنزل الله: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ قال: «يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً،

---

(١) روح المعاني ١٩/ ١٣٤.

يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً»[1].

قال القرطبي رحمه الله: في هذا الحديث والآية، دليل على أن القرب في الأنساب، لا ينفع مع البعد في الأسباب، ودليل على جواز صلة المؤمن الكافر، وإرشاده ونصيحته[2].

﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ [٢١٥] أي: ألن جانبك وتواضع للمؤمنين، فإنهم بسبب إيمانهم أهل للمودة والتكريم.

والتواضع من أخلاقه الكريمة عليه الصلاة والسلام، وشمائله الشريفة، وأمره تعالى أن يخص المؤمنين بمزيد من التواضع، بياناً لكرامتهم عنده تعالى، وعند رسوله ﷺ، وإظهاراً لتميزهم بالإيمان على الكافرين، فكرامة الإيمان والدين، فوق كرامة ووجاهة الأحساب والأنساب والأموال، قال تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾[3].

ولقد كان لأخلاق النبي عليه الصلاة والسلام الكريمة، أثر كبير في نشر دعوته بين الناس وإقبالهم عليه، وخاصة خلق التواضع، ولهذا قال تعالى: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٤٧٧٠ ـ ٤٧٧١).
(٢) تفسير القرطبي ١٣/ ١٤٤.
(٣) الكهف: الآية ٢٨.

عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾[1].

﴿فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾ [٢١٦] أي: إن عصاك قومك وعشيرتك وأعرضوا عن قبول دعوتك، فأعلن براءتك من كفرهم وفجورهم.

وكأن الآيات تقول للنبي ﷺ: أنذر قومك، فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض جناحك لهم، وإن عصوك ولم يتبعوك، فتبرأ منهم ومن أعمالهم، من الشرك بالله وغيره[2].

وتابعت الآيات ترشد النبي ﷺ، إلى الأسلوب الأمثل في الدعوة، وتشد من أزره، وتقوي من عزيمته.

﴿وتوكل على العزيز الرحيم﴾ [٢١٧] أي: لا تتوكل على قرابة وعشيرة، بل توكل على العزيز الرحيم وحده، القادر على قهر أعدائه ونصر أوليائه، فهو الذي يكفيك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم.

﴿الذي يراك حين تقوم﴾ [٢١٨] أي: يراك في جوف الليل حين تقوم إلى صلاة التهجد منفرداً.

﴿وتقلبك في الساجدين﴾ [٢١٩] أي: ويراك أيضاً حين تصلي مع أصحابك، أو حين تبلغهم دعوة الله تعالى، وتعلمهم أحكام دينه.

ووصفهم بالساجدين للثناء عليهم، وبيان مكانتهم عند الله تعالى، فإن حالة السجود أقرب أحوال العبد إليه تعالى، وتدل على غاية الخضوع له والاستسلام، قال عليه الصلاة والسلام: «أقرب ما يكون

---

(١) آل عمران: الآية ١٥٩.

(٢) تفسير النسفي ٤/ ٤٩٦.

العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»[1].

﴿إنه هو السميع العليم﴾ [٢٢٠].

تمحيص الحقيقة ودفع أباطيل

وكما بينت الآيات استحالة تنزل الشياطين بشيء من القرآن الكريم، أضافت هنا استحالة تنزلهم على النبي ﷺ؛ لأنهم لا ينزلون إلا على من يلائمهم ويشاكلهم في الصفات، فبينهم وبين رسول الله ﷺ منافاة كبيرة؛ لأن الله تعالى جبله على أكرم الصفات وأعظم الأخلاق، ولهذا قرر تعالى هذه الحقيقة بأسلوب تقريري، يفيد القطع والجزم، فقال:

﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين [٢٢١] تنزل على كل أفاك أثيم﴾ [٢٢٢] أي: تنزل عى كل كذاب كثير الإثم، كالكهان والمتنبئة الكذابين.

﴿يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾ [٢٢٣] أي: يلقون السمع إلى الشياطين، ليتلقوا منهم ظنوناً وأوهاماً وتخيلات، وأكثرهم كاذبون فيما يلقونه إلى أوليائهم، لكثرة ما يضمون إليه من أكاذيب وافتراءات، كما في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: لَلذي قال الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض، فيسمع الكلمة فيلقيها

(١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة (٤٨٢).

إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا: يوم كذا وكذا، كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء»[1].

وقد يكون المراد: وأكثرهم كاذبون فيما يقولونه من الأقاويل، فالأكثرية باعتبار أقوالهم، على معنى أن هؤلاء قلما يصدقون في أقوالهم، وإنما هم في أكثرها كاذبون، وعلى هذا ليس معنى الأفاك من لا ينطق إلا بالإفك، حتى يمتنع منه الصدق، بل من يكثر الإفك، فلا ينافيه أن يصدق في بعض الأحيان[2].

ثم أضافت الآيات تنزيه النبي ﷺ عن قول الشعر، وأبطلت مزاعم المشركين، أن القرآن الكريم من قبيل الشعر، فقال تعالى:

﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ [٢٢٤] أي: يتبعهم السفهاء الضالون، فالغاوي لا يتبعه إلا غاوياً مثله، وأصحاب النبي ﷺ ليسوا كذلك، ففي الآية إشارة إلى فضل أصحابه عليه الصلاة والسلام، وكريم أخلاقهم وحسن سجاياهم، ودلت أيضاً على أن النبي ﷺ ليس شاعراً، كما قال تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين﴾[4].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٤٨٠٠).
(٢) روح المعاني ١٩/ ١٣٩.
(٣) يس: الآية ٦٩.
(٤) الحاقة: الآية ٤٠ ـ ٤٣.

﴿ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون﴾ [٢٢٥] أي: ألم تر أن الشعراء حائرون، وعن طريق الحق حائدون.

فالهائم: الذاهب على وجهه، لا مقصد له[١].

وهو تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول، واعتسافهم حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة، وأبخلهم على حاتم[٢].

﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ [٢٢٦] أي: وأن أفعالهم تنافي أقوالهم، فهم يمدحون الجود والكرم والشجاعة ولا يفعلونها، ويهجون الناس بأدنى شيء يصدر عنهم. ففي الآية وصف لهم بالكذب والخلف في الوعد، بينما كان النبي ﷺ يتصف بأعلى الأخلاق وأكرمها، حاز جميع الكمالات الخلقية ودعا إليها، وشهد الله له بذلك بقوله: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[٣].

ومع أنه ﷺ كان أفصح الناس، وآتاه الله تعالى جوامع الكلم، ما كان شاعراً، وما صدر عنه شيء من الشعر، ولكنه استنشده واستشهد به أحياناً، وحسن حسنه وقبح قبيحه، فعن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الشعر حكمة».

وعن الأسود بن قيس قال: سمعت جندباً يقول: بينما النبي ﷺ يمشي، إذ أصابه حجر، فعثر فدميت إصبعه، فقال: «هل أنت إلا إصبع دميت، وفي سبيل الله ما لقيت».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أصدق

---

(١) تفسير الخازن ٤/٤٩٨.

(٢) تفسير النسفي ٤/٤٩٨.

(٣) القلم: الآية ٤.

كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل، وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم»[1].

ثم استثنت الآيات الشعراء المؤمنين الصالحين، الذين يوجهون شعرهم إلى ذكر الله والدعوة إليه، والانتصار للحق والذب عنه، فقال تعالى:

﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾ أي: انتصروا من المشركين، من بعد ما اعتدوا عليهم، وبدؤوا بهجائهم، كحسان بن ثابت، وعبدالله بن رواحة، وكعب بن زهير، وكعب بن مالك رضي الله عنهم، فقد صح أن النبي ﷺ قال لحسان: «اهجهم ـ أو قال: هاجهم ـ وجبريل معك» وأنه قال له أيضاً: «يا حسان أجب عن رسول الله ﷺ، اللهم أيده بروح القدس»[2].

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً، خير له من أن يمتلىء شعراً»[3] فمحمول على من يمتلىء قلبه من الشعر، حتى يغلب عليه، فيشغله عن القرآن وعن ذكر الله، فأما إن كان القرآن والعلم الغالبين عليه، فليس جوفه ممتلئاً من الشعر، ولهذا أورد الإمام البخاري هذا الحديث بعد أن ترجم له بقوله: باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر، حتى يصده عن ذكر الله والعلم والقرآن.

ويؤيد ذلك وصف الشعراء المؤمنين الصالحين بقوله تعالى:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب (٦١٤٥ ـ ٦١٤٧).
(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب (٦١٥٢ ـ ٦١٥٣).
(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب (٦١٥٤).

﴿وذكروا الله كثيراً﴾ فدل هذا الوصف على أن الشعر لم يشغلهم عن ذكر الله تعالى.

وختم الله تعالى آيات سورة الشعراء، بهذا الوعيد الشديد لكل ظالم ومعاند للحق، فقال:

﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ [٢٢٧] أي: وسيعلمون أي مرجع سيرجعون إليه بعد الموت، فلا طمع للظالمين بالنجاة من عذاب الله تعالى وعقابه، وسيعلمون أنه ليس لهم وجه من وجوه النجاة والانفلات، وأنه تعالى ما خلقهم ليظلموا أنفسهم ويظلموا غيرهم، قال سبحانه: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾[١].

وجاء ختم السورة بهذا التهديد والوعيد، يضيف إلى عقاب الظالمين في الدنيا، بإهلاكهم وتدميرهم، عذاب الله الذي لا ينقطع عنهم يوم القيامة، فالأمر خطير، والمسؤولية جسيمة وكبيرة، والويل للذين يسلخون أنفسهم عن الشعور بهذه المسؤولية، ويعيشون حياة اللعب والعبث والظلم. والحمد لله أولاً وآخراً.

(١) ص: الآية ٢٧.

الفهـرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة والموضوع	٥
إشفاق وإعراض	٩
العزيز الرحيم	١٢
رسالة موسى وهارون عليهما السلام	١٤
المحاورة	١٧
عناد وانقياد	٢٠
عقاب المعاندين	٢٦
انقياد إبراهيم لله رب العالمين	٣٠
تخاصم أهل النار	٣٥
عناد قوم نوح وعقابهم	٣٨
عناد عاد وعقابهم	٤٠
عناد ثمود وعقابهم	٤٤
عناد قوم لوط وعقابهم	٤٦
عناد أصحاب الأيكة وعقابهم	٤٩
تنزيل القرآن الكريم	٥٣
عناد مشركي	٥٥
التهديد بالعقاب	٥٦
حفظ القرآن عند تنزيله	٥٨
تلقي القرآن وتبليغه	٦٠
تمحيص الحقيقة ودفع أباطيل	٦٤
الفهرس	٦٩
المراجع	٧١

المــراجــع

● **كتب السنة:**

- صحيح البخاري، المطبوع مع فتح الباري.
- فتح الباري، نشر رئاسة إدارة البحوث في السعودية.
- صحيح مسلم، ترتيب وتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
- تيسير الوصول للشيباني، البابي الحلبي.
- الترغيب والترهيب، للمنذري، طبعة قطر.
- سيرة ابن هشام، نشر مكتبة الكليات الأزهرية.

● **كتب التفسير:**

- جامع البيان، للطبري، دار المعرفة بيروت.
- تفسير النيسابوري، هامش تفسير الطبري.
- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تحقيق أطفيش.
- مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، دار القرآن.
- روح المعاني، للآلوسي، دار الفكر.
- تفسير أبي السعود، دار إحياء التراث بيروت.
- الدر المنثور، للسيوطي، مكتبة الباز في مكة.
- فتح القدير، للشوكاني، مكتبة المعارف بالرياض.
- تفسير البيضاوي، مع مجموعة من التفاسير، دار إحياء التراث.
- تفسير النسفي، مع مجموعة من التفاسير، دار إحياء التراث.

- تفسير الخازن، مع مجموعة من التفاسير، دار إحياء التراث.
- أضواء البيان، للشنقيطي.
- تنوير الأذهان من تفسير روح البيان، للصابوني، دار القلم.
- زاد المسير، ابن الجوزي، المكتب الإسلامي.
- في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق.